روايات الهلال

عاشق تراب الأرض

أحمد الشيخ

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

عاشق تراب الأرض

أحمد الشيخ

دار الهلال

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢١٦٣٧

الترقيم الدولى :I.S.B.N X 977-07-1515-8

إهـــداء

لمصر المستقبل.. والناس
ولأرواح الشهداء الذين ضحوا بأعمارهم
في ميادين التحرير المتباعدة والمتقاربة
ولأهاليهم الذين ضحوا
وتماسكوا وصمدوا
ولعيالنا الذين كبروا في غفلة منا
وتأكد لنا أن ميراثهم هزيل
لكن مطامحهم شامخة
وأمنياتهم براح ممدود
في سكة المستقبل
لأنهم من جيل الثورة الجديدة

مقدمة

الكتابة في عالمنا الثالث

سأتخيل أننا ننتمي إلي العالم الثالث رغم قناعتي التامة أننا أكبر من هذا العالم الثالث بما لا يقاس، لكننا سنساير العالم ونقر ونعترف أننا طرح لهذا العالم الثالث مجازا متواطئا ضدنا بفعل من حكمونا وتحكموا في مصائرنا، سنوات وسنوات نسعي لصحوة لا تتحقق، ضاعت أعمارنا حتي رأينا بصيص الأمل يتفجر ثورة قام بها شعب بكل طبقاته وكل فئاته وكل مستوياته علي نحو يبدو مدهشا لمن قرأ التاريخ البشري وراجع الثورات التي كانت محاور تغيير وتبديل في مجتمعات تمردت علي المألوف بشكل غير متوقع، وربما ترتكس المسارات أو تنهض الشعوب من غفلتها وتؤكد جدارتها وتحقق وجودها علي النحو اللائق، هي الخواطر التي راودتني وهيمنت علي فكري منذ أحداث الثورة التي قادها شباب الميادين في غالبية مدننا الكبيرة والصغيرة علي نحو يمكن أن يقال عنه أنه تجديد لآليات الثورات الشعبية، ومهما قيل عن النتائج التي نأمل ان تتحقق وتتبدي أملا يسمح بتطبيق معاييره الخاصة ليكون نجاحا مؤكدا أو نصف نجاح، لكن من عاشوا وتعايشوا من جيلنا في تلك المرحلة التي سبقت الثورة كانت لهم إسهامات ومحاولات لتقديم

ما يمكن أن يقال عنه أنه كان أشبه بتأملات أو اجتهادات خاصة بكل من حاول.

وقد راجعت نفسي وقرأت بعض أوراقي التي تزامنت مع التمهيد لتلك الصراعات الدموية بين شعب أعزل صمم علي ان يظل أعزل، وقوة تملك السلاح، كل السلاح، دبابات وطائرات ومدافع وأدوات قتل تليق بميادين القتال، ولقد شهدنا ما كنا قد اعتدناه في الزمن السابق الذي عايشنا فيه ثورات الشعب ضد أحكام الطيران أو ضد السادات وقراراته في ٩ و ١٠ يناير أو احتجاجات الأمن المركزي، وانتفاضات متقاربة ومتباعدة أيام مبارك الذي تولي أمورنا لثلاثة عقود متتابعة ولم يزد عليه غير القذافي رحمه الله، لكن ما لنا بالسياسة والساسة ونحن نتحسس طريقنا للوعي بمسار تلك البقعة من العالم التي كانت بؤرة حضارية في البدايات القديمة جدا وظلت محورا للبشر الآتين ومن سوف يأتون للفرجة علي بداية الوعي البشري والفن الراسخ والبنايات الصلبة التي تغلبت علي تلك القرون المتتالية والمتتابعة، سبعة آلاف سنة مما تعدون والخافي علينا وعليكم أكثر، لكن أجدادنا كانوا آباء للبشرية بأكثر من معني، بالتوحيد من خلال عقل إخناتون، والقدرة علي إزاحة الغرباء في أزمنة الفراعين بالتتابع،

إذا نحن سلالة حيرتها التناقضات في مسارها وتأملت واستغربت وحاولت أن تكتب علي أوراق البردي شكايات مثل تلك التي كتبها الفلاح الفصيح فلم تسعفنا معرفتنا للغة الأجداد، فكتبنا باللغة العربية وهي ميراث جديد جدير بالتعبير عما يجيش في عقولنا ويسكن في خلايانا من تفاصيل عن الزمن الذي شفناه معا فكتبت " عاشق تراب الأرض " من منطقة العشق الطبيعي الذي رأي كل ما تبدي له معوقات أو علامات تعويق تقف سدودا منيعة ضد التحقق علي النحو اللائق، لكن مشاهداتي حفزتني لأكمل مشواري وألملم الصفحات في نص روائي يلملم ويبوح ويشهد ويسرح بالخيال ويعود لزمن تعايش فيه، يتجاسر ويغوص بوعيه وبلا وعيه ليقدم شهادة كاتب مصري عاشق لتراب أرض الوطن، فهل تتحملون صفحات روايتي وتحظي ببعض وقتكم لتشاركوني في تلك المسارات الطالعة من نخاع النخاع لتحاوركم وتفكر في المستقبل الآتي؟ تأملوا تراب أرض وطنكم وشاركوني عشقه.

أحمد الشيخ

هل كانت علامات الموت بادية علي الأحياء.. وعلامات الصحو بادية علي الأمـــوات.. كـــيف؟

سوف أطلب منكم ومنهم بعض البراح المفتوح لأزرع أمنياتي التي تاهت مني مرة أخري، ولأنني شفت في ملامح أغلبكم علامات لبذور الصراحة والمكاشفة، وقد تأكد لي أنها قادرة علي تفسير ما سوف أبوح بما يكشف المستور والكامن بما كابدت من كتمانه عنكم وببعض ما كنت أداريه عنكم وأنا أتوجع وأكتم آهات مواجعي، ولأن ما فعلتموه أخيراً طرح في جنبات النفوس ارتياحا وطمأنة وصار يسكن كل القلوب المشغولة بالوطن البراح الموغل في القدم، وواعيا بأنني لا أقول كلاما مرسلا لأبرئ ساحتي أو ساحاتكم في المقابل، وربما تصورت أنا وربما يتصور البعض منكم أنني أطلب منكم مساعدتي أو أتطوع بمساعدة البعض منكم فيصير الأمر مبادلة، سماحا بسماح أو مساعدة بمساعدة، وهو ما لم يخطر علي بالي فلا أنتم في حاجة إلي سماحي أو مساعدتي ولا أنا بقادر علي مساعدة البعض منكم ولا مسامحة من يطلب السماح، ربما لأن كل ما أتمناه هو أن أشعر بمعاودة التواصل الذي افتقدناه معا، وقد أنال رضاكم عني وأعدكم برضاي عنكم، هو تعاطف ممزوج بالشفقة علي قدراتنا التي تعطلت في توقيتات متشابهة ومتزامنة، وقد بدا لي ولكم أنها تحولت بالفعل إلي حالة سكون لا يعد بالحركة المكنة رغم الطاقة المخزونة التي لا أرتضي تعويقاتها

لروحي ولا أرتضيها لكم أيضا لأنكم في دواخلكم بحساباتي أكبر من ذلك بكثير، ويمكنني أن أؤكد لكم أن الوطن الذي احتواني واحتواكم ومنحنا هويتنا وأتاح لنا أن ننتسب إليه ونتساند علي أرضه معا، وتاريخنا المشترك رغم وجود بعض الفوارق بيننا في كل حالة من الحالات تنتج عن خصوصيات لا تقلل من قيمة العوامل المشتركة التي تجمعنا، وهي تدعونا أن نبدأ مشاويرنا المشروعة في كل مرحلة، وببداية الفعل مع شريك الرحلة أو الزمن أو المسكن، ولعل المسألة كانت شائكة أكثر، فسامحوني لو بررت لكم كسلي أو عجزي أو تأجيل شروعي في انتقادات لما كنت أواجهه مثلكم تماما، أو ألومكم عليها، لكنني فقط أذكركم بأننا أولاد أصول عريقة وضاربة بجذورها في الأرض الراسخة، برغم أن السلالة خيبت الآمال فيها بحساباتي وحسابات أكثركم أو حتي حسابات البعض منهم.

●●●

كنت أكابد المواجع من دفعات عرفت مصدرها بعدما كبرت وفهمت ما كان يقال قبل أن أخرج للدنيا، أسمع همسات تتمني لو انكتمت أنفاسي لكي أنزاح عنهم وأكف عن الصراخ رغم أني رأيتهم بعد ذلك يطبلون ويزمرون ويرقصون ويشكرون الكريم إذا وهبهم مولودا جديدا، ولحظة الميلاد يفرحون ويهللون ويكبرون، ويوزعون في اليوم السابع تمرا وحلوي وشموعا يوقدونها ويدورون حول مولودهم، لكنني أتذكر كيف كنت أتساند علي رماد القاعة الرطبة قبل أن يحملوني ليربطوا خلاصي فأصبح بشرا منسوبا إليهم بشهادة ميلادي. وكم تمنيت لو أنهم احتووني بحنو أتمناه ليطمئنوا روحي ويمنحوني هويتهم، لكن الطمأنينة جاءت من الناحية الأخري التي عشت أعتز وأتباهي بها عندما وصلت لزمن الوعي الأول، واكتشفت

أنني نذرت لهم روحي بيني وبين روحي ولا أدري كيف، لكنه كان ميراثا ساكنا في كل الخلايا يطالبني بأن أبذل جهدي وأبرهن لروحي أنني صرت وفيا لمن احتووني وصاروا أهلي وناسي ومنحوني رعايتهم بسخاء في العطاء .

سأحاول أن أبوح لكم ببعض ما جري لي في البدايات متباعدا عن الشكايات المباشرة، تعففا عن البوح بالمواجع الكامنة وهي مجردة أو عريانة تستجدي تعاطفكم معي وأنا منكم وبينكم أحظي بالشفقة التي لا أرتضيها لروحي – أو لكم – لأنها قادرة علي تتويه التفاصيل مني ومنكم، ثقة مني في وعيكم الكامن والكاشف لدلالات ساكنة بين السطور، والتي يمكن أن تتواري فنرد عليها بتعاطف لا أسعي إليه أو حتي أرتضيه لي أو لكم، ونحن طرح لهذا الزمان الراسخ الذي يكبس علي الأنفاس ويسعي للخلاص من كل ما يعوق المسار المأمول، وتعاطفكم معي واستعداداتكم لمساعدتي تطوعا علي حساب أوقاتكم ومشاعركم ومشاغلكم وهمومكم التي تتطابق مع همومي أحيانا.

كانت المسألة شراكة في الزمن والحيز الجغرافي والأحلام المشتركة والكوابيس الراسخة علي قلوبنا ربما بسبب كل ما شفته في مراحل الإحساس الفطري قبل الوعي والفهم، وقد دعوتكم لتقبلوا دعوتي لمشاركتي في مساري مع الأحلام الوردية التي لم تتحقق رغم السعي والمكابدة، وقد أمتنع عن البوح ببعض مواجعي تاركا لكم حق اكتشاف الدلالات التي تليق بوعيكم وحسكم المؤكد، ويليق بأمنياتنا المشتركة وقد سكنت عقولنا ومشاعرنا عبر أزمنة عشناها معا بالطول والعرض، وأماكن التقينا فيها وطفنا في أركانها.

مدينة جلسنا في مداخل حاراتها ومخارجها وكل شوارعها، وأكلنا بنهم واستمتاع أحيانا أو بآلية وبغير شهية وبلا حماس أكثر من رغبة مشتركة متشابهة في تأدية الدور المرسوم لسد تلك الفراغات التي سكنت الأمعاء ووصلت إلي المشاعر والنفوس، وسوف أعيدكم إلي حواراتنا في تلك المساكن التي تشاركنا فيها بكل أساليب الشراكة وبما كان يحدث لنا وحولنا، وكيف توافقنا في غالبيتها وتشابهت ردود أفعالنا فاندهشنا، حتي عندما يتصادف ونختلف علي نحو خاطف كان يليق برفاق مسكن مشترك أو جيرة وفية أن يأتي لنا من يعيدنا إلي مربعات التوافق، وكنا نبتسم لبعضنا البعض ونسخر من أنفسنا، وكثيرا ما بحنا بالمزيد عن البدايات المتشابهة بيننا بشكل مؤكد، وربما لأن الجذور تشابهت لأننا أبناء ريف مشترك تتنوع فيه اللهجات وتبقي المعاني في توافق مؤكد، وربما كنت أبوح ببعض ما جري لي أو لواحد منكم فيبوح بدوره قبل أن أسأله إن كان قد شاف شيئا شفته، يتنهد أو يحكي لأكتشف أنه واجه مثلما واجهت، وأنه جري لنا معا بنفس التفاصيل الطالعة من مساحات براح مفتوح ومتباعد حول النهر، زراعات تطرح نباتات متنوعة يرعاها البشر ويتشابهون معا منذ البدايات للتاريخ البشري المحسوب بشكل مؤكد، وأنه حدث مثله أيضا لسكان السواحل الذين صنعوا سفنا للصيد مثلما فعل أجدادنا القدامي عندما صنعوا سفنا للصيد وسفنا للحرب تواجه الغرباء لو تخطي حدودهم غريب. وبمثل ما فعل سكان الصحاري المترامية أو من عاشوا في المناطق الجبلية بعيدا عن وادينا، والذين جاهدنا أن نتعرف عليهم ونتعايش مع تفاصيل ما جري لهم ومنهم، وبمثل سكان الصحاري الجافة التي طوعوها لكي تسترهم وتسد رمقهم بما تجود به استجابة لإصرار سكانها علي أن

تجود بقدر المستطاع، وكأن الصحراء البخيلة كانت تداري في الخفاء تحتها مياه آبار مراوغة تتخفي علي الغرباء، لكنها ككتاب مكشوف لم يستغلق علي أفهام من عاشوا من أجدادنا في الصحاري.

●●●

سوف أذكركم وأنتم تتذكرون مصائر الأجداد القدامي والمحدثين، سوف تقفزون معي ببراعة أعهدها فيكم لنتخطي اللحظات الصعبة التي نعيشها في أيامنا الأخيرة، وبعد سنوات الأشواق المستحيلة في زماننا المشترك دعونا نهرب لبعض الوقت ونتعايش مع علامات راسخة لكي نطمئن أكثر علي أنها باقية، وسوف نعود وقد اغتسلنا تماما أو قولوا تطهرنا عندما نري الواقع ممزوجا بالخيالات المتراكمة، وعلامات الصحو بادية علي الأموات بينما علامات الموت بادية علي الأحياء ؟

صحيح أنهم تركوا لنا علامات ثابتة وكتابات علي برديات لم نكن نعلم شيئا عنها، ثم عرفنا أنها تحكي حكايات متنوعة عن أزمنة عاشوها وتركوا لنا علامات ووصايا وشكايات وصراعات وكشوفاً لم يسبقهم إليها أحد، وتجسدوا لنا في تماثيل عملاقة بملامحهم المتقاربة ومومياواتهم التي لم يتعرف علي أسماء أصحابها أحد، ولعلهم استشعروا أن الخلف الآتي سوف يعجز عن فك رموزهم فتفننوا في تحنيط الأبدان وإخفاء أسرارها، حتي لا يعرف الغرباء تفاصيل تخليدهم لأي أحد، تماثيل في مدافن ومعابد وأهرامات ومسلات وبنايات ندخلها فنتوه، وقد نتحاور فيسمع الأجداد حواراتنا، أحفادا توهتهم الأزمنة وعاشوا في شبه يتم ممدود وموصول، نحاول أن نرفع الرؤوس في مواجهة الغرباء أو من يستعينون بهم من الأتباع ليضمنوا المردود كأولياء أمر لنا. نحلم بالخلاص ونستبعد ما جري

لناسنا في أركان وادينا فيزداد الرجاء وتتسع خريطة الأحلام فينا، ونتحاور فيحكي كل واحد منا حكاية لم تخطر علي بال أحد لكنها طالعة من نفس الوعاء المفتوح داخل نفس الحدود، تتغير لهجاتنا دائما لكن المحتوي مسنود علي نفس التفاصيل التي يتشابه فيها الوادي والدلتا ومساحات فراغ في الصحاري والجبال وشطوط البحار وشط النهر، هو الوطن المعشوق وقد رأيناه حلما قابلا للتحقق، فقرأنا عنه وسرحنا في خيالاتنا لتتجسد ملامح تلك الأمنيات أبحاثا ودراسات ورسوما علي أوراق البردي، أو حتي قطع قماش جهزناها لتكون لوحات نشتريها ونعلقها علي جدران عريانة فنكسوها وندفئها، نتحاور في ألوانها المستوردة بعملات صعبة فنتباكي علي أطلالنا وكأننا نبكي علي الأموات الذين كنا نقطع المسافات الممدودة وسط الغيطان لنصل إليهم، نقرأ الفاتحة علي روح أم أو أب أو جد وربما نتباكي، نعود وقد اغتسلنا وانزرعت في قلوبنا الأمنيات في مواصلة مشوارنا رغم المعوقات، وتتبدي لنا في ساعات البوح والمكاشفة كل دلائل التوحد ويتأكد لي أنكم أهلي ورفقة الزمن الذي عشناه غصبا عنا أو برضانا وقطرات الدم التي تسري في الشرايين والخلايا ترد علينا وتطالبنا بالتوافق، ومشواري الذي قطعته معكم وحلمت أن تتحقق فيه امنياتي وامنياتكم ورؤيتي المشاركة لرؤاكم فيها، وقد سعينا زمنا لنمتزج ونتحول لكيان متوحد، فنتخطي الموانع ونتجاسر ويحكي كل واحد منا تفاصيل الوطن الجديد المأمول غدا.

ولأن كل ما كنا نتمناه أنا وأنتم هو أن نتمهل ونفكر معا في الزمن الآتي، وأن نكف عن التعجل لنفسح للعقول الهادئة حيزا لائقا من الوقت يسمح لها بإتخاذ قرارات مدروسة وجسورة مسنودة علي الوعي الكامن وقادرة علي التعبير، وربما لأننا لم نكن نملك غير المصداقية التي تجلت لكل

من يحيطون أو يرقبوننا من البعيد البعيد عنا قالوا إنها انطلاقة عفوية أو جسارة تتطلب التأمل العميق قبل التفكير في منح الأوسمة لكل من فكر أو شارك من قريب أو من بعيد وعلي فترات متباعدة للخلاص ممن كانوا يراوغون ويتشكلون بحسب أهواء من حكموا وتحكموا وسربوا أموالا فلكية لا يحدها حد ولا يعرف مسارها أحد، لكنها انعكست جوعا وأمراضا وجهلا ومواجع لكل من تتسرب له الدلالات فيتساءل معترضا ويتحمل المطاردة كأنه ارتكب جرما، وعندما نسأل أنفسنا لا نجد ردا غير التأكد من عجزنا عن الفعل أكثر من مواصلة كشف المخازي والملاوعات لنا ولناسنا وأهالينا وقد برعوا فيها واستغفلوا كل من كان يسألهم بإستخفاف لم نشهده مسبقا من أحد، نري التبريرات ونتسمعها ويلتفت كل منا لصاحبه وقد تحول الأمر إلي مراوغات ونكات سمجة تزرع حسرة في قلوبنا، مراوغات وترتيبات وتبريرات للسكون والخمول ومطاردة من يفكر في أي اعتراض أو كشف لمفاسد المسار، مطاردات تؤدي إلي الحبس المبرر زورا وبهتانا بجرائم ارتكبوها في غفلة منهم ومنا، أو حصارات تحولت إلي خصومنا القدامي بينما نكابد ونبوح لبعضنا البعض بمواجعنا ونفر من المتابعة والمراقبة أو التهميش والإبعاد عن نيل بعض الحقوق المشروعة والمستحقة بتبجح مفضوح ربما أملا في أن نسعي إليهم ونقدم فروض الولاء والطاعة، لكنها كانت في نهايات المشاوير والأعمار ندامة علي ارتكاب ذنوب استشعرناها في بعض العيون أو تبجح وتبرير للخطايا، هي رحلة ممدودة بكل ما شفناه فيها من مساخر وكابدناه من مواجع لم نتمكن من نسيانها، فقلنا لأرواحنا إنه من الممكن أن نلملمها مثل نصوص الأهرامات، ولأن ما جري لنا جميعا يتشابه مع نصوص الأهرامات ولا يحق لواحد منا أن يدعي ملكيتها بمفرده

حتي لو كان طرفا أساسيا فيها، لكنها في واقع الأمر مشاهد لما جري ودار حولنا ومعنا تداخلت فيها أزمنة ووجوه ونفوس ناس تصابروا، ويحق لكم أن تصنفوها مذكرات لبعضنا أو مقاطع من شكايات الفلاح المصري البسيط الذي صنفوه فصيحا وهو الوافد من قرية في أحضان الدلتا جاء ليستعيد معكم ما عشناه معا، فباح لكم متلما بحتم له ولم تعد هناك فواصل بين بوح وبوح، والحلم المتجدد لا يزال هناك في الأفق البعيد مبشرا لنا بجنة علي الأرض قد نسكنها أو يسكنها عيالنا.

●●●

بدا لي في بعض الأوقات أنني كنت الوحيد الذي انقطع من جذوره ولم يتعرف عليه أحد، وفي هامش الهامش كنت أعيش بينهم، عاجزا عن الرد علي أسئلة متكررة عن الأم التي أنجبتني، تعاطفا يتوقع أن يكون الرد إعلانا لموت لم يحدث، ربما كان سكوتي يجعل البعض منهم جاهزا للتعاطف معي، وربما كان البعض يشعر بالزهو الخاطف لأنه أفلت من بؤرة هذا الضياع، ومعزولا أتعايش مع روحي أحيانا في هامش دنياهم وكأنني بالفعل كنت بلا جذور أو بجذور مهترئة لا تستحق الحياة في دنياهم، أنفرد بروحي وأتباكي عليها، وربما يخرجني واحد ممن يشاركونني في لعب الكرة، فأخرج لأحرس مرماهم أو أسعي لإحراز هدف يفرحهم ويدعوهم أن يعلنوا أنني صرت ضمن فريقهم الأساسي، وقد أطمئن وأرتاح من وحدتي بين الجدران، وتنضاف إلي فرحة عندما كان أي واحد من الزملاء يستدعيني لمذاكرة مادة يحتاج فيها إلي زميل يحاوره ليتأكد من فهمه.

كنت أتأمل وجه امرأة واقفة أمامي بتقاطيعها الحادة فأشيح عنها

وأشرع في معاودة البحث عن ملامحها المأمولة ثم ألملم تقاطيع وجهها وأنصبها تمثالا خرافيا أكاد أن أعبده.. أذوب رغبة في احتوائه واعتصاره إلي حد الانصهار في بوتقة واعدة بدوام العطاء، أتخيلها تلهث بمواجع كامنه وترتجف بالأشواق قبل أن تخلص أطرافها في حذر وتسألني عن الأحوال، فأتسحب للوراء للمرة الألف وأكتشف أنني وحيد في المكان وأنني أعاود تكرار دورة البحث عنها رغم نسيانها لي، والوقت الممدود الذي كان مكرسا لمداومة بحثي عنها يبدو بلا نهاية، أتراجع حالما أن تسر إلي مرة في المنام بأنها ليست مسخا مستحيلا يعشش في حيز الدماغ المرتعش بالرغبات النهمة وقد اختلطت فيه الأزمنة، أنحدر من دائرة البحث العقيم وأرتكن بكياني المنهك فوق صدر محبوبتي الناهد واللاهث بتدفق المشاعر، لحظتها يتأكد لي أنني كبرت وأن الطفل الباحث عن أمه انزاح وترك لي حيزه المسكون بذكريات ممرورة، أرفض العودة أو متابعة الطرقات الصاخبة عن الوجه الذي لفظني وأزاحني قبل أن يستقيم عودي، وأعتب علي روحي قبل أن أجدك إزائي مرة أخري وأوقن أنني أدور حول نفسي.

●●●

عبثا كنت أدور بحثا عن الوجه الذي تجاهلني قبل أن يستقيم عودي، ربما اشمئزازا من ملامح أهلها الذين كانوا يحيطون بها وأنا محمول بين يديها، وحسبما قالوا لي وهم ينتقدونه أنني كنت معلولا كأي طفل في كفرنا مكسور الجناح، ويومها كنت محمولا بين يديها وهي تقترب منه لتكشف رد فعله أمامهم وهو يراني لأول مرة، أجهدت نفسي لتخيل تقاطيعه الصارمة وكأنني كنت مكانه وعجزت عن الاستمرار في الوقوف أمام أمنياته وأحلامه وقد بدت له بأبواب موصدة، يتبدي لي أنه كان قد تواري خلف أهله وناسه

بعزوتهم واندهاشاتهم المسنودة علي ما تأكدوا منه وكان هو يتفحص ملامحي وصفرة وجهي ويقول لها بغضب بحسب ما كانت الرواية تقال، أنه فقد حلمه في ابنه الذي انتظره، ومتخوفا من فقداني قال لها كلاما وتلقي ردودا فيها احتجاج زائف وتأكيدات أنهم قدموا للوليد الذي كنته كل الرعاية ودفعوا ما كان يلزم أن يدفعه، ولو لم يفعلوا لكان رحيلي عن الدنيا مؤكدا، وبدا لكل من رأي وشهد أنها كانت بداية النهاية، وأنني كنت الوحيد الخاسر عندما واصلت هي مشوارها بمثل ما غير هو مساره واجتلب من رشحوها له لتكون بحسب ما قالوا خادمة ترعاه وترعي ابنه بعد أن صمموا علي استعادته برضاها أو غصبا عنها وعن كل ناسها، هل أخذوني لحما طريا لم يكمل شهرا منذ ميلاده؟ وتساءلوا باستغراب كيف أنني لم أتوافق مع من جاءت لتملأ الفراغ؟ وصرت أدور في الفراغ حسبما قالت جدتي لأبي وهي تستعيد الأحداث وترويها لي بعد أن تأكدت أنها تأكدت من قدرتي علي فهم كلماتها ونطقها وحماية ذاتي رغم أنهم كانوا يتوقعون رحيلي في أي وقت من فرط الإهمال والحرمان، كنت في حضنها أستشعر الونس والشبع وأفر من مشاوير العناء ومستعيدا وجه أمي كنت أسألها متخوفا من فقدانها كما قالوا لي هناك، كنت أتشبث بالملامح رافضا وساوسي حول احتمال موتها كما قالوا لي، فتطمئنني وتعدني بأن نراها معا في يوم من الأيام، وقد رأيناها معا لكنها كانت رؤية مختلسة في خفاء لم أفهم أسبابه، لكن السنوات كانت تتوالي، والجدة الطيبة ترحل عن دنيانا وأعود معك لترعاني وتعلمني في المدينة بحسب الوعد الذي قطعته علي نفسك محاولا أن تخفف علي نفسك ما يمكن أن تواجهه من مصاعب، لكنني عدت معك لترعاني وصرت أسألك وأنت تواجهني بعودك الفارع وتلاعب

أطفالك الصغار لتقول الحقيقة وأنت شاهدي الوحيد الذي يمكن أن أصدقه، أسألك حول وجود أمي أو رحيلها كما رحلت الجدة، راجيا أن تكذب امرأتك فتتأملني بدون اهتمام وبحذر، ثم تسألني إن كنت أشعر بحاجتي إلي أي شئ فأتوه وأسأل نفسي إن كنت قد افتقدتك منذ لفظتني هي في القاعة الساكتة والنسوة يتغامزن والرجال يبرطمون احتجاجا وإعلانا عن خلاص للأم التي ولدت، ويلزم أن تتخلص من خلفتها وترميه لأهله وناسه، والحياة المتواصلة تتيح لمن كنت أراهم حق الخصومة وعدم السكوت، لكن الأمور سارت علي غير هوانا ولابد أنك كنت قد نسيت وجهي خلال الفترة التي عشتها مع الجدة، وكنت أناجيك بدأب في أحلامي ولا أتلقي ردودا منك فأصدق أنك كنت تسمعني ويغلفك الصمت المريب وأنا أسألك عن سر غيابك الممدود وإن لم تكن أنت أصل وجودي؟

تتأملني طيفا متعجلا وتلقي علي ساعتك نظرة ثم تختفي واعدا إياي بالعودة في مساء الغد، وكلما هممت بإمساكك واللحاق بك أعجز، أجدني في صلب الليل المعتم واقفا فوق فراشي مادا ذراعيّ إلي أعلي وكفاي يوشكان أن يلمسا سقف الغرفة، وقبل الشروق بلحظات تتسلل أنت مع جحافل العتمة مخلفا في داخلي شكوكا في أن تكون مشغولا بأموري، تهزني أمك لأفيق وأسمع حديثها المعاد عنك في شرود حالم متأملاً للفراغ السرمدي، أذكر أنني قلت لها في إحدي المرات وأنا أتميز غيظا أنك رحلت عن دنيانا بمثل ما رحلت أمي، فازدادت عيناها اتساعا وعمقا لأري في حدقتيهما صورتين شاحبتين في البداية وتزداد العينان حلكة فتبدوان كبئرين عميقين ساكنين، تتضح الصورتان كلما اتسعت العينان وازدادتا سوادا وعمقا بالإندهاش. أرتعش رعبا وأتراجع متخوفا أن يخرج الوجهان

من صلب العتمة الرحبة وينفذان في لحم أكتافي، أصرخ في هلع ممعن في الإصرار علي الصمود برغم خطوات التراجع العفوية، أسألك داخلي وأنا موقن بأنك رحلت متي أراك؟ ويجيبني صدي صوتي في حدقتي عينيها حالكتي السواد: متي أراك؟

أتمثل رحلتي الأخيرة إليك وباب وجودك الموصد يتحدي الكفين المستميتين ويحجب النداءات الملهوفة الرنين، ووهم أن تكون مطلا علي الطارق من خلال ثغرة في الباب الوهمي يجعلني أتحسسه مع الجدران الصماء فأكتشف الخدعة وأستدير لوجهها المذعور برسم الإحباط فوق وجهي، أراني رجلا يرافق امرأته أمام قبرك وأقرأ اسمك ثم ألتفت إلي زوجتي وأم عيالي محاولا أن أشرح لها ما كنت أراه " ربما مات في غفلة منا وعجز عن إعلان موته غير المتوقع.. ربما كان في أقصي شمال العالم جثة محنطة فوق سرير مسوس الدعائم. ماجدوي أن أعود لمتابعة البحث وأنا لا أعرف حتي علي وجه اليقين أي الأبواب بابه وأي المقابر قبره؟ " تهز رأسها متوترة الملامح وهي تشير إلي اللافتة المكتوبة بخط لا يتواري حاملة اسمه بالأسود القاني فوق الرخام الأبيض وتذكرني بأنها كانت معي في رحلتنا الأخيرة إليه في مدافن قريتنا البعيدة، وتحاول أن تهون علي الأمر فأستكين وأجلس علي المصطبة التي تواجه القبر، أستعيد ملامحه فأشعر أنني أحتاج للبقاء في قريتنا متباعدا عن سراديب المدينة وفكرة العودة أو الاطمئنان الكاذب إلي احتمال العثور علي وجه لا أعرف تفاصيله لكنه يتوافق معنا في ترتيب الأولويات علي النحو الذي يشعرنا بالأمن والاستتباب، ألتفت لأم العيال وأوشك أن أعتب عليها لأنها تطالبني بأن أعاود السعي هناك رغم حكاياتنا التي توافقنا عليها. وتطلب مني السعي

وراء منحة تقبع في الصندوق السحري المسكوك دوما بأيادينا، وأسألك وأنت أم عيالي إن كان ممكنا أن أطل إليه لو وجدته بعيون لائمة يحركها عتاب السنوات التي ضيعناها؟ أنتظر طيفه بينما يدور في أركان العالم مكتفيا كل ليلة به وهو يحوم حولي ويرهق الرأس المرهق بالسعي إثر اطياف أخري من بينها طيف أمي كما كانت بتقاطيعها السمحة والقوية المأمولة، وأستشعر الأمان في حضرته وأمام قبره بينما كانت سنوات البحث المهين عنه بلا عائد، وإذلال التوقع الدائم للحظة سقوطه في أعماق الجب الغويط كانت تصرخ وتنبهني لأكون حذرا من احتمالات فراره في كل يوم، وعندما أراها خلفه أشعر أنها تنوي اختطافه والفرار معه إلي حيث لا أتمكن من اللحاق بهما أو التعرف علي طريق الوصول إليه مرة أخري، يتأكد لي أنها زوجة الأب التي اعتادت أن تبعده عني فأشعر بالمزيد من المواجع والقلق، ويسألني هو في ركن القاعة عن سر سكوتي فلا أملك الجرأة أو الجسارة لأبوح له بما كنت أراه وأفكر فيه فيربت علي كتفي ويتباعد، وعيناي تتابعان خطواتها التي تتبعه بعناد يكيد مشاعري، وعندما أري جدتي أرتمي في أحضانها وأجهش في البكاء، تحتويني وتلملمني قبل أن تسألني عن أسباب انتحابي وسر سكوتي، تذكرني بوعد كنت قد قلته لها مرة بأنني لن أخفي عنها شيئا، وأن شكاياتي سوف تدخل بئرها الغويط ولا يراه أو يشعر به أحد، فأبكي بلا مقدمات وأستعيد وجه أمي التي شفتها خطفا في صحن دارها ولم أشبع منها لأنها انزاحت للوراء وهي تراه، صار الفراغ بيني وبينها مزحوما بالرياح الجالبة للبرد علي غير توقع لأن شمس الله كانت تبخ الصهد وتفسح لقطرات العرق مسارات علي الجباه وفي الوجوه والأبدان.

ولابد أن تلك الرعشة التي أصابتني في ظهيرة هذا اليوم كانت مجلوبة من الفراغ، كان هو يبتسم لها ولي ولجدتي التي تاهت عيناها وبدت عليها الحيرة قبل أن تحتويني وتحملني قبل أن تخرج من المكان، لا أعرف ما قالته أمي أو زوجها ولا عرفت شيئا عما قالته الجدة، لكنها أخرجتني من دارها وتباعدت ملامح الأم التي كانت حلما أتمني لو أراه، وربما انزرعت في الذاكرة مكانها ملامح الرجل ولم تبرحه خلال سنوات التباعد القهري وعلي غير الإرادة كنت أسأل نفسي كيف ولماذا؟ ولا أملك القدرة علي الرد علي روحي مثلما كنت أرد علي الشيخ علي وهو يعلمنا في الكتاب دروسا في الحساب أو يسمع لنا سورا من القرآن، أجاوبه ولا أخشاه وأنال رضاه عني فيمد يده بقطعة الملبن الملفوفة في الورقة البيضاء ويطالبني بأن آكلها أمامه، ويضيف أنه يخشي أن يختطفها العيال الأكبر مني لو بقيت في سيالتي، أخرجها وآكلها علي مهل كما يريد ليكيدهم قائلا ومؤكدا أنه رآهم يختطفون وجبات الغداء من أمثالي من العيال الصغار، أشعر أنه يحميني ويدعوني لمواصلة مشواري في حفظ القرآن، ولكن الأمنيات لم تتحقق لأنني تركت الكفر ورحت مع جدتي إلي بيت أبي في المدينة البراح المفتوح، وفصول المدرسة التي يجلس تلاميذها علي دكك، وينظرون إلي الأفندية وهم يكتبون عليها بالطباشير أرقاما وكلمات، والأستاذ شرف مدرس الحساب يسألني في الجمع والطرح وجدول الضرب وأجيب، فيبدو مندهشا وراضيا بحماس ويؤكد لعيال الفصل أنني ولد شاطر، ويضيف أنني سأصبح الأول عليهم لو طاوعته وحفظت ما تبقي من جدول الضرب قبل كل العيال، ولا بد أنني كنت حريصا علي وعده وقادرا علي تحقيق أمنياته البسيطة في أغلب الأيام.

●●●

اعتدت رؤيتهم في تلك الغفوات بتفاصيل ملامحهم المؤكدة في منامات تتماهي ثم تتوه، ويتأكد لي أنني دخلت صحوة مباغتة جديدة تنضاف إلي صحوات مكتملة تتخلل غفواتي الممدودة لتنقطع الرؤيا وتتوه مني تفاصيل الملامح التي تخصني، لعلني تمكنت من استعادتها في الرؤي المطوطة المتتابعة وهي تقتحم خيالاتي في بدايات كل صحوة لوجوه أخري وملامح تفزعني أحيانا، ربما لأنها تتخفي في الثياب المسلوبة أو محبوكة التصنيع إلي حد التشابه المتطابق لكنها لا تتمكن من رسم روح التقاطيع والملامح، ولأنها كيانات مدسوسة علينا بما لا يقبل الشك فقد كانت تأتي لتفزعني، فأقوم من رقدتي لأتخفف من حالات المطاردة المتواصلة من وجوه خصوم لا أملك حتي أن أتجاهلهم أو أشيح عنهم وهم يترصدون خطواتي بلا كسل أو ملل، حتي في الحالات التي يبرعون فيها مثلا وتوشك الوجوه أن تتشابه إلي حد أن التفرقة بين الوجوه تكون عسيرة في الصحو أحيانا، فما بالكم بها في المنامات الكابوسية المدسوسة علينا في الصحو والرقاد والاستنساخ المتراكم الذي يتشكل ملامح شبه مشتركة طالعة من نفس الجذور وهي تعاود الظهور لأفرح بعودتها بعد أزمنة تباعدها وقد صارت منامات لا تتجسد كيانات حية تتحاور أو تنطق أو تحكي وتقول لنا شيئا عن الجذور المشتركة معي، وأنا أواصل تحريض الذاكرة لكي تتوافق وترصد ما شافته خلايا العقل الباطن في المنامات المتقاطعة والممدودة، فتشكو ذاكرتي من زحام تلك الرؤي المتعارضة، أحايلها وأعد بأن أحوطها بكل الرعاية وأصدقها فتتجسد ذاكرتي كيانا حيا يواجهني، متأملا وساخرا من أمنياتي المشروعة للوصول إلي توظيف تلك المستحيلات المرسومة في خيالاتي، كيانا

حيا يعي دوره ويقوم برصد ما أراه في مناماتي متجسدا بلا هوية محددة وبملامح متقاربة فأقف عند حافة اليأس من إمكانياتي لأجعلها أكثر طاعة، فتقهقه وتتمنع وتتباعد أكثر، وأتعايش مع الفراغ، فراغ الذاكرة من كل إمكانياتها للربط بين ملامح بشرية تاهت مني في الزحام وإن كنت أعرف هويتها وأستشعرها، وأوشك أن أعتب عليها لأنها تفر مني ولا تفكر في الرجوع مستنكرة أنها ما زالت تخطر علي البال، فأستشعر اليتم وأحاول معاندا نفسي أن أستعيدها واعدا أن أحدد هويتها وأكون جاهزا للحوار معها، مستنكرا فرارها بعد رؤيتها بشكل متكرر في غفوات تتلوها منامات محايدة تناوشني وتتضاحك معي وتلفلفني وتعايرني بضعف ذاكرتي، فأنكر وأعتب علي تلك الملامح متوددا لها ومؤكدا أننا ننتمي لجذور واحدة، وأنني أتماسك وأقاومهم ولا أضعف إلي الحد الذي يبرر أن يتحول حواري مع تلك الملامح إلي معايرة ساخرة، ولولا العزيمة والعناد الواثق من قدرته حتي ولو كان فاقدا ذاكرته في الصحو واعيا ومطمئنا لوجودها في المنامات، وربما استشعرت خلال حواري مع ذاكرتي بأنني في كل الحالات لم أخسر شيئا، لأن الكنز الساكن في خلايا الوعي واللاوعي لم يهجرني حتي لو تشكل علي نحو آخر، أفرح ثم أنفي ضعفي، ومؤكدا لذاكرتي التي كنت أتحايل عليها وأرتجيها أن تسعفني وتكف عن معايرتي وهي ذاكرتي، وأقول لنفسي إن كل ما جري هو تكاسل الذاكرة التي شاخت واعتادت الاستسلام للنسيان الكامل قبل أن يتم الصحو ثم يكتمل بعد تلك الغفوات الخاطفة.

وكانت جدتي لأبى تحميني من ملاعيب زوجة الأب وتحذرني منها ومن تناول وجبة تقدمها لي في مواعيد مغايرة للوجبات المألوفة التي تكون مع الكل إفطارا وغداء أو حتي عشاء، أسألها لماذا فتخوفني من جرعة سم

زعاف قادر علي قتلي تدسها من تكرهني وتتمني موتي، أهز رأسي مستسلما وأنتوي أن أطيعها غصبا عني حماية لروحي، أتخيل زوجة الأب وقد بدلت مكانها وراحت لتعيش مكان أمي في الدار البراح التي تسكنها مع زوجها، وتعود أمي لتعيش معنا وأراها كل صباح وأتناول أية لقمة تناولها لي في أي الأوقات، تداعبني وتلاعبني بمثل ما كانت تفعل مع أطفال غرباء دخلوا دارها يوم الزيارة الخاطفة، كانت الفكرة تبدو هينة ومريحة للكل، فبدلا من أن أبدو يتيما أتحول إلي ابن لأم وأب مثل كل العيال الذين أراهم كل يوم في المدرسة أو الشارع، كنت أحيانا أوشك أن أسأل جدتي عن إمكانية تنفيذ فكرتي ثم أتراجع وأراهما في الأحلام زوجا وزوجة وعندهما أخوة لي، ألاعبهم وأشاركهم في كل شئ، أشعر معهم أنني مثل أصحابي الذين لهم ام واب واخوة واخوات، لكنني كنت أتراجع ولا أبوح لها حتي رأيت المنام المفزع الذي كادت روحي أن تطلع فيه لأن يد الرجل كانت تمسك بعنقي وكان يصرخ بينما يضغط عليه أكثر وأحاول التقاط أنفاسي ولا أتمكن أن أفلت منه، وكان يسبني ويلعنني لأنني قلت لأمي فكرتي التي لم أبح بها لأحد، وأنها وافقت وطالبته بأن يتركها لتلبي مطالبي، متناسيا أن لها منه أولادا أصغر وبنات يحتاجون لوجودها بينهم، ولا بد أن صرخاتي أفزعت الكل فقاموا من نومهم وسألوني عن سر صرخاتي فلم أبح لهم بشئ، ولا قلت ما سمعته من زوج الأم أو تهديداته بقتلي لو بحت لهم بأي شئ، لكن الأيام كانت تمضي ببطء وجدتي تكتفي بالنظر إلي وتبدو وكأنها تنتظر أن أحكي لها ما رأيته في الكابوس أو سمعته، أتردد وأحتمل مواجع الخوف من عودة الرجل لمطاردتي في المنام وأنا وحيد، وربما توهمت أنه من الممكن أن يقتلني فقلت لروحي: ولماذا تخفي

ما شفته عن جدتك؟ وبدا لي أنها ستكون في صفي في كل الحالات والأوقات وربما تشاركني المنامات والأحلام وتحميني من الكوابيس لو داهمتني، وقبل أن أبوح لها وأتشكي ربتت علي ظهري بحنو وأخذتني في حضنها، وشعرت بها تنتفض وتبكي وكأنها بدموعها تدعوني للبوح بما رأيته، يومها بحت لها علي مهل وعيناها مركزتان علي ملامحي، تحتويني أحيانا وتخرجني من حضنها لتراني وتتأمل تقاطيعي، فأبكي أكثر وأواصل حكايتي لأنهيها فتأخذني في حضنها وتربت علي ظهري، تدعوني أن أكف عن البكاء وهي تبكي، وأحاول ولا أفلح في الكف عن مواصلة البكاء حتي يحتويني النعاس وأراني طائرا بجناحين، قادرا علي الصعود والهبوط علي مهل أو بسرعة، والجناحان يرفرفان علي وجه جدتي لتستنشق نسمات الهواء وهي في غفلتها وأنا أرفرف عليها وأشعر بالسعادة الغامرة، وتستنشق هي الهواء وعلي وجهها بسمة رضا وارتياح.

●●●

كان في المنامات يتجلي لي صورة تتشابه علي نحو ما مع ملامح جدنا الكبير، وربما كانت تلك الثياب المغايرة واللحية الأكثر طولا وبياضاً تسهم في تبديل التقاطيع المألوفة لوجه جدي الذي أحببناه وافتقدناه برحيله عن دنيانا، وقبل أن أتعرف عليه أكثر وأكثر أو أتأكد من تقاطيعه علي النحو الكافي، وكنت في سنوات الصبا المبكر محميا بإسمه في دروب الكفر من العيال الكبار لو عاندوني أو خطف أحدهم لعبة تخصني، وآباؤهم وأمهاتهم أو أخوتهم الكبار ينبهونهم بأنني حفيده، فيتباعدون أو يتبدلون إلي أعوان، ويلاعبونني بحسب ما أرغب دونما اعتراض وأنا وافد في زيارة للكفر في أجازة نصف العام أو أجازة الصيف، وداره البراح تمتليء بأنفاسه وعيناه

الفاحصتان المتوددتان تتباعدان بعد أن افتقدته في الدار البراح التي كان يستقبلنا فيها ببشاشة وترحاب، ثم يحملني ويدور بي عدة دورات ويقبلني قبل أن يسلم علي أبي ويدعوه للجلوس ليرتاح من عناء السفر، وربما يفاتحه ويطلب منه العودة لنعيش في داره التي هي دارنا وأبي يسايره ويعده بأن يفكر في الأمر، أو يتعلل بالسنة الدراسية التي يمكن أن تضيع لو لم أكمل العام الدراسي في تلك المدينة القريبة من كفرنا.

ربما كنت يومها في التاسعة ومشواري للكفر مع الأب الساكت يبدو عبئا وقد طال سكوته طوال الطريق مترددا عن البوح بما كان يخفيه بداخله من أحزان، كان الوقت يمضي وهو يتأملني بينما نركب القطار ليوصلنا إلي كفرنا المهجور، فرحانا لأنني سألتقي بالجد، ربما تردد كثيرا وهو يبوح لي بأننا لن نلتقي بالجد هذه المرة لأنه سافر لبلاد الحجاز ليصبح حاجا حقيقيا، وعندما دخلنا الدار سألت جدرانها عنه فباحت لي بأنه رحل، والحزن المخيم علي الوجوه يزرع القلق ويطرحه علينا، كانت أياما ثقيلة والعبارات التي كان الكبار يتبادلونها مقتضبة وخافتة، ولم يكن هناك غير أصوات المشايخ يرتلون القرآن تباعا ويخرجون صامتين ليفسحوا مدخل الدار لغيرهم ليجلسوا ويرتلوا الآيات، وسمعت عبارات الرحمة المتكررة تقال وكأنها اعتذارات ممرورة عن خطأ ارتكبوه جميعا، فتأكدت أنه لن يعود حتي قبل أن يبوح لي ابن عم أكبر مني أنه مات فأبكاني وبكي معي، وندمت علي الأيام التي عشناها بعيدا عنه كلما سمعت أحد أعمامي يقول أنه سافر في رحلة الحج وطالت وسوف تطول أكثر لتصبح أكذوبة مكشوفة تشعرني بالحزن أكثر علي من مات، أتماسك مانعا نفسي من تكذيبهم لأفرغ ما كان مخزونا في القلب المحزون بحزن أكبر من حزنهم، وأوشك أن أفاتح أبي

عاتبا عليه لائما لأنه لم يخبرني بما جري لجدي ونحن في المدينة، لكنني لم أفعل وما عرفت بعدها أن أستعيده أو أستعيد أيامه التي كنت أقضيها بجواره وأحتمي به وأنا بالقرب منه أو بعيدا عنه، أحتمي بظله وأغتفر له ما قيل عنه بأنه اعتاد لأسباب غير معروفة أن يدفع أحد عياله أو عيال عياله باليد أو القدم ليغطس في الترعة أيام الفيضانات ولا أحد يعرف في حواراتهم لماذا كانت دفعاته للعيال أيام الفيضان والنيل يجود بسخاء علي الغيطان، وقالوا إنه كان يدفع الصبي دفعا قبل أن يكتمل عوده ويصير شابا، يدفعه في أيام الفيضان بالتتابع قبل اكتمال موسم الفيضان ويجلس ليتفرج باسما علي أي واحد منهم بحياد هادئ، ربما يقف ليتأمل نتيجة الدفعة بحساباته، وغالبا ما كان يعاود الجلوس مطمئنا، وهو يعتب علي نفسه بعد أن يتأكد أن قدرات الحفيد بعد الدفعة ستتخطي المخاطر في الحالات التي يغالب فيها الصبي أمواج الترعة وهي ترمح فيدعوه بأن يواصل، يقولون في جلسات السمر أنه كان يقيس سرعة الصبي وسرعة مياه النهر في تلك التوقيتات بدقة، وكيف كان يجبر الصبية علي عبور الترعة للشاطئ الآخر في كل مرة، ولأن تلك النتائج كلها كانت لصالح من دفعهم خلسة ليعبروا عائدين كما يأمرهم وهم يسبحون ناحية الشاطئ الذي نزلوا منه، كان يبتسم قبل أن ينادي أي واحد منهم ليجلس إلي جواره لأنه أفلح في السباحة رغم شدة الفيضان، يومها تأكدت أنني تعلمت السباحة بشكل أفضل مما كنت أفعل بحمام نادي طنطا الرياضي.

كنت أصغر أحفاده الكثار الذين يتوه فيهم ويتشكي لي من كثرتهم بزهو بينما يجلسني إلي جواره دائما حول طبلية العشاء المزحومة بوجبات دسمة وبعينيه يتأملنا ليتأكد من اكتمالنا رجالا وصبية حول الطبلية، والنسوة

والبنات حول طبلية مجاورة، وقطع اللحم أو الطيور التي سلقوها وحمروها وفاحت رائحتها فيكون راضيا ويعد بمكافأة من طبخت وهو يقطع اللحم الساخن الذي يفوح برائحته الدخان، بينما يوزع الأنصبة بسخاء علينا جميعا مطالبا من يري أن نصيبه أقل من إشباعه بأن يطالب بالمزيد، وكانت أنصبة الصغار والكبار تكفيهم دائما وكنت أشعر أنه يختار لي ما أرتاح لطعمه أو شكله، يضيف قطعة منها كلما ابتلعت من نصيبي قطعة وأشعر بالشبع، لكنه يمد يده بقطعة من نوع أحبه ويحايلني لأبتلعها من أجل خاطره فأبتلعها وأنا أشعر بمزيد من الامتلاء، وكنا كبارا وصغارا نتبادل النظرات كي نجتهد لنكمل كل ما أعطاه لنا لنشبع تماما لأنه لايسمح لمن يشاركه الطعام أن يقوم إلا بعد أن يتأكد من شبعه، مبتسما بشاربه الكثيف ذى الشعر الأبيض الذي يغطي فمه، شعر أبيض وناعم وكثيف يغطي الفم بالشفتين لكنه لا يعوقه عن الكلام أو تمرير الطعام، يأكل مستمتعا بكل ما يدخله في فمه وهو يتابعنا بنظراته الفاحصة المتأملة.

وكنا بعد شعورنا بالشبع نجلس في براح المندرة ونسمع حكاياتهم عنه وحكايات من يفدون إليه للسهر والسمر واستعادة الحكايات، وحكاياتهم عنه لا تنتهي أبدا، وكل حكاية نسمعها عنه منهم تجسده أمامنا كيانا حيا، ممسكا بشمروخه الموروث القادر علي تخويف الخصوم وإسالة دمهم أو إنهاء الحياة لمن يتصدر له، يسمع ويهز الرأس مستعيدا ما كان مزهوا في الخفاء بروحه، وربما كنت في كل مرة أسمع حكاياته أشعر بأننا ما زلنا صغارا وأن مشوارنا بعيد بعيد لأن عياله وبينهم أعمامي لم يتمكنوا من مجاراته او القدرة علي انتزاع الدهشة وحسن السمعة كما فعل هو وقد تحول إلي مساحة زهو كامن في قلوبهم وقلوبنا علي امتداد أعمارنا، لكن

حنانه وعطفه علينا كان يمنحنا القدرة علي حبه أكثر من عياله الكبار، أبي وأعمامي وأولاد أعمامهم الكثار الذين يتباهون بأنهم من نفس السلالة.

لكنه في قمة زهوهم به كان يشرع في الحديث فيجلب الدهشة وهو يحكي عن الجن الساكن تحت الأرض، الذين سمعنا عنهم والذين لم نسمع عنهم قبلا لكننا لا نراهم أبدا، لكنه يحدثنا ويرسم بالكلمات صورا مغايرة للبشر الذين كان يختارهم بعناية، ويحكي عنهم فيدهشنا لأننا لم نلتق أو نسمع عن بعضهم أو من سمعنا حكايات خاطفة عنهم، لكنه كان يدعونا وهو يجسدهم في حكاياته لأن نستشعر أنفاسهم وكأنهم يحيطوننا وربما يباركوننا، ومزهوا بسلالته وكونه امتدادا لأجداد يحق لنا أن نعتز بهم ونتباهي، وننظر إلي الرسوم المعلقة علي جدران المندرة البراح في براويزها وكأنها تهز الرؤوس تأييدا لحكاياته عنهم وهم سلالات لأزمنة متباعدة تماما، رجال بشوارب وطرابيش وعمامات فوق الرؤوس، أو صور لفراعين أكبر من تلك التي نراها في كتبنا المدرسية، أتأكد من صدقه تماما بأنهم من نفس السلالات التي طلعنا منها وورثنا خيرها ونيلها وأرضها المعشوقة فنعتز بهم أكثر، لكن أبي في مثل تلك السهرات كان يوصيه راجيا أن يكف عن عادته القديمة بدفع الصبية في مياه الترعة ليجبرهم علي تعلم السباحة أيام الفيضان، ويضيف وكأنه يعتذر له وهو ينظر ناحيتي أن بشائر الفيضان هلت، فيهز الجد رأسه معبرا عن إعجابه بملامحي التي تتشابه مع ملامحه في مثل عمري، ويربت علي ظهري متمتما بكلمات ثم يهز رأسه باسما ويقول له أنه لن يدخلني التجربة إلا لو تأكد من أنني سأجتازها وكان أبي يشعر بالخجل، كانت عيناه تتركزان علي وجه الجد ثم تطوفان علي وجوه تبدو غير راضية عما سمعته منه، لكن الجد يهز رأسه مهونا عليهم

الأمر تماما ملتمسا العذر لأبي الذي يطلب منه السماح فيهز الرأس ويعلق علي ما سمعه بأن خوف أبي مبالغ فيه، يتبادلون النظرات وأراني بؤرة تحيط بها النظرات إشفاقا أو إعجابا أو حسدا، وأنا آمن إلي جواره ومحمي بحسه وتواجده دائما في البؤرة والعيون المنبهرة أو المغلولة.

●●●

بدا لي في الصباح التالي أنه كان عارفا بأنني سأجتازها، قبلها بساعات كان أبي يعاود طلبه بأكثر مما كان يفعل في كل مرة، والجد يطمئنه وهو يناوشني بإرتياح، ربما اطمأن بينه وبين نفسه بمقدرتي علي عبور الترعة حتي لو دفعني بكل قوته سأعبر عائما بعزم أستمده من بعض عزمه، وقد حكي بعض من شافوه أو سمعوا الحكاية ممن شافوه وهو يدفعني بعنف، وكيف أنني لم أصرخ خوفا أو رهبة وكأنني كنت أعرف مسبقا ما سوف يحدث وأجهز نفسي لدفعته دون صرخة، وأضافوا كيف أنني عبرت واتجهت ناحيته في مشوار الرجوع دون إشارة منه مثلما كان يفعل مع أولاد أولاده الأكبر مني، وأبي يسمع وعيناه تتحركان ناحيته وناحيتي بالتتابع وعيون حولنا تحاول أن تستوضح، بحثا عن تفسير لحادث عارض مر أمامهم مثله كثير بتفاصيل مغايرة، وكان الرجل يهز رأسه ولا يبدو عليه أنه انشغل بهم وبتعليقاتهم أو أنه سوف يرد عليهم، كان يربت علي كتفي وظهري ويضمني إليه ضما حنونا، وعندما سألوني لم أعرف كيف أجيبهم رغم تشجيعهم، ربما متحيرا أو متخوفا من الاحتجاج غير المنطوق عليه أو العتاب علي ماجري منه، وكيف أن أي واحد منهم لم يتجاسر علي معاتبته أو لومه وهو يراني أمامه مرتاح التقاطيع دون علامات بادية للخوف، كانت حكاية الجد مع أحفاده بحسب ما قالوا بداية لتعليم

الصغار أول درس في السباحة دون قلق أو خوف من ماء النهر في أيام الفيضان.

كانوا يجلسون حولنا علي عادتهم في المندرة الكبيرة ويتأملون ملامحه وهو يحكي لهم حكايات قديمة عن عروس النيل التي كان الأجداد القدامي يقدمونها لنهرهم قربانا ليحافظ علي مساره الصاعد ليروي الزراعات، وكيف أنها لم تكن في أية مرة تغرق في مياه النهر، بل كان يحتويها ويحميها وينقلها إلي قصر يخصه في واحدة من المرتفعات التي تمده بالماء الذي يتولي نقله إلينا كأمانة يتعهد بتوصيلها إلينا لنعيش في أمن دونما قلق، وعروس النيل التي يحدثهم عنها تعيش مع زميلاتها من عرائس النيل، وحولهن الخادمات يقضين مطالبهن دون مراجعة أو تأجيل، وأعمامي يستمعون وتبدو علي تقاطيع الوجوه علامات الشك دون أن يجرؤ أيهم أن ينطقها أو يترجمها لكلمات، ربما يهز الجد دماغه وهو يراهم علي هذا النحو ساكتين لا يعلق أيهم بأي كلام علي ما قاله الجد، أحيانا كان يأمرهم بالعودة لبيوتهم والرقاد في أحضان زوجاتهم أو مع عيالهم، فيتبادلون النظرات ويوافقون علي ترك المكان تلبية لما أمرهم به قبل أن ينفعل ويطردهم طردا لو تكاسلوا، ويقهقه وهو يودعهم بما يرضيهم ويجبر بخواطرهم فيتضاحكون ويتحركون، ربما يتجاسرون وهم يتباعدون علي تفسير ما قاله الرجل وما يلزم أن يتعلموه منه ومن حكاياته عن النيل وعروس النيل، وربما يتساءل أحدهم في جلسة أخري إن كان النيل يرضي باستبدال تلك العروس الجميلة بصبي يمكن بعد أن يكبر ليصير عريسا جميلا ينافسه في السيطرة علي مياه النهر بعد بضع سنوات، فيبتسم ويربت علي كتفي داعيا لي أن أكبر وأكون واعيا وناجحا في حياتي، يبدلون

الموضوع ويتقبلون ما يقوله عن ذلك الزمن الذي فات منهم ولم يتعايشوا معه فيه بكل ما يحتويه من بساطة وراحة وأحلام مشروعة وحياة يتعامل الكل فيها بكثير من مراعاة الأصول، وكيف أن تفريعة النيل وهي تطل علي رأس غيطه الكبير تحدثه وتطهره عندما ينزل إليها قبل الفجر بساعة وكيف كان يحسب قوة أمواج تلك التفريعة ويعرف مسارها لأنها كانت تبوح له بالأسرار، وكثيرة هي الحكايات التي كان يرويها لهم في الجلسات التي تجمعهم، ويستمعون ثم يرحلون ويتحاورون ويتندرون، دون أن يجرؤ أيهم علي مقاطعته أو حتي إبداء التشكك في مصداقية ما قاله.

●●●

أفهمتها يا أبي أن احتمال موتك هو الأكثر معقولية وأن الأجدي لها أن تكف عن تكرار تلك الحكايات المحفوظة عنك وأن تترك الاسترخاء الكسول والشروع في معاونتي علي الصمود لإكمال رحلة المستحيل الذي عشقته، لكنني عجزت عن الاعتراف الصريح بأنني لا أعرفك أصلا منذ اكتشفت وجودي، وتخيلت لحظة عربيدة أوجدتني ولفظتني لقيطا بلا مأوي غير ما أصنعه وأحوطه بنفسي، لكنها كانت تعشق طيفك إلي حد الجنون فحرصت أشد الحرص عليها ولم أقرر بالقطع أنني لا أنتظرك وأن كل ما أعرفه عنك محض حكايات قديمة كانت تقولها في أنحاء العالم وعبر متاهات البحار السبعة دون رهبة، وأنك تعود إليها سرا في مواسم الحصاد وتمنحها وصاياك مع ما تجلبه من كنوز البلدان الغريبة (حول عودتك إليها سرا كانت تتكلم بصوت خافت مرعوش برعب توقع اكتشاف الأكذوبة المكررة) وفي كل مرة كانت تشير إلي صندوقها المسكوك دوما دون أن تجرؤ ولو مرة واحدة علي فتحه لتزيل شكوكنا التي كانت تستفحل يوما بعد يوم، وكم كنت أتوق إلي فتحه مرة، لأن شيطانا لعينا ركب دماغي وراح يمرح في داخلي

هاتفا بأن الصندوق خال من كل شيء .

كنت أفتقد الأمان كما ينبغي يا " سها " ففكرت أن أستعيده تواقا إلي الخلاص من سخف أشباح المدينة المقنعة بالأضواء الملونة ومن ضجيجها المرهق، وهروبا من مرارة اللعاب الدائمة بإفراز البطن الخاوية ومن عري شتاء المدينة المكشوفة في قلب الصحراء، ومنذ طردني بليل عاريا من كل ما يسترني، واجهت في منحنياتها رعب التوقع الدائم للحظة السقوط تحت واحدة من عجلات سياراتها المجنونة أتحمل عشرات الصفعات والركلات الحادة بدون أسباب كافية، بل إنني في رحلة العودة المسائية كنت أتخفي عبثا من كلاب المدينة المسعورة وقططها البرية الشرسة وألهث بالفرار من المطاردات الوحشية المتنمرة.

عدت إليه أسأله، اندفعت بالرغبة في الاقتراب منه لسرد حكاياتي الصغيرة عن أحلام عمري التائهة في عينيك الخضراوين وخصلات شعرك الذهبي المسترسل إلي ما تحت الركبتين، وعن براعتي في تغطيتك به من عريك في أمسيات الخميس والتفنن في النفاذ إليك من خلاله، استدار مهملا إياي عند بابه فأمسكت به راجيا أن يفهمني، أفهمته أن وجهك الصبوح سوف يوجد فأشاح عني بالسحنة الصارمة وغلف الوجه بالاندهاش المفتعل، كان يسأل الغرباء دوني عن سر عودتي متوهما أنني ما عدت إلا لأخذ حقي في ميراث قديم لم يسو بيننا لأنه صرخ متوثبا: أفصح عن حقيقة ما تريده، قلت أرجوه أن يستمع إلي ما تبقي من كلماتي: لن أسألك عن وصايا أبي التي ادعت أمنا أنها كانت في قاع صندوقها السحري. لحظتها راح يرمقني بغل مسرف في التحدي، استحال كل منا إلي زوج من العيون المحدقة بالإصرار في وجه الآخر، لكنني خفت من السقوط منهزما متشككا في درع

الحماية الذي حملته حرصا، قال والشرر يتطاير مع حبات اللعاب صهدا لافحا لا أدري كيف يخرج من جوف كائن حي: لن أعطي شيئا.

أوضحت له أنني ما جئت إلا رغبة في العطاء حتي النفس الأخير ربما لأستشعر الأمان مرة، ساعتها كنت أسترجع كل ما حصلته من معلومات عن كيفيه حرث الجبال والصحاري وفرشها بالخضرة بكل درجاتها لأكون جاهزا إذا ما عنّ له أن يسأل، لكنه كان يعيش حذره الدائم من لحظة الحساب، ووجهه المربد يتحول إلي تقطيبة عريضة مرعبة، عيناه تنغرسان في لحم أكتافي سهاما مسمومة يستحيل الإفلات من حدتها، فأخاف إلي الحد الذي أهم فيه بالعودة، لكنني أتماسك بإرادة العطاء وأسأله عن أمنا وإن كانت في صحن الدار كعادتها فيسألني متوعدا عما إذا كنت قد ظللت طوال السنوات أدبر أمري؟ ويضيف أنه دبر أمره هو الآخر استعدادا للحظة المواجهة، قلت له صراحة أنني نسيت فكرة الحساب الذي يعيش رعبه وأنني أشك في قيمة صندوق أمنا المسكوك، وحين حاولت لمسه بحكم صلة الدم متمثلا فيه وجه أبي الذي فقدته شرع في الفرار كأنما يخشي أن أنقض وضوءه وشرع يحكم خيوط دفاعه، حاولت أن أغير الموضوع راغبا في النفاذ إليه وإزاحة خوفه الممزوج بالخبث الساذج، تمثلته عاريا من كل شئ حتي ثياب وقاره المحبوك ساعة أن يمارس الحب مع زوجته خفية فابتسمت ونسيت كل رعبي مجردا إياه من كل طاقته برغم شمروخه الذي أوهم الكل بأنه مسحور لأنه ورثه عن أبي في غفلة مني ثم راح يحركه في ضجر متأففاً ويستمر في ذات الوقت بالضحكات المجلجلة فتبدو محاولاته غلافا محدود الطاقة يشف عن أحاسيسه المتوقدة الحذرة التي تغلي داخله من فرط الخوف، وكنت أسأل نفسي: متي؟ متي تواتيه الشجاعة في أن

يقول ما يريد بالحق قوله؟

كنت لا أعول علي فهمه قبل مواجهته فتجاهلت كفه الضخمة وظللت أتسمع بدون رهبة همسات أهل القرية المتعجبة التي تؤكد أنني سوف أتلقي بالحتم ضربة من شمروخه المارد، كان علي أن أتمالك نفسى باسما بوجهه الأسمر وعينيه عميقني الأغوار لأتمكن من الصمود أمام نظراته القلقة المتوترة وكفه المرعوش بالتحفز، وكنت أعد نفسي لسؤاله في أي وقت عن أمي دون أن أتجاسر أو أسأل ربما إشفاقا عليه أو علي روحي من المواجع.

●●●

كان أبي يحدثني عن تفاصيل حلمه في أن تتحقق سعادته بزيادة الوعي بالدنيا وما يتبدل فيها قبل وبعد رحيل الجد، وكيف أن أمنياته لم تتحقق إلا بعد صراعات متواصلة مع خصوم له لم يكن ينتبه لوجودهم وهم يدورون حولهم علي نحو متواصل، وأنه كان يلزم أن ننتبه لنصون أنفسنا من مخاطر الزمان ونحن نعيش غرباء في تلك المدينة، وأنه لولا " بركات السيد البدوي " التي حلت علينا واحتوتنا لنعيش فيها وننال كل ما نحتاجه من مطالب الحياة لشعرنا بالغربة أكثر، وكيف أن تربية الجيل الذي سوف يأتي ويشاركنا المعيشة في تلك المدينة سيكون أصعب ويذكرني بأنني صرت شابا وأنه يتمني أن يراني زوجا لبنت الحلال لأكون أبا لعيال يراهم ويفرح بهم، وبأنه لو تحقق حلمه أن يصير جدا لعيال من خلفتي فإن الدنيا البراح لن تتسع وتحتويه، وأنه سوف يساعدني ويحاول تربيتهم وتوعيتهم بضرورة حماية النهر ممن يطمعون في قطع مساراته، وكيف أنه يصعد إلينا ويفي بوعده في مواعيده كل عام ولا يخالفها لنروي أرضنا من ماء النهر الذي يعطينا من مجراه الآتي من البعيد البعيد، ويواصل فأستعيد ما كان

جدي يبوح به بيني وبينه، وكيف أن النيل يشبه العريس الشاب الذي يمشي في حفل زفافه مزهوا بقوته واعيا بمساره، وكيف أن تفريعة النيل التي كان يطل عليها الجد عند رأس غيطه ستبوح بأنني عبرت وعدت لأشارك الجد جلسته، وأنه صار مألوفا أن يراني أسبح في ماء الترعة، وعندما يسمع أنني فزت في مسابقة للسباحة والغطس في حمام سباحة جديد في نادي طنطا الرياضي، يبدو فرحانا وهو يتذكر جدي، وقد تتبدل ملامحه علامة السعي للخروج من مأزق يستشعره ويحاول أن يداريه، وكيف أنه بدّل ترتيباته لمستقبل الأيام، وموهوما أنني أصدقه عندما يقول لي ليقطع الصمت " إن بركات السيد البدوي حلت علينا واحتوتنا غرباء نسعي من أجل الستر " فأهز دماغي متظاهرا بالموافقة علي كل ما قاله، وخيال الكفر أيام الجد يتبدي لي متباعدا ويصعب الوصول إليه رغم ثقتي بأن المسافة لن تستغرق أكثر من ربع الساعة لو ركبت القطار متوجها نحو الكفر الساكن في الذاكرة لايبرحها أبدا.

الأيام تمضي ثم صارت الغربة عادة وخيال الجد الراحل عند رأس الغيط دوما يصدر الأوامر ويتابع ما يتبدل من مساحات مزروعة وممدودة، خضرة تامة علي الأرض تتحول في مواسم الزراعات المحفوظة عندما نري سمرة التقاطيع التي تحفرها الفؤوس وأسنان المحاريث قبل رمي الحبوب، وأبي الذي كان يبدو لي ضيفا مستمتعا لما كانوا يقولونه أحيانا عن الجد الراحل فيهز رأسه علامة الموافقة حتي لا يدخل في جدل عقيم معهم، ويفسرون له الدوافع التي كانت وراء دفعة الجد القوية التي أصابتني وهو يرميني لتفريعة النهر، ويؤكدون أنها " كانت اختبارا متكررا لكل الصبية في مثل عمري " وأنه لم يكن يقصد إغراقي ليحرمه مني كما فسر الأمر أيامها

لمن شاركوه السهرات من أبناء أعمامه الكثار، وكلما فتحوا له السيرة ليريحوه أو يوافقوه علي الظنون التي زرعوها في عقله دون أن يدري.

●●●

وكان الجلوس علي شط الترعة الكائنة عند رأس غيطه عادة يعرفونها، وربما كنت أعرف الحكاية التي يتحدثون عنها لتخوف أبي من عدم قدرتي علي عبور الترعة لو تعرضت لواحدة من دفعات الجد العفي، وكيف أنه قلل زياراته حتي انتهي الأجل المحتوم ورحل الرجل، ينفي أبي أنه كان غاضبا من المرحوم، وأنه لم يكن متخوفا علي وأنا ضناه أكثر من مخاوفهم علي عيالهم، ويضيف أنه شافني أعوم في نفس الترعة مع أبناء الأعمام الكثار ولم ينزعج، وقبلها رآني أسبح في حمام سباحة نادي طنطا، يحاول أن يوضح أنه كان يراني أصغر أبناء العم وأنه كان ينظر لي ويقول لجدي أنني" آخر الفرحة " وصحيح أنه لم يكن يبوح لهم بما يقصده بشكل مباشر في وجودي لكن الكبار كانوا يتهامسون مع الكبار، ربما استنكارا لخوف أبي المبالغ فيه بحساباتهم، ولأن الجد في نهاية الأمر كان يستطيع أن ينقذ أي غريق سواء كان غريبا أو قريبا، بل إن وجوده عند رأس غيطه بالقرب من شط الترعة كان يزود جرأة صبيان العائلة في مواجهة النهر أيام الفيضان، وأن الكل كان يرمي نفسه أو يرمي صاحبه واثقا أنه لو تعرض للغرق فإن الجد حسبما كانوا يؤكدون سيتطوع لإنقاذ من يشرف علي الغرق غريبا أو قريبا، لكن أبي كان يعترض ويوضح أكثر أن قلقه من احتمالات غرقي لم يكن بسبب الدفعة القوية بيد الجد العفية أو حتي بالقدم لم يكن يقلقه، وإن الأمر كان يتعلق بالتوقيت الذي يختاره أيام الفيضان، ويضيف أن النيل غشيم ويمكن أن يدفع أمامه أي شئ حتي ولو كان جبلا،

وكيف أنه كان يندهش لاختيار الجد لهذا التوقيت ليفعل فعلته مع كل صبية العائلة في مثل سني وفي أيام الفيضان الكاسح، كأن الرجل كان بينه وبين النيل ثأر، لأنه اختطف صبيا في العاشرة من عمره قالوا إنه كان ابن عمه، لكنه يتذكره في كل مرة ويعانده ويرمي له واحدا من أولاد أولاده أو أولاد أولاد العم، يستمعون بإندهاش وكأنه يقول تلك الحكاية التي سمعوها مرارا وتكرارا ويتظاهرون بعدم تصديقها رغم أنهم يهزون الرؤوس مجاملة له ويشكرونه لأنه ذكرهم بما نسيته عقولهم أو يوافقونه لأنه كان يتمني أن يكف الجد عن تلك الدفعات التي عملها مع عياله وعيال عياله وعيال عيالهم تباعا.

ولأنني كنت أصغرهم فقد كان يشير لي لأجلس بجواره بينما يقشر عقلة القصب ويمدها ناحيتي مقشورة، فأمضغها علي مهل وأشعر أنها أحلي عقلة قصب أمصها متمهلا فيبتسم لي راضيا وفرحانا بوجودي إلي جواره، أستعيد زمانه وأستمتع بصحبته في المنامات، يتبدي لي في منام أنني أوشكت أن أمسك بداية هذا الخيط النحيل، وهو يربت علي كتفي لينبهني أن أكون صاحيا لروحي، أتنهد وربما أتقلب في فراشي مرحبا بصحوتي المبكرة علي نحو غامض، ويتجلي لي وأنا أتأمل صورته الساكنة في نفس الحيز أمامي، وربما تنقلني عيناي لأري صورة أبي في بروازها القديم وعلي وجهه علامات ارتياح وزهو لأنني أعجبت جدي القديم في المنام، ولعل الخلافات التي كانت كثيرة بينهما نشأت بسبب دفعات الجد لعياله وعيال عياله، وسواء دفعهم باليد أو بالقدم ليواجهوا الاختبار ويتعرضوا للخطر فقد كنت أحاوره في الصحو بعدما تهت في الغفوات وارتعبت من الكوابيس أمام الجد أو واحد كان يشبهه إلي حد التطابق، أشير لصورة أبي الذي

أراه مطرقا علي استحياء في وجود الجد، وقد أمسك ببداية الخيط النحيلة، وربما يطاوعني عقلي في الصحو لتهدأ روحي، لكنه عندما تعاودني علامات بداية جديدة لغفوة لم أحسب حسابها أجهز نفسي وأسترخي راضيا وأنا أتمني أن يتواصل المنام الناعم ويتجدد بترتيباته التي عشتها معهما وأراني مسترخيا في صحو المتغافل لأستعيد الرؤي المتلاحقة وأعود بنفسي لسنوات فاتت، ولم أكن مطمئنا لإمكانياتي لاستعادتها في السابق لولا رؤيتي للمنامات العابرة التي كانت تحاصرني وأراها تتوالي متتابعة، تستعرض وتعيد للذاكرة أحداثا لم أستعدها بترتيباتها كما عشتها برغبتي أو غصبا عني، وخلال السنوات التي قاربت أن تكمل نصف القرن، وهي ترتب نفسها أو ترتبها ذاكرتي وتصحو علي مهل.

وقد تكشفت لي أبعادها التي كنت أحسبها معطوبة، ربما لأنها لم تكن تتواصل بعد الصحو لولا الرؤي المتأخرة الممدودة التي تستعرض الكامن والمخبوء ليتجلي ويعلن وجوده في صحوي كأنه جزء من نسيج عتيق لم يهترئ، ولأنه صار يتجلي لي خطفا علي النحو الذي يتوافق مع ما قلته لنفسي عن نفسي لأصبح متوافقا مع أقوال بعض الأهل والأصدقاء، وقد ينشغلون بما قلته أو يتابعون ما تبدل في حياتهم وحياتي صعودا وهبوطا، قبولا ورفضا أو سعيا وتكاسلا يتشابه مع تراخ عن غير قصد يضعنا أمام أنفسنا علي عكس ما كنا نتمني أو نتخيل، وكالبنيان التائه غير المسنود علي هوية لها جذورها الضاربة في نخاع تلك الأرض التي لم تكن تتبدي إلا بعد مناهدات واستسلامات وحتي تصل لحد التبلد المفتعل والتظاهر بأن الدنيا بخير رغم الفرار، وعدم القدرة علي التفسير أو المواجهة، وبعدها تأتي مرحلة جديدة تتأكد فيها الحقائق لنعرف الفوارق بين الكابوس والمنام

الدموي والوردي وماذا عن التوحد الجديد ثم السعي الذي أوشكنا أن نستند عليه لكي نزرع في الزوايا حلما وتوافقا لا يشطرنا نصفا فاعلا ونصفا متخاذلا، فيتعايشان رغم التناقض والخلافات دون أن يفكر أيهما في إزاحة الآخر لتخلو الساحة لأحدهما، ويتعايشان علي نحو مغاير بمثل من كانوا يحيطونني من كل الأركان بملامحهم، وربما تتطوع بمحو ما كان يتبدي أحلاما لا تندثر في الصحو الذي صار يميل إلي التوافق والمشاركة المأمونة، وهو يستعيد ملامح الأجداد التي تتبدي ركائز نتساند عليها ونطمئن لوجودها في كل صحوة مباغتة تضعني في المواجهة أحيانا برغم الإرادة في التخطي لكل ما كنت أشعر أنني أشارككم رغم صغر السن في مشاعر الكبار دون اختيار، فهل اختارتني الأحلام لأعيش طيفا؟

كنت أراني ظلا يتحسس طريقه - علي مهل - لنهايته الجبرية، ولأنها جبرية لا يملك أي كائن حي أن يفر منها، فهونت علي روحي الأمر واستعدت وجه أبي يوم حدثني بثقة العارف إنه يتجه لسكة الرحيل عن دنيانا، اعترضت إشفاقا عليه وواثقا بأنه يصف حالته صادقا معي ومع نفسه، لأن العبارات التي سمعتها لم تكن افتعالا ولأنه كان يستند علي حقائق مؤكدة، فتحاملت ولم يسعفني أحد، لأن الخبطات كانت تخلّف في البدن المهدود مزيدا من الكدمات والجروح بآثارها الظاهرة والمخفية، ولأن خطواتي المتعثرة في كل محاولة للفرار كانت تبوء بالفشل، أتحامل وأقول لروحي المحبوسة في هذا البدن المكدود المنهك وقد أصابته من كل الزوايا خبطات نيران صديقة كما يقولون في أجهزة إعلامهم الموجهة للضحايا بغرض التخويف، أقول لروحي همسا خافتا. "يلزم أن تصمد وتتحامل علي روحك لتواصل دورك رغم المعوقات والحواجز المحطوطة في كل الأركان ".

لكنها كانت روحا معاندة، تتسمع ولا تبدو عليها أية رغبة في مواصلة المشوار المطوط، وبخطواتها الفاعلة والمؤثرة في سباق المسافات الطويلة، السباق المفروض والفعل المحاصر والمحسور علي الجهد الضائع هدراً لأنه لم ينتج عنه أي إنجاز محسوس، أقول لروحي وأنتقدها،" حتي عدم حصولك علي أية ثمار لتعويض روحك عن سعيك المتواصل بغرض الاسترخاء بعد الوصول إلي تباشير تلك الثمار التي بدت لروحك مستحيلا تم تحقيقه لحسابك علي النحو اللائق بمن سعي وظل يسعي ويبذل الجهد بكل طاقته وأكثر من طاقته، وقد كابدت بقدر المستطاع متخطيا حدود المستطاع لتحتمل المكابدة المفترض أن يكون مردودها محسوسا وملموسا ما دام ضروريا ومؤثرا ومشروعا في نفس الوقت، وطاف بالخيال حلما من اللازم أن يتحقق، كان منوطا بك أيامها أن تواصل السعي في الفراغ، وكان من الضروري أيامها أن تتجاهل من يحيطون بك وتبدو علي ملامحهم حالات متفاوتة من الإشفاق الجوّاني عليك، ربما لأنهم كانوا يتوقعون انكسارك، ولم يكن من الممكن بحساباتك الوصول إلي توهان العقل الفاعل، أو التشبث بتأدية الدور ما دمت تملك أدواته ولديك المخزون الساكن والقابل للتحرر في صور مرسومة بالخيال قبل أن تتحول إلي رسوم تلفت الأنظار، وهو يتحدث مع روحه ويزرع الأوهام حولها ليضيف جديدا كلما طافت روحه في البدن الثاني، وكم حاولت روحه أن تفر من مصيرها المحتوم ولا أمان لهما، ولم يكن تفكيره في الفرار جبنا أو استسلاما، ولم يكن عجزا ولا ضعفا ولا تهاونا في الفعل بغرض التحقق، كنت أراه وهو يحاول أن يلملم كل أطراف الحكايات التي تجري أمامه ليسجلها ويدين فترة عاشها مكرها ومسلوبا ولم يحتج ".

صامتا وتائها عن نفسي كنت أمشي بين الأكابر وكبار السن منهم، كان شباب العائلة يتابعوننا والصمت مهيمن عليهم دون أصوات، حتي الأنفاس لا تبوح بتعبيرات التقاطيع الساكنة التي تتابع خطواتنا وتوشك أن تحصيها بسلبية وحياد جامد غير مألوف، وأنظر للوجه فتفر العينان وبالألسنة يطلبون الرحمة للراحل ولآله الصبر والسلوان علي ما ابتلاهم به المولي.

كان باب الدار مزحوما وعندما لمحونا تباعدوا وأفسحوا مدخلها أمامنا فدخلنا صحن الدار الضيق واللائق بضيقها المعروف غير المحتمل، رأيته راقدا علي درابة الغسل عريانا إلا من قطعة قماش بفتة بيضاء تداري عورته وبطنه وجزءا من صدره. اقتربت منه فبدا لي أنه ينظر ناحيتي ليطمئنني علي صحوه ويحاول النطق معترضا علي ما كان يدور حوله، واقتربت لأتسمع همهماتهم وتعليقاتهم التي كانت تتوالي وتطلب له ولبدنه الرحمة والغفران من الواحد القهار، ويطلبون من المولي أن يمنحني الصبر والقدرة علي احتمال فقدانه ما دامت الدنيا فانية ولا دوام إلا للخالق، كنت أتأمله بلهفة وهو ساكن في مرقده، ومستسلما لإشاراتهم جلست فوق مقعد بجواره لألتقط أنفاسي من عناء السفر كما قالوا، وحاولت أن ألملم روحي علي مهل، لكنني انتفضت واقفا علي نحو مفاجئ بحساباتهم وبدأت الصراخ في وجوههم معبرا عن احتجاجي:

– مين اللي جابه يتغسل ويطلع من هنا؟ ودارنا اللي هي داره براح يا ناس، ولا هي ما بقتش داره؟ ما بقتش داره؟

تبادلوا النظرات ولم ينطق أيهم بكلمة، فعاودت السؤال بصوت أعلي ممرورا، وبدلا من الرد أسمعوني تعديدا ونعيقا وأصواتا تندبه أثناء تغسيل البدن اللين المطاوع بعكس بنيانه كما عرفته وألفته، ثم سكتوا، ومغلوبا علي

أمري لذت بالصمت قبل أن أنتفض لأترك المكان بعد نظرة وداع خاطفة ممرورة لبدنه، ولا أعرف كيف توجهت ناحية باب الدار المفتوح وخرجت لأراه قبالتي يجلس مسنودا علي جدار الزاوية ورأسه مدفوسا ومخفيا بين الركبتين بينما أقف قبالته لأسأله مستنكرا بإستياء:

– مين إللي جاب أبوك يتغسل ويطلع من هنا؟

رفع رأسه وفتح عينيه المسبلتين ليراني ثم أعاده مدفوسا كما كان بين قبضتيه الملفوفتين حول ركبتيه ودون أن يكلف نفسه ردا، كنت أتفكر كيف ومن رتب له الغسل والتكفين والدفنة في دار خاله؟ وقد تحمل وتحامل علي نفسه وعاش غربة ممدودة، ثم يموت في تلك الدار ويتم تغسيله وتكفينه قبل دفنه، هل رتبوا أيضا دفنه في مدافن أخواله لتكتمل غربته بعد الموت أيضا؟ والأخ الأكبر في نفس مكانه، وملموما علي نفسه بدا لي أنه يفر من مواجهتي، وهو يدفس رأسه بين الساقين والذراعين الملفوفتين حولهما، لم أتحكم في نفسي فانحنيت وبقبضتي أفلحت في فك الذراعين، بدا لي وكأنه يداري غضبته، ويحاول أن يتخفف أمام الناس غرباء وأقارب، ولعله طاوعني ساعتها لأتوهم أنني أجبرته علي مواجهتي فأهدأ وأتخفف، ربما كان عزمي وانفعالي أقوي منه ومني، لأنه رفع رأسه ليتأملني بوجه مكفهر، وعاجزا عن الاحتمال كررت سؤالي:

– مين؟ مين اللي جاب أبوك يتغسل ويطلع من هنا؟

– ما حدش جابه يا أستاذ، هو اللي جاب نفسه.

– ما قدرتش تستحمله كام يوم ف الدار لحد ما ربنا يفتكره؟ استحملت أبوك كام يوم؟ استحملته كام يوم ف دارك؟

ومستضعفا بوهن وربما بصوت مفتعل رد علي:

– خبر إيه يا أستاذ؟ داري دا إيه؟ ما هي داره قبل ما تبقي داري ولاّ دارك، سامعين يا جماعة الأستاذ بيقول إيه؟

تلفتوا لبعضهم البعض ثم غمغموا بكلام متداخل لم أتبينه بهدف التهدئة، بدا لي أنه اكتسب تعاطفهم فراحوا ينظرون ناحيتي بشئ من الارتياب غير المعلن، ثم يقوم متساندا بكفيه علي الجدار خلفه ويمسح راحتيه في صدر جلبابه ليواجهني رأسا برأس، كانت عيناه تنضحان غلاّ كامنا لم يستشعره أحد غيري، وعيناه تلتمعان كأنما تعلنان انتصارهما علي عيني التائهتين الباحثتين عن إجابات لأسئلة لم يطرحها هو علي نفسه ولا طرحناها عليه ولم يتمكن من الرد الشافي الكافي عنها.

كان البدن الملفوف بسبع طاقات من القطن والكتان والحرير الطبيعي يخرج محمولا بين أياديهم وهم يتوجهون به ناحية النعش المركون بجوار جدار الزاوية ليوسدوه مرقده علي مهل، يحملون النعش ويتحركون داخلين به من باب الزاوية، بينما الأخ يعبر وقد أفسحوا له مساحة بينهم ليدخل، كان بعضهم يتراجع إلي الوراء ولم يكن لدي بديل غير التوجه إلي نفس المكان الذي أدخلوه منه، لأنه كان يسمح بدخولي بينهم عن قناعة غير قابلة للنقاش، وفي الصلاة علي روح الميت لم ألمحه أمامي أو في الصف الذي وجدتني واقفا فيه، وبعد الصلاة حملوا النعش علي مهل وأخرجوه، وبأصواتهم كانوا يكبرون ويتزاحمون لإخراجه من باب الزاوية ثم أشاروا لي لأتقدمهم وأحمل الخشبة الأمامية اليمني علي كتفي اليسري، ويحمل هو الخشبة اليسري علي كتفه اليمنى، وعندما رفعنا الجزء الأمامي رفعوا الجزء الخلفي في ذات الوقت تقريبا، وخطونا أولي خطواتنا في مشوار الوداع للأب الراحل، وكنت أسمع عبارات العزاء ولا أملك أن أرد

عليها، والمشوار يبدو ممدودا ونحن نتحرك بالنعش الذي بدا لي خفيفا في بعض الأحيان إلي حد أنني كنت أتوهم أنه قد يطير بنا، أو يبدو ثقيلا فوق إمكانياتي لمواصلة مشواري للمدافن، لكنني واصلت المشوار مدفوعا بقوة خفية جعلتني قادرا علي احتمال ثقل النعش غير المتوقع، أو شعوري أنه سيرفعنا عن الأرض ونتعلق في الفراغ، كان يلزم أن نواصل مشوارنا بخطواتنا المتوافقة والمتقاربة لتخطي منحنيات وتباديل اتجاهاتنا دون كلمة أو تفكير في طلب الراحة، وبرغم الجهد المبذول فوق الطاقة ودون التفاتة من أحدنا للآخر ليرشده أو يسترشد به، وقد كان هناك بالقطع ميراث مشترك تسلل إلينا من جينات مشتركة مكنتنا من توجيه النعش كما نريد في المنحنيات، أو أن نبدل الاتجاهات دون كلمة أو نظرة أو سماع إرشاد منطوق، وخوفا من خلاف ينشب بيننا ويستشعره من جاءوا لتأدية واجب العزاء من بدايته، بدا لهم أننا اتفقنا في كل شئ، ومشوار الدفن الذي قطعناه رغم الصهد وضوء الشمس الحارق انتهي بسلام، لكننا تحاملنا وصمدنا ولم نستجب لعرض من عروض الإجارة رغم أنها كانت مشروعة ومتتابعة وصادقة في قلقها علينا " أجرني.. أجارك الله " لكن الوهن لم يتمكن منا قبل أن نضع مقدمة النعش أمام المقبرة. لا فرطنا في الحامل ولا في المحمول، وعندما أنزلناه تهالكنا فوق المصطبة البراح عن يمين المقبرة.

كان عزام يطل من فتحة المدفن ، وكنا نراه يشير لهم متعجلا أن يحملوا المرحوم علي مهل ليتناوله ورأسه أمام البدن ، وتسابقوا علي إخراجه من النعش ثم حملوه والرأس أمامه ، كان عزام بارعا في مهنته بشهادة كل من تعامل معهم ، ورافضا أية مساعدة في تأدية دوره ، وصحيح أنه كان يسمح لحفيده عزام الصغير أن يدخل المقبرة ليؤنسه

ويحادثه أو يسمع تمتماته في أذن الميت بعبارات لايسمعها أو يفسرها ولا يترجم كلماتها أحد، وكان الشيخ معاطي يقرأ القرآن علي روح الميت ويوصيه بأن يرد بكلمات مختصرة علي أسئلة ملاك الموت الذي سيلقاه بعد أن ينسد باب المقبرة، وعزام الصغير يخرج ويحمل الباب بين يديه وينتظر خروج عزام الكبير ليمد به يده، يتناوله ويضعه في مكانه ويحوط أطرافه علي مهل بالطمي الذي جهزه، وغطاه بالتبن وركنه عن يمين الفتحة قبل دخولها.

كنت أجرجر القدمين تائها وأنا أهز رأسي غير مصدق أنني فقدته، وعبارات قيلت لتواسيني فسمعتها وتاهت في دهاليز الصخب أو تلاشت، ولم يسكن القلب أو يشعر بالعزاء الذي نلته من الأهل والغرباء، لعلني شعرت بعدم القدرة علي احتمال فراق الأب الذي تركني " لجدتي لأب " تباعد عني زمنا مطمئنا أنني سأرتاح وأضحك وهي تحكي حكاياتها، وتهدهدني وتسحبني من مكابدة حرماني من الأم في طفولتي المبكرة ومطالع صباي ، ولكنه كان بؤرة متوحدة تستشعرني وتقرأ أفكاري وأحاسيسي وتشاركني الأمنيات.

بدا لي في الكابوس الكابس علي أنفاسي أن كفرنا " الخروبي " صار هدفا تتهدده موازينه فأصبح " عاليه واطيه " يمشي علي دماغه مستبدلا بالكفين حركة القدمين ويبدو مسنودا علي شكل مسدس أو مربع من بلاستيك مقوي تحته أربع عجلات أو ست عجلات وفي وسطه مساحة غويطة علي شكل طبق صاج يسمح باستتباب جمجمة بني آدم متوسط البنية، يتحرك به الطبق بآلية وقدماه مرفوعتان لأعلي دونما اعتراض وقد صار هرما مقلوبا أو كائنا حيا متواطئا ضد نفسه بشكل مجاني يمكنه أن يري

أمامه من يطلبه حتي لو انقلب ميزانه، ولأنه في الخفاء والعلن كان قد استجاب لخصومه من فرط رعبه بسبب اعتياده علي طاعة الأقوياء، تناسي تاريخه وسعي للانفلات بفص مخه التحتاني غير المحسوب حسابه، وبعدها تحول إلي شبه آلة أو أراجوز يتحرك بشكل معكوس ليبعث الفرحة في قلوب خصومه القدامى وقد تصالح معهم وقبل شروطهم بلا خجل ليولّد الحسرة في قلوب العقلاء من ناسه علي ما صار إليه حاله وحالهم في ذات الوقت، ولعل البعض منهم صدقه أو توهم أنه سوف يصدقه لو تمكن من زراعة بذور البهجة في قلوب من يحيطون به، أنصاف الأكابر والأصاغر من محدثي النعمة من أمثاله في ذات الوقت، لأنه وعدهم بأن يدعوهم ليسابقوه بالتتابع فوق مساحة الأرض الخالية والمستوية، وقد امتطي كل واحد منهم تحت فردتي حذائه زوج قباقيب " باتيناج " واثقا أنه سيحصل علي جائزة مؤكدة عن كل شوط يلاعب فيه الرجل الأحول، يشعر بالتفوق علي الدماغ المقلوب علي مربع أو مسدس تحت طبق محمول فوق أربع أو ست عجلات يعجز دماغه المقلوب عن التحكم فيها مثلما تتحكم أقدامهم في عجلاتهم التحتانية.

في رؤية تالية من نفس الكابوس شفت رأس كفرنا الأرجواني وقد صار مدكوكا وثابتا في أعماق نفس الأرض لا يظهر منه شيء، كأنه جذع شجرة كافور لها فرعان متساويان، ووحيدان عاريان من كل ما يوحي باحتمال نمو الأغصان أو خضرة الأوراق مستقبلا، جفاف وثبات ساكن علي السطح كما قد يتجلى لأي عابر سبيل محايد، وسوف يصعب عليه حالها وحالنا والكل يتأسى بمرارة علي مصيرها ومصيرنا المعتم بعد أن صار الدماغ مدفونا ومعزولا عن كل ما يوحي بأنه كان موجودا ومشاركا وواعدا لناسه بتحقيق

الأمنيات المشروعة أو حتي بعضها، متوعدا بتدمير كل من فكر في تعطيله أو تعويقه.

ولأن كفرنا كان يبدو في الأحلام متألقا ومبهرا و " أرجوانيا " أو متحذلقا وخاملا أو عطلانا أحيانا برغم كونه باقياً وساكناً في نفس مكانه المختار منذ تأسيسه إثر حوارات ومداولات مضنية لتلبية رغبة من دارت في خيالاتهم أحلام وردية لم تتحقق برغم أنهم شافوا بناياته كأنها حلم مشروع يحلق في دوائر علوية تضعه فوق الأرض أساساً راسخاً ومشرقاً لكفر مزدهر أعلي من كل الكفور المجاورة، وكل كفر مجاور يتعلل بأنه أقدم، ويحق له أن يطالب بحماية حقوقه في ملكيته الفكرية لأن العراقة وحدها لا تكفي ما لم يسع أصحابها لتحقيق الأمنيات المشروعة التي واصلت طوافها المتواصل بأخيلة من سكنوه قبل أن يتأسس علي النحو المأمول ليكون كفرا "برقوقيا " يمتلك بنايات شامخة تتيه زهوا بما أنفق عليها من أموال الناس، وهي بنايات في براح مفتوح حوله براح يوحي بالتحقق والتألق ويعد بتحسين أحوال من أسسوه، وتنفتح في كل الأوقات مساحاته الرحبة وقاعاته المكيفة، ومرتاحون فوق مقاعدهم الوثيرة يتحاورون بحرية مطلقة في كل ما يعن لهم، لأنه يخصهم إرثا شرعيا بجدرانه المتوددة، كانوا ينعمون بحمايته خلف أسوار وأبواب متعالية صلبة، وكانوا يقولون لبعضهم البعض بعد أن دارت عليهم الدائرة عدة دورات، وعصفت بها زوابع حملتها رياح الشمال الباغية علي غير توقع من ناس كفرنا " المشمشي" الذي تلونت واجهته وانطمس ما كان الناس يحسبونه بريقا أزليا غير قابل للزوال، وربما أدركوا دلالات ما جري وقالوا لبعضهم البعض بقليل من الحسرة أن البقاء لله وحده، أضاف المتفائلون منهم أن ما انكسر يمكن إصلاحه لو خلصت

النوايا وصح العزم.

سرت حول البنايات أمنيات جديدة لا تقل عن تلك التي كانت تتراءى لمن نادوا في السابق بتأسيس الدرب قبل أن يتجسد بناية غالية نالتها بعض الأضرار الهينة بحساباتهم، لكنه في الناحية الأخرى من الساحة شديدة البراح كانت تتواتر أصوات قادرة علي إزاحة الأمنيات جانبا، وبأصوات تدعو للإفاقة من الأوهام والصحو بعد الغفلة لإضافة المزيد من الأحلام الممكنة، مضافا إليها أحلام مستحيلة التحقق.

وكان البعض منهم يصرخ بعزم الصوت:

أنتم في غفوة خالصة، أنتم في زمن الغفلة، تقاعستم عن أي فعل واستكنتم علي الكراسي الوثيرة في الداخل وتصاممتم عن أصوات الزوابع وصرخات الحرس القديم، وقبل الحسرة علي كفر أفلحتم في تأسيسه لحمايتكم، إنه الطوفان الغبي القادر علي إزاحة البنايات العتيقة فأفيقوا.

لكن الصمت كان داخل البناية مطبقا وصرخات التحذير بدت لبعض من يلوذون بالمكان مثل أجراس إنذار في زمن السلم أو المسالمة، مسالمة لا لزوم لها وهم يتبسمون بينما يتصافحون مع كبار الزوار في مواجهة الكاميرات وفلاشات التصوير الثابتة والمتحركة، كان هو داخل الكابوس مرميا كجثة مدفونة في ركام بناية منهارة بفعل زلزال بشع ومرعب ذكرني باسم قريتي الذي لم أتمكن من معرفة معناه أبدا، فقررت أن أريح نفسي من محاولات فهم المعني رغم انتمائي له، أدفعه عن زمني فرارا وأسنده إلي زمن الفراعين، وكثيرة هي القرى التي تتسمي بأسماء لم نتعرف علي أصولها نتيجة التعجل أو الجهل أو عدم الرغبة في مواصلة البحث والتمحيص في دلالات الأسماء استنادا إلي مقولة أن الأسماء لا تعلل، والزلزال الذي هز

أرضية مدينة " بم " الإيرانية يزود مواجعي ويذكرني بقريتي " بمم " التي هي – كما قلت لنفسي في السابق – اسم فرعوني قديم لم أتمكن من ترجمته عن هيروغليفية لم أتعلمها، وأسأل روحي: هل زحف الفراعين من الزمن القديم ودخلوا بلاد الفرس؟ أم أنهم حملوا اسم قريتي لفارس القديمة التي حكمتنا زمنا بعد الزمن الروماني، وربما اتخذت من قريتي قبل أن تتأسس مقرا لقائد عسكري متواضع، أو نصف حاكم أو حتى ربع مسئول، وتبدي لي في الكابوس أن بغداد المنهارة التي زرتها وتسكعت في دروبها صاحيا ثم جلست علي مقاهيها التي تتشابه إلي حد التطابق مع مقاهينا في القاهرة، وقد كانت تعشش في الدماغ نصف الواعي نصف التائه، وأصوات الخلق القتلى والأسري تستجير بمن يستجير ويصرخ في كابوسه الخاص والعام:

مقهى – مقهر – مقهى – مقهر – مقهى – مقهر، جناس ناقص – جناس كامل – جناس – تجانس – تكانس – تجانس – تكانس – بم – بمم – بم – بمم – بم – بمم.

كنت في الكابوس محاصرا علي غير توقع بالشقيقين أحاول أن أتحاشي الضربات غير المتوقعة منهما، فأصرخ مستجيرا بوجه الأم لتصحو من غفوتها بعد الموت لتذكرهما بأننا أشقاء ولا يحق لهما قتلي بسلاحين غادرين، تذكرهما بوجع قلبي والصمامات الصناعية التي وضعوها مكان " الميترالي والأورطي " المنزوعين بعد فشلهما في تمرير الدم بشكل مأمون حسبما قالوا، ولأن أمي لم تفعل شيئا لحمايتي غصبا عنها، فربما تخيلتني قتيلا لأخوين شقيقين، وأنا راقد إلي جوارها في نفس القبر، وتخيلتها ترمح وتفر من قبرها التائه الذي يصعب النيل منه وهو ينهار ويتلاشي ويندك

تحت الأرض، وواثقا كنت أعرف أنه كابوس مباغت سأصحو منه إن كان لي في العمر بقية، أسعي وأجاهد لأفر وأهرب من كابوس دموي ساكن في اللاوعي، وسعيا لفهم المستحيل أحاول فهم ما يدور حولي لتفسيره بعد الإفاقة والخلاص رغم قلة العزم وضعف الحيلة:

" كانت تتواري خلفه لا يبين سوي طرف ثوبها وهو يقف كسد يحول دون رؤيتها بوضوح، خفت أن ترعبها أعاصير اللحظة العصيبة لو صرخت فيه محتجا واضعا في الاعتبار احتمال أن يكون قد أفقدها مقدرتها علي السمع بعد أن شحبت أمام ناظريها الأشياء واستحالت إلي أشباح متحركة بلا تفاصيل مميزة، قلت لنفسي أنني لو اقتربت منها ما عرفتني، وأنها حتي لو سألتني عن اسمي فسوف أعجز عن ذكره لأنني نسيته في زحمة المدينة البعيدة وأنني لابد لو تذكرته أن أصرخ لأسمعها ما دامت مصابة بالصمم، استدرت تاركا وجهه الحاد التقاطيع مخلفا وجه أمي الشاحب فوق جسدها الضامر إلي حد مؤسف خشية أن يدفعه إصراري علي الحديث إليها ولمسها وربما النوم في أحضانها - لأحس الأمان - إلي إبعادها عن الدار ليقرر في رسالة تالية يبدأها بديباجته المألوفة ويقرر أنها ماتت بالسكتة أو الذبحة، أتخيلها حينئذ جثة متعفنة عاجزة عن رد النداء، قلت لنفسي إن تركها بمحض الإرادة خير من مواجهة استلابها عنوة ما دمت قد خسرتها في الحالتين ".

في ركن الحانة المعتم شربت كؤوس القهر وخزي الانحدار، عدت أتطوح بالنسيان المؤقت، دفنت مرارة الإخفاق بالدخول العفوي إلي الشقة المقابلة بعد خطوات التراجع، كنت أتمدد إلي جوارها ساكنا بينما تتأود كعادتها في وضع النداء، ألعن لحظة اكتشاف سرها بعد ساعات الحصار القليلة

التي انتهت بفتح أبوابها الموصدة، رغبت بلا رغبة في أن أعري صدرها الناهد، أتخذ من ثديها الأيسر وسادة، أحرص علي أن تكون حلمة الثدي في تجويف الأذن اليمني لأتسمع الوجيب المرعوش بالتوقع، أغوص بلا رغبة سوي الإمعان في تأكيد الفتح، أدوس بسنابك حصاني الجامح أرضها الملساء، أنزلق عفوا بدون محاولة لاسترجاع السهام المنطلقة، ينفلت لجام مشاعري فيطوف حصاني مطمئنا في الأغوار السحيقة بدون رهبة ، وأتمثلها مدينة رحبة مرعوشة بالتماع السيف والحراب المعربدة ، أطأ ساحاتها الرحبة مرخيا لمشاعري اللجام راغبا في التراقص فوق مسارات النصر بلا مقابل، وعندما أضيق بتكرار النزف بلا رغبة سوي الرغبة، أخرج قبل الفجر تاركا لها مهمة إعادة الأشياء المبعثرة كما كانت في انتظار عودة زوجها الحبيب كما كانت تناديه دوما .

●●●

" أشرع في الهبوط بمشاعري فيمتد السرداب الخرافي إلي أعماق سحيقة، أقدامي تمعن في الهبوط المتوتر المغلول دونما توقف، أستعيد فكرة تدمير نفسي التي أفهمني صديقي أنها سخيفة وأنه من الأجدي أن أظل حيا أفكر في مهرب، أسهر الليل بطوله راغبا في إنقاص وزني، أعجب كيف تستحيل الرغبة في العطاء والمنح إلي رغبة في التدمير بعد استحالة الوصول إلي بر الأمان، أمعن في الهبوط ربما لأنه ليس صعبا، فالدرجات العليا تدفع الأقدام دفعا إلي الدرجات السفلي وجاذبية الأرض تمارس نشاطها الأبدي في حياد سلبي وعليه فمنذ فكرت في الهبوط وأنا أهبط بحركة الأقدام فوق الأسفلت الحامي بلا إرادة، قبل ذلك كنت أجد مشقة

بالغة في رفع الساق ونقلها صعودا إلي الدرجات التالية معرضا روحي لضغط الدم في حيز القلب المنهك بمشوار البحث عبر السنوات الشابة، أضغط وأضغط متوهما أنني أرتفع، لكنني اكتشفت الخدعة يوم وجدتني لم أرتفع عن الأرض شبرا، يومها أحسست بسخف الأشياء وعايشت رغبة حادة في تدمير كل ما أملك من طاقة حتي النفس الأخير، مدفوعا بخزي اندحاري منكمشا حول نفسي خجلا من فرار العيون المستحيلة، ممعنا في الانكماش إلي حد التلاشي ".

●●●

هي الأرض فرط فيها سليل العمد، كيف فاتها واحتمل حسرة الإحساس بضياعها وفقدان الرغبة في استعادتها من الولد الذي هو من صلبه وقد ركبها واستتب علي قلبها؟ كان يحدثني عن الأرض والناس ولا يملّ الكلام، وكنت أسمع وأرسم في الخيال حدودها وملامح البشر الذين يتحدث عنهم، كنت أشعر بالأسي وهو يشرح لي مرارات عمره قبل أن أولد وأكون معه، وكنت أراه في بعض الأحيان فارسا لم يشهر سلاحه في الوقت المناسب فعاش بعدها ليستشعر الندم ويتحسر علي ما فات، وكان يكابد إحساسا بعار من استسلم وتخلي عن حق ظاهر، يجاهد أن يداري وجعه ولا يفلح أبدا، يتنهد ويهز رأسه قبل أن يؤكد في كل مرة أنني شريكه في ميراثه المنهوب، يزفر ضيقا وهو يقيسني بنظرة فاحصة ليكتشف صباي المبكر وقلة حيلتي أو يتأكد من عجزي عن مشاركته الهم بنفس الدرجة، وكلما ضاقت به الدنيا استشعرت فشلي في تبسيط الأمر عليه، يعجز اللسان عن صياغة العبارات القادرة علي تخفيف مواجعه التي هي مواجعي أيضا، كان في بعض الأحيان يعايش نشوة نادرة عندما تضحك له الدنيا ضحكة ناعمة

أو تغمزه بقرشين يسد بهم ديناً أو يشتري لنا كسوة جديدة، يسمعني عبارات الرضا عن الحال ويسعده لو سايرته أو أظهرت فرحي فربما يطمئن علي نفسه أو تريحه سماحة نفسي كما يقول بينما يربت علي كتفي، يتمدّد علي السرير قبالتي بارتياح مخطوف ويحكي عن الكفر وناسه دون غضب كثير، يغطس بذاكرته إلي زمن أولاد عوف الكبار، يصف معاركهم ويمجّد فرسانهم، يرمح وراءهم في السكك والدروب ويسحبني وراءه، وكأنه يعطيني ذاكرته ويجعلني أنظر بعينيه العسليتين الصافيتين، يضم قبضتيه القويتين علي الفراغ فأري عروق الساعدين بارزة ونافرة محبوساً فيها دم القلب.

يسبح علي سطح المكان البعيد والزمان الآخر ويتحول إلي صبي في مثل عمري أغضبته قسوة أب يستجيب لدسائس امرأته الجديدة فيعنف ويسب ويلعن وأحيانا يضرب أو يطرد من تحت سقف الدار حتي لو كانت الدنيا منتصف ليل شتاء ممطر وسكك الدرب موحلة. أشفق عليه وأوشك أن أطلب منه الكف عن معاودة التذكر لكنني لا أجرؤ، كان يبرع في اجتذابي إلي ذلك الزمان الذي لم أعايشه وهؤلاء الناس الذين لم أعاشرهم، لعله كان يبرع في أن يزرع الكفر بكل ناسه وزراعاته وحدود أرضه ودروبه ومواشيه وطيوره بداخلي، يستبيحني لحساب الكفر ويطالبني بأن أكون قادرا علي السماح والمحبة مثله، ولم أكن أعرف كيف استطاع هو أن يكون متوازناً إلي هذا الحد، يحب بكل العنفوان والاندفاع ويكره ويخاصم بعناد ويرفض المصالحة في ذات الوقت، ممرورا بخصامه الطويل ومتمنياً من داخله أن يصالح الأب وأول خلفة من صلبه إضافة للأعمام وأولاد الأعمام مسامحا إلي حد التساهل الذي يصل إلي حد التفريط، لعله من داخل داخله كان يتمني لو استطاع أن يصالح الدنيا بأسرها، لكنه أيضا كان يتأبي ويتعفف ويرفض

الرجوع أو التفكير فيه، لو كنت مكانه لأصابني هوس من نوع نادر بلا علاج.

سواحاً كان يتنقل من مدينة إلي مدينة ومن حي إلي حي وأنا معه، وعندما كان يتبادل الكلام العارض مع الجيران الجدد كنت أشعر بأنه يعرفهم ويعرفونه منذ فترات بعيدة، لكنني إذا سألته متعجبا يجاوبني بنفس الجواب:

- أبدا ، ما أعرفهمش خالص قبل النهارده بس الناس لبعض.

كانوا يتطوعون بمساعدته وقضاء حاجاته البسيطة ليطيب لي وله السكن الجديد، وفي الأمسيات الأولي يأتون إلينا متمنين أن يكون المسكن عتبة خير علينا وأن يكون قدومه قدم سعد عليهم أيضا، يتبادلون الضحكات والمجاملات ثم يسهرون معنا أو يدعونه للسهر معهم فيستجيب ويأخذني معه، كان يبدو بالنسبة لي ولكل من يسمعه بارعاً في سرد الحكايات التي تجلب الدهشة، حكايات لا حصر لها عن ملوك وملكات وعباد صالحين وجبابرة وأفاقين يجوبون أركان الدنيا، عشاق وأولياء وبسطاء انفتحت لهم طاقة القدر فارتفعت أقدارهم، كان يحسن استخدام الأمثال بدقة، فلكل حالة مثل محفوظ وحكاية تروي والزمن القديم كنز لا يفني عنده، يلجأ إليه بحسب ما يناسب السامعين بحكايات وروايات عن الناس من أيام سيدنا آدم ونوح وزمن الطوفان يبدو لكل من يسمعه كأنه كتاب مفتوح سطوره منطوقة وتصاويره توشك أن تكون متجسدة:

- الدنيا علي قرن التور، موزونة ماتتهزّش أبدا، بتلف تلف علي طرف القرن ما تتزحزحش، وكل ميتين ألف سنة ينقلها التور من قرن لقرن، يمكن تحصل هزّة خفيفة ما تتحسّش، ويمكن تتحس ويسميها

الناس زلزال.

أحيانا كان يحكي عن النبي العدنان والحسين بن علي ومريم العذراء وابنها عيسي، والنبي موسي، والخضر، وملاك الموت والفراعين والزير سالم وحسان اليماني وأبي زيد الهلالي سلامة وعلي الزيبق، وأحيانا يحكي عن ملوك الجن والمردة وسكان سابع أرض، كان يطيب له أيضا أن يتحدث عن عرابي ومن خانوه أو عن سعد زغلول والمنفي ومصطفي كامل والنحاس والملك فؤاد وحاشية الملك فاروق وتجار السلاح، وأحيانا كان يخلطهم ويجعلهم مثل عجينة واحدة لا يفصل مكوناتها فاصل رغم بعد الزمان واختلاف المكان، يلتقي موسي بالنبي العدنان والحسين بالفرعون وسعد زغلول بالهلالي سلامة وموسي بمصطفي كامل والعبد الصالح مع السيد البدوي وفاطمة بنت بري، يخلطهم ويتبسم ابتسامة العارف ساخرا قبل أن يقاطعه أحد أو يذكره بأنه لخبط الأوقات والأمكنة فيعلق مؤيدا من قاطعه أو اعترض قائلا:

- ما أنا عارف، أنا بس كنت باشوفك مصحصح ولا غفلان، مهم قوي ف اللي يسمع الحكايات دي إنه يبقي مصحصح ع الآخر ويعرف إن الكلام له معاني، ما هو الكلام لو ما لوش معني ما يلزمناش، مش كده ولا إيه؟

ومرة تجاسرت وسألته :

- لو كانت البلد بلدنا وولاد عوف أهلنا، يبقي ليه ما ترجعش وتاخدها؟ أقله نرتاح م الهم اللي إحنا فيه.

ساعتها نظر إلي بدهشة، لعله اكتشف في تلك اللحظة فقط أنني في مثل طوله وأنه نبت لي مشروع شارب وصارت في صوتي غلظة، تأملني بدقة لكنه لم يجاوبني عن السؤال، تحرك في المكان بقلق، تنهد وكأنه بتنهيدته

الطويلة قد اكتشف بأنني لا أصلح لخوض الصراع إلي جانبه معهم، ولا أدري ما الذي جعلني أشعر بضآلتي، ولعلني استكشفت إلي أي حد كنت نحيلا وقليل العزم، كنت في بعض الأحيان أعجز عن حمل الحامل الذي أضع عليه لوحاتي، دمدم بعبارات متداخلة الحروف تبينت منها ما كان يقوله لنفسه أكثر مما يوجهه لي :

- ما هو الواحد ح يتفّها ترجع ف عبه.. ياه.. أرض؟

- بتقول إيه يا آبا؟

- ما فيش، هو أنا قلت حاجة؟ أنا بأكلم روحي، روح شوف شغلك روح، شوف وراك إيه.

انسحبت من المكان ووقفت أمام اللوحة المنصوبة علي الحامل الخشبي الذي صنعه لي بعد أن نجحت في اختبار كلية الفنون، لعلني كنت بشهادته وشهادة من أتيحت لهم الفرصة لرؤية لوحاتي قبل الالتحاق بالجامعة بارعاً في الرسم، كنت أرسم بألوان الزيت والماء والرصاص والفحم، وكنت أرسم الوجوه لمن يطلبها وأقبض ما تجود به ظروفهم، أحيانا كنت أرسم الوجوه من الذاكرة ويرضيني أنهم يعلقون لوحاتي في فصول المدرسة وحجرات المدرسين والناظر، وكانوا في الحي الذي نسكنه يعلقون رسومي عند الحلاق والبقال وفي مدخل المقهي، لكن مسكننا لم تكن علي جدرانه أي من رسومي، لعلني ولو علي نحو غير معلن أو منطوق كنت أتصور أن ما يليق بجدار مسكننا لابد أن يكون مختلفاً أو متميزاً بشكل غير مسبوق، ولعلني عندما فكرت في استخدام أوراق البردي كنت أبحث عن شئ مجهول يصعب تحديده ولا يناسبه غير سطح ورقة بردي.

●●●

رأيته يقف قبالتي في صباح شتوي، كان يطل من النافذة إلي الشارع والذراعان مرفوعتان وثابتتان، اليمني في اتجاه الشمال الشرقي واليسري في معكوسها ناحية الشمال الغربي سألت نفسي إن كنت رأيته علي هذا الوضع قبلا وجاوبت نفسي بأنه لم يحدث، كانت الذراعان المفتولتان عاريتين وقد نزل عنهما الكمان الفضفاضان باتساعهما إلي أسفل، كان اتساع الكمين يتدليان إلي ما تحت الإبطين، كأنه علامة نصر لم يتحقق أبدا والرأس مائل لا أدري لماذا، تمنيت أن يستدير ويواجهني لأري الرأس وهي تحتفظ بشموخها المألوف بدلا من كونها علي هذا الوضع نصف محنية ونصف منطمسة، ولا أذكر متي ترك النافذة وغادر المسكن، لكنني مدفوعا بانفعال مباغت كنت أضع من الذاكرة بالقلم الرصاص خطوطا متعجلة علي سطح ورقة البردي المفرودة فوق الحامل، كنت أتعجب لأن قلمي صور الملامح المائلة والعنق وقد تحول إلي عصب نحيل يحمل الرأس الشامخ لا يزال علي الصدر العريض، ولابد أنني كنت أرسم رسما ربما لم أكن قد رأيته في كتاب وربما شفت في حياتي شيئا يشبه ما كنت أخطه علي اللوحة بحماس متسرع، كنت أتباعد عن الخطوط فأراها أحيانا مئذنة وأحيانا مسلة أو نخلة بلا ثمر وأحيانا كنت أراها مثل خازوق يحمل في أعلاه بدناً ثائراً خانه أهله وناسه، لكنني كلما زودت خطاً شعرت بالارتياح وكأنني كنت أتخلص من هم ثقيل كنت أحمله وأكابد من ثقله، ولا أدري كيف ولا متي رفعت الصورة من فوق الحامل ودسستها وسط أوراق البردي الخالية، في الصباح التالي كان يقف أمام الحامل وقد فرد الصورة وراح يتأملها باهتمام زائد مستغرقا في خطوطها وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح قبل أن يهمس متبسما.

- كأنه واقف علي خازوق مخفي.

تشاغلت عنه ولم أستطع أن أرد، أضاف هو وهو في نفس مكانه يستقرئ الخطوط ويسألني:

- صورته تشبهني..؟

تهربت من سؤاله المباغت ولم أعلق، ترك هو الرسم مفرودا علي سطح الحامل وكأنه يدعوني لإكماله، كأنما اكتشف أن الصورة لم تكتمل نتيجة الخوف أو التعجل فأراد أن يمنحني الوقت لأواصل ما بدأته، كنت حائرا ومترددا ومتخوفا من أن يكون الرسم قد أغضبه أو صدمه لأنني كشفت بالخطوط تخيلاتي عنه وقد رسمته علي هذا النحو معلقا في الفراغ. لابد أنه مر وقت طويل وأنا قاعد في مكاني، نبهني الجوع فقمت لأبحث عن شئ أقتات به في المطبخ علي عجل، وعندما عدت إلي الصالة وجدت اللوحة قبالتي، تباعدت عنها عدة مرات واقتربت لعلني أستكشف شيئا يمكن أن أضيفه لكنني لم أستطع وأبقيت الرسم علي حاله، حتي بعد أن عاد في المساء ونظر ناحيتي وكأنه يسألني عن الإضافات التي لم أنجزها علي سطح ورقة البردي غير المكتملة بحساباته ودون أن تلتقي عيوننا أو أتمكن من مواجهته همست وكأنني أتهرب من الحقيقة بينما أشير ناحية اللوحة :

- دا الوادي والدلتا.

بدا عليه أنه صدقني وكنت أرغب في أن أصدق نفسي ولا أستطيع فانفجرت في البكاء لأنها بدت لي حلما ممكنا أن يتشابه وجه الأب مع الوادي والدلتا، هو ترجمة لرسوم رأيتها وأخرجتها في غفلة من أمري علي نحو خاطف ولم أتخيل أن يقرأها.

●●●

"بحثت عن وجهها المستحيل في كل الوجوه لم أجد، طوفت وحدي في السهول والصحاري وفي متاهات المدن النائية، نشرت شراع قاربي وجدفت في النهر عمرا بدون جدوي، انزلقت إلي مداخل البحار ألملم تفاصيل وجهك المرغوب أنصبها تمثالا من طين أرض قريتي، ألبسته ثياب العرس الوردية، شقيت بالبحث موقنا أنها سوف تظهر هناك في ركن من أركان دنيانا وداخل حدودنا، ربما أعثر عليها مصادفة في واحد من بيوت القرية البعيدة، يتداخل الممكن والمستحيل فأقرر في لحظة الهوس أن وجهها علي النحو المأمول سيخرج بالحتم من بطن أرض وطئتها ليزهر كنخلة شامخة تعطي تمرها بسخاء وكرم، وتكون لي ولكم وطناً ".

●●●

مارست أكذوبة الخميس وانتظرت، توهمت أنني رأيتها مع زميلة الجامعة، تدعوني لمعرفة التاريخ بتفاصيله ونمنمات ناسنا خلال الأزمنة، وقلت إنها لحظة بداية ممكنة، لكنني لم أكن متأكدا إنها بالقطع محبوبتي، وددت لو تكون لحظة الميلاد المرتقب أن أقول لها بعد صمت السنوات أن الزمان دار واستدار، ولفظت صبار عجزي ورحت أركض نحوها هادفا إلي اختراق حاجز الزمان والمكان كي تحتويني وأحتويها وتكون لي مثالا نادرا لوطن مسكون، في لحظة تخطيت فيها عجزي عن احتمال المزيد من الصبر والتصابر رأيتها أمامي بخصلات شعرها المسترسل الهفهاف وهي تطوح رأسها الصغير لتزيحه جانبا وتمنح العينين الباحثتين التائهتين فرصة التوهج والتأمل العريق الذي انتظرته، ارتجفت بالرغبة في لحظة اللقاء او ما تبدي لي أنه لقاء، وكفها الصغير في يدي كعصفور وديع يهمس.

كأنني رأيتك قبل أن أراك، فهل أنت فارسي الهمام؟

وكان سؤالها بداية خيط تعلقت به، ووجه صديقتها المتعجب المغتاظ

يرتبك ويستنكر الجرأة في تعارف طال انتظاره وهي هناك عند مدخل الجامعة تنتظر بالرغبة في الطلوع والتحقق، وأنا سألت نفسي في طريق العودة كيف استبحت لروحي أن تنسج كل تلك الأحلام الممزقة الأطراف، ماذا أملك غير مرارات الأمس زادا يلبد في سقف الحلق ويسري في الأعماق، ماذا أملك إلا ظل الكلمات الخرساء؟ وملامح وجه محزون رغم وشاح البسمات غلافا يداري تلال السأم؟ وأسأل نفسي أيضا إن كنت لم ألفظ أحلام الأمس بقهر أيام العجز المتشابهة والتي كانت تبدأ بدورتي في المدينة إثر كل فجر باحثا عن طيفها المستحيل بعد أن فقدت أمي لتكون لي أما بديلة، وعودتي لبيتي مكدودا معفر السحنة والثياب في كل مساء، خاوي الجوف إلا من صبار عجزي الذي ارتضيت مضغه في المساء وحدي علي مضض، وأسأل نفسي أيضا إن كانت هي هي؟ وأنها ليست كيانا بديلا عن أحلام عمري الصرعي، ولأنني كنت أرغبها إلي حد نسيان فكرة الرد علي أسئلة مكررة ومعادة للمرة الألف ، ولم يكن هناك خلاص غير المواجهة الجسورة لنفسي ولهم جميعا.

وفي الصباح التالي عقدت أمري، وشرخت رغبتي في التراجع ربما في جزء من ألف جزء من لحظة شجاعة، أخرجت أحزان عمري من قوقعتها العتيقة المعفرة، وحصيلة لحظات القهر والعجز عبر السنوات الفائتة والتي أخفيها عمدا، فجعلت من ترددي الدائم سجني وسجاني متخوفا أن تفلت مشاعري الهوجاء مرة أو تنفجر ثم تتسرب وتنكمش إلي حد التلاشي بالسكون والاكتفاء بلحظة التأكد من العجز عن احتمال المزيد من الانتظار ومواصلة العطاء للمحبوبة المأمولة البديلة، ارتسمت علي ملامحي شبه ابتسامة مرتاحة وشرعت في النوم منتظرا صباح اليوم الجديد.

●●●

لمست كفها وسط الجمع الذي يصب فوق ملامحها عيونا نهمة والذي تتحرك غيرته بعنف واندفاع يبرره التألق النادر في عينيها وكل وجهها، أحسست رعشة تشملني وترجني رجا وقطرات من دمي تندفع وتتزاحم نحو الكف الذي أحتويه بينما تتراجع قطرات أخري، رغبتي في الاحتواء تتعادل وأمنية القدرة علي حمايتها وعدم التراجع مرة أخري، لكنني طمأنت روحي وشرخت التراجع ونفذت من صلبه إليها برغبة صادقة في العطاء.

قلت لها إن الموت الحقيقي " هو أن نقتل رغباتنا في العطاء فينا " وأكدت لها أنها هي بعينيها وتقاطيعها قادرة علي تحقيق رغبتي في السكون والسكن ضمن عديد من الرغبات وقد كانت مستحيلة، أرجأت احتواءها وطبع القبلة الأولي فوق شفتيها المرعوشتين بالتمني، خفت أن أبدو مدفوعا بمطامعي فيها أو أن أبدو غبيا وعاجزا عن تحقيق رغبتها، استعدت مقدرتي علي المضي نحوها، تسمرت مكاني لحظة أن رأيت عشرات الخصوم يرفعون الأسلحة، جيران وغرباء يعترضون علي تحقيق أمنيات، لعلني تجاسرت في في جزء من ألف جزء من الثانية المحسوبة، وربما كانت من القصر بحيث يستحيل أن أحسبها في عمر الزمان، وربما كانت هي العمر كله مختصرا ومضغوطا في لحظة، عبر هذه اللحظة التي استحال علي أن أحصيها أو أدرك سرها، تداخلت الرغبات في الاحتواء أو التراجع الجبان، وتاهت أحاسيس الأمان فامتزجت برجفة الخوف الرعديد أمام الأسلحة المشرعة في مواجهتي وأنا أحتمي بها، وانصهرت فكرة التأني ثم الاندفاع في بوتقة التوتر الحريص، ماتت أشياء وولدت أشياء، ونظرت إلي النهر أمامي فوجدتني علي الحافة أتأرجح بين إرادة السقوط والبقاء، تحطمت فكرة كنت أحسبها حقيقة من أنه لا شئ في العالم يساوي شيئا آخر، لأن هناك كفة ترجح الأخري حتي في أدق موازين الذهب، فاحتمال وجود جزء من ألف

ألف جزء في صالح أي الجانبين قائم، وإمكانية الاختيار باقية، وكانت رغبي بجسارتها تواجه احتمالات عجزي في تلك اللحظة بعد الاختيار.

ومساء الخميس التالي كنت قد اختصرت العالم في محبوبتي، ومتناسيا كل شئ يتواري خلف جسدها النحيل الذي بدا لي أنه امتلأ بالاقتراب والتلامس بحيث غطي ما كان خلف هذا الكيان من أشياء ليصبح هو العالم بأسره مضغوطا، ونسيت مخاوفي وتقدمت ناحيتها وطبعت قبلة فوق الجبهة الباسمة بالشفتين القرمزيتين، أحسست بتنهيدة ارتياح وإحساسها بالتحرر تتوالي وتخرج من صدرها الناهد وقد كان معصورا في المتاهات، ودقات قلبها تنبض سريعة متلاحقة فأستشعر الأمان والسكينة، أو ما يمكن أن يوصف بأنه توافق يتيح لنا أن أحتويها وتحتويني بنفس مساحات الأشواق التي ظللت أتمناها وأرتجيها.

لكنني لم أخلص من رعب التوقعات المسنودة علي التربص غير المسنود علي حقوق مؤكدة، وفي مواجهة ادعاءات وافدة لم تكن في الحسبان، وخوفا من خسرانك يا " سالي " أو يا " سها " أو يا " حلم العمر كله " خوفوني من خوفك حين تتصورين أنني ما عرفتك إلا طمعا في التألق النادر في عينيك وكل وجهك، أن يدفعك الخوف من فراري الممكن إلي الابتعاد حرصا، فحاولت أن أروغ من حذر الكائن المرعوش داخلي، وأنا أتابع أحلامي في لحظة ارتياح الرأس المنهك فوق طمي صدرك الدافيء وهو يتسرب لمكوناتي، ربما لأنني أرغب في أن أختزل العالم خلال لحظة التدفق المعطاءة من روحك إلي قلبي ومشاعري وعقلي بينما كفك في يدي يمنح نفسي الراحة ويمنحني السكون، لأضحك دونما إحساس بافتعال الضحكة، أضحك من الأعماق ربما لأنسي مخاوفي من وجه أخي الأكبر الذي كان يرقبني في عتمة المساء

من بين جدران حجرتي ويلوح لي بكفه الضخمة، فأنكمش في فراشي متوقعا أن يهوي فوق أصداغي بضربات مغلولة أو أن يسقط شمروخه فوق دماغي هادفا إلي تدميره وسحقه.

●●●

قبل الهبوط في سرداب التراجع كنت أسأل إن كان ممكنا أن أطمئن إلي وجهك المستكين المحايد يا " سالي " أختنق بانتظار لحظة الحصول وأسأل إن كان في مقدوري مواصلة الرمح بدونك في محيط دائرة المدينة المارد برغم اكتشافاتي المتكررة بأنني أعود مكدودا إلي نقطة البداية، تختلط ملامح بملامح الوجه الذي صورته كيانا قائما فأهم بأن أستدير موليا لصورتك ظهري متخوفا من التوقف عن مشاوير البحث عن وجه " سها " المأمول بالاكتفاء، وقبلما أستدير أري عينيك السوداوين تطلان من حيث لا أدري فأحس المهانة وأنكمش حول نفسي وأتضاءل إلي الحد الذي يوشك أن يكون وجودي عدما، أعود للغوص برغبتي في العثور المطمئن داخل كياني المرعوش بفكرة التراجع المتخوف.. وعندما أطالع عتابا ذكيا فوق الملامح المهمومة وفي أغوار العينين المعتمتين بعمق المشاعر المرعوشة بمخاوف الفرار الممكن، وسياج من شعرك المسترسل يحرس الملامح المتوهجة بالتمني ويؤكدها، أسأل نفسي عارفا الجواب إن لم يكن كيانك جزءا من كل هي أصله؟

●●●

لو أنها كانت يا " سالي " ككل القلاع التي صادفتها لأمعنت في اجتياز السهول والجبال وخضت في أحراش البحيرات الفسيحة وحدي، لو أنها كانت بالفعل لانزلقت في مجاهل البحار بدون قارب، أبحث عن حصنها

العملاق برغبة الصعود المستحيل بدونك، لكنها بالفعل رحلة الصعاب المتكررة التي لا أملك اختيار تركها والخلاص منها مادمت حيا، سراديب كيانها إشراق بدايات المستحيل المشرف علي التحقق بممكنات العمر العنيد الشاحب، ولأنك مشوار الغد فقد أيقنت أخيراً من أنك جهد مضاف قادر علي الدفع في لحظات الملالة والقنوط، ذلك أنني عرفت يوما أنها تعشش في رأسك أيضا، طائرا خرافيا عزيز الامتلاك يشدك كما يشدني للتحليق الطليق من أجل الصعود المستميت في سبيلها صعودا وإن بدا للبعض أنه هبوط، وأنك أخيرا مدخل التحقق للحلم المستحيل يا " سالي " ودرع الحماية، وحتي لا أخشاه وأنكمش بالرعب من ملامحه الحادة الصارمة وشمروخه المارد يتوعد دوما، وفي مساء الغد سوف نراها، نمعن في التأمل، نتصيد عينيها الخضراوين للحظة فتخلص هي بستار جفونها العينين المرتبكتين بإحساس التأخر عن موعدها المضروب سلفا، نهدهدها بالحنان ونحوطها بالرعاية وهي تنطق الحروف الأولي.. ماما... بابا ، نحتضن الكيان الوليد القادر علي ذبح أشباح المرارات الأولي وفرش اللحظات بالأمنيات الممكنة، يومها يا " سالي " أناديها كما كنت أناديك أحيانا بالاسم الذي أحببته وأصرخ بالنشوة راقصا في أكبر ميدان في المدينة رقصة " زوربا " اليوناني في لحظة الأمان المرغوب.

●●●

كنت أرتعش وأنتفض وهي ساكنة إلي جواري علي النحو المعتاد، لعلني في هذه الظروف العصيبة المتكررة التي لا يحدها حد كنت أتحامل علي نفسي، أنهض ربما لتقليل المواجع التي تصل العصب الحائر بحساباتي، كنت أشعر أنها تفسح لنفسها مساحات لكشف علامات غل كامن يتزايد،

لكنني كنت أنتفض وأتباعد عنها علي نحو لم أكن قد اعتدت عليه في علاقتي بها، ربما توهمت أنها أكثر براءة مما تصورته عنها، صحيح أنني استشعرت أن الأمر في بداياته كان مصادفات عابرة يلزم أن أنساها وأتغافل عنها قائلا لروحي: هكذا أنت دائما يا ولد، لا تقنع بالقليل كأمثالك ممن يتعايشون مع الواقع بتبلد يليق بأعمار تتقارب مع عمرك أو حتي تقل عنها.

كنت بيني وبين نفسي أشعر بالمهانة والضآلة المبنية علي افتراضات غير مدعومة بحقائق، أو بهواجس تليق بكيانات في مثل عمرك ليكون ما أكابده قد أصبح حقيقة، ولأن احتمال التعامل مع الوحوش الشرسة بطقوسها الخاصة في التهام ضحاياها، ولأنني اكتسبت ما يمكن أن يقال عنه أو تسميته اعتياد الضحية علي الاستسلام الكامل بعد أن استنفدت الروح دفاعاتها المخزونة والمتاحة مع تلك التي تنضاف علي غير توقع، لعلني كنت ضحية كوابيس تتداخل فيها أدوات الصحو المباغت الناتج عن صخب وجلبة قبل العودة إلي الغفلة الشاملة التي يمكن أن نسميها استغفالا متعنتا، وقد يلزم أن نوضح أنه من المحتمل أن تكون هذه اللحظات محض تهيؤات مبتكرة وغير مسبوقة وقد انحطت علي بدني في أوقات المشاهدات العابرة التي تسبق الإعلان عن تأكيد حدوث الحدث بعد مراحل التجريب المطوط، سوف أعود إلي توصيف الحالة قبل أن تفر مني ويصعب علي أن أستعيدها أو حتي أصفها في الفراغ الملبد بالغيوم، والارتياب الذي تتداخل فيه الرغبة في الخلاص من عنفوان وضراوة هواجس مباغتة تهيمن وتفرض مفرداتها قبل أن تتحول من مجرد احتمال قائم، إلي حالة تسليم بالقدرة علي توصيفها أو التسليم باستحالة عقلنة ما بدا لي تداخلا بين الممكن

والمستحيل، بين التسليم يأسا من إمكانية توصيفها علي النحو الذي يجعلها قابلة لأن تكون هامشا هزيلا عند من يتلقي توصيفها ويتحامل علي نفسه ليزود مساحة التصديق علي النحو الذي يتسرب من المعامل العلمية عند مقدمات كشف أو احتمالات الدخول في احتمالات كشف الموافقة علي أن يواصل مستكشف مستجد مدخلا جديدا في بداية مشواره متحملا تبعات الفشل وما يصحبه من استهجانات أنصاف العلماء من غباوات من أدخلهم وأدخل نفسه معهم في دوائر الحلم المستحيل غير المسنود علي أسس مسبقة، ربما لأن ما طرحه وفشل في تحقيقه أو افتراضات تحقيقه، شئ يشبه التنافس العسكري لمن ينتوي تجريب سلاح جديد لم يسبق استخدامه أو حتي تصديق إمكانيات استخدامه، ليس لأنه خارج كل الأطر التي ترتضي الدمار الشامل، دمار الجاني والمجني عليه وإسدال الستار علي عناصر الرغبة في الحياة عند الجاني والضحية، تسليما مسبقا بالرغبة في الفناء، انتحار جماعي اقتاده وسعي إلي تحقيقه لينتحر وينحر الخصوم الخصوم والحلفاء الحلفاء وقد جاء كل واحد منهم من اتجاه بعينه، يتشكلون في هذا الفراغ السرمدي علي هيئة حيوانات برية تتجه ناحية شط البحر لتلتقي بين أمواجه حيوانات التجريب مع حشرات التجريب.

ليتني أكون قد نلت بعض الترحيب بأن أواصل لكي أثبت أحقيتي في توصيف تلك المناطق الغائمة وأن يتاح لي الحق في التجريب ما دمت أسعي لإضافة مقدمات بحث يتطلب الاستكانة والتسليم دون قيد أو شرط كيان مغصوب ومغلوب علي أمره بما قدر له ليتحول إلي ظل باهت لخيال مقاتة لا يلفت أي نظر أو مغلوب علي أمره وهو واع بأنه قدره المكتوب، وعلي نحو يتوافق مع المستكين المستسلم تماما لقدره القائم بينهما ليواصل أيضا نفس التراخي والاسترخاء علي مهل بينما نبض الدم يتدفق معلنا عن مواجع لم

تكن في الحسبان، هي مقدمات عجز باح لي بمقدماته فتأهلت لان أكون طيعا، وما جدوي المقاومة التي لا تسفر عن مردود قادر علي تحريك الأطراف علي النحو المعتاد؟ وهي اعتراضات بلا مردود آمن رغم التبشير المسبق بدخول زمن الرخاء والنشوة التي تلازمه.

●●●

تباعدنا عنه بمثل ما تباعد عنا ولكن علي مهل، ولأن تباعده لم يكن معلنا أو مبررا بحساباتنا، فقد تعايشنا مع الحالة علي أساس أنها هم مباغت وسوف ينزاح، كانت سنوات العمر التي عشناها معه بطولها في نفس الدار تتبدي لنا سدا راسخا ومنيعا يصعب التقليل من أهميته أو تجاهله، لعل العبارة الوحيدة التي كنا نتهامس بها أحيانا بينما نتوجع هي " إن لكل شيء نهاية " يقولها أي واحد منا فنؤيده بلهفة وكأنه تطوع وزرع في قلوبنا الموجوعة أشجارا من الأمل، كان الرجل يتبدي لنا معاندا في تباعده عنا وهو يتعايش معنا، يشاركنا وجبات الطعام وأكواب الشاي وأية فاكهة يكون قد اشتراها وهو راجع من أحد مشاويره التي لم يعد يوضح غرضه منها أو وجهته مثلما كان يفعل في السابق، ودون أن يبوح لنا عن أسباب خروجه من الدار كان يخرج ويعود، وكنا نعلن لأنفسنا احتجاجاتنا المنطوقة دون أن نسمعه منها حرفا، كأننا تعلمنا كيف نتشكي لأنفسنا من أنفسنا أو منه علي وجه التحديد دون أن نجرؤ علي لومه أو تنبيهه بأنه ليس من حقه أن يخفي عنا أغراضه أو يوضح أسباب صمته وعدم استجابته لأهله.

وفي السنوات الأخيرة لاحظنا أنه يتباعد عنا أكثر ودونما أسباب واضحة، واستفسرنا منه بدأب ودون ملل رغبة منا في معرفة الأسباب، لكنه لم يسعفنا برد يوضح لنا أسباب مقاطعتنا وتباعده عنا ومبرراته، فصرنا

نتبادل النظرات الحائرة دون حوار نتبادله علي مسمع منه، نشعر بالخجل ونعجز عن مواصلة ما كنا قد بدأناه حوارا في أمر يشغلنا أو موضوع نرغب في استشارته بشأنه ونلتمس منه ردا يريحنا، لأنه صار يلوذ بالصمت متعمدا وكأنه يعلن بعناد رغبته في عدم الرد علي استفساراتنا، ربما يهز رأسه أو يمط شفتيه مطّا أو يهمهم لنفسه بغمغمات غامضة يصعب لملمتها أو تصنيفها لتتحول إلي كلمات مفهومة، يتأكد لنا إصراره علي مواصلة التباعد عنا وإبعادنا عنه دون مبرر حسبما كنا نري، ترجمنا سلوكه وتصرفاته علي أنها تباعد عنا بقصد وبترتيب مسبق يمارسه في سلوكه اليومي وكأننا صرنا عبئا لم يعد يحتمله، لكننا لم نجرؤ علي مفاتحته في الأمر تأدبا أو خجلا أو عجزا عن مواجهته المباشرة، ولأنه لم يعلن من ناحيته أي تبرير منطوق ليتأكد لنا عدم رغبته في مشاركتنا بالرأي أو النصيحة مثلما كان يفعل في السابق وهو يمارس دوره في توعيتنا كما تعودنا منه في السنوات الفائتة، لكنها تحولت إلي ذكريات قاسية حفظناها وتذكرناها بأسي وقد كف عن تأدية دوره دون مقدمات أو أسباب بحساباتنا، فتخففنا تباعا من طرح استفساراتنا المنطوقة عليه لأنها لم تعد تحظي بردود منه تريحنا مثلما كان يتباهي مزهوا بنفسه لأنه يواصل دوره ليحمينا من غدر الزمان في السابق.

وانقلبت الأمور بالنسبة لنا لأنه بدلا من حرصه الذي كان يبديه بحماس إذا استفسرنا منه عن شئ عارض يخصنا قبل أن نستفسر منه فيرد متطوعا ويشير علينا لكنه أخيراً صار يصب النظرات المستنكرة علينا ويتابع سلوكنا المعتاد أو حواراتنا المألوفة دون أن يعلق عليها وكأنه يرفضها علي نحو لم يكن مفهوما بحساباتنا، وأحيانا كان يشيح بوجهه عنا أو يهز رأسه تعاليا أو استخفافا بنا في تصوراتنا، صرنا

نستشعر الخجل ونتخفف في حواراتنا في وجوده، نلوذ بالصمت ونتبادل النظرات أو الإشارات تعبيرا عن قلقنا المزوج بإحترامنا لصمته، يتبدي لنا أنه يعترض بنظراته ولا يكلف نفسه عناء البوح بمتاعبه أو اعتراضاته غير المنطوقة علينا لأنه يدخلنا في دوامة البحث عن تبرير مقنع لصمته، نبحث عن وسيلة أكثر فعالية لطرح تلك الأسئلة التي لا تحظي بردوده علينا كما كان في السابق، وسيلة تتيح لنا القدرة علي معاودة فتح الحوارات المباشرة معه لكننا نعجز، وربما نشعر بالحيرة عندما نقترح أسئلة فكر أي واحد منا في البوح بها بحثا عن الرد الشافي منه، لكنه بعد أن يسمعها يلوذ بالصمت، يتأمل وجه من تطوع بطرح سؤاله مليا، ثم تجول نظراته متأملا وجوهنا وكأنه يستخف بقدرات عقولنا علي الخروج من المأزق، ومشنودا علي مبررات كامنة أو غير معلنة، فيواصل صمته ويتحاشي مواجهتنا من جديد.

●●●

" بكل العسر تعرفت علي ملاك الموت الذي ظل يحوم حولي متخفيا طوال ساعات الصحو أو الرقاد القلق وكأنه يسعي لتزويد مواجعي وسأمي من الدنيا وناسها، وعندما بحت له بأنني اكتشفت هويته وتعرفت عليه من مقدماته لتخليص الروح من مواجعها ليكتمل خلاصها، بدا مندهشا لقدرتي علي التعرف عليه خلافا لما هو شائع بين غالبية البشر الفانين الرافضين لتجهيزات أرواحهم لتحاشي دخولهم تلك الرحلة الإجبارية في كل زمان ومكان، وأستشعر الخجل قبل أن يعترف بأنه مكلف بتخليص أمثالي من هموم الدنيا الفانية لإراحة الروح القلقة بعد تسكين البدن الموجوع من مكابداته المتواصلة التي يعانيها بغير جدوي ".

قلت لروحي:

– من الأفضل أن أسايره وأجاريه لأعرف منه، متي يكون خطف روحي من بدني لأرتب حالي قبل الرحيل عن تلك الدنيا التي كابدت فيها وعانيت وأنا أسعي ليتبدي لي أي بصيص ضوء شاحب في المدي البعيد يناديني أو يدعوني كي أنهض أو أسعي للمشاركة في تنوير حيز من أرض الوطن.

وتبدي لي أن إبعادي خلال سنوات العمر الفائت عن التحقق المأمول أو بؤر الضوء التي كنت أسعي نحوها، كانت تتباعد وتخلف في القلب مواجع، وتذكرت أنني كنت أواصل جهودي مع ملاك الموت المكلف بتخليصي من هموم الدنيا ليبوح لي بالموعد المحتوم، لكنه لم يبح بأكثر من قوله:

– موعدك آت يا ابن آدم في القريب العاجل.

كنت أعرف أن ملاك الموت في نهاية الأمر ملاك، وأعرف أن الملائكة لاتبوح بالأسرار المحظورة مثلما يفعل البشر الفانون، لكنني تجاسرت مرة بعد أن استشعرت وجوده حولي، وذكرت له وكأنني أعابثه معلومة ربما يعرفها ويتجاهلها :

– تخيل أن بعض الأطباء وهم من البشر الضعفاء قد يبوحون لبعض مرضاهم بالموعد المحتوم لنهاية الحياة، المسألة تحتاج كما تعرف إلي ترتيبات يلزم أن يقوم بها أمثالي من الضعفاء.

لكنه تجاهل الأمر، واستشعرت تباعده عن المكان مع نسمة عابرة، فصرت وحدي أنتظر خلاصي في موعد قريب.

●●●

ظللنا نشاركه نفس الحيز المسكون لسنوات وسنوات، وكنا نتبادل الحوار وقد تباعدنا عنه بقدر الإمكان، ونتساءل عن أسباب تباعده عنا، ولأننا لم نجد ردا شافيا أو تفسيرا لائقا أو مقنعا يمكن أن يكون، نسترجع ما كان

شأنه معنا أو شأننا معه في الزمن الممدود بطول أعمارنا، نتألم عندما نتأكد أن صورته انقلبت رأسا علي عقب، مثل صورنا التي تبدلت بالقطع في خياله إلي الحد الذي صار يرانا فيه خصومه علي نحو مؤكد لا يقبل الشكوك، صورنا التي تبدلت في خياله وانقلبت تماما وحوارنا عن أسباب تباعده ولا نجد تفسيرا لائقا وبدا لنا إنه كان بارعا في تجاهلنا وقادرا علي التباعد عنا دون عداوة معلنة أو حتي نقاشات ساخنة بينه وبيننا، كان يتنفس مثلما نتنفس من نفس الهواء الساري بصحن الدار أو سطحها المفتوح علي السماء الواسعة، لكنه كان دؤوبا علي الاعتراض بملامحه الحادة عي كل ما يدور حوله، يتأمل وجه من يتوجه إليه بأي استفسار أو ينقل له أي خبر عارض متفحصا ومترددا قبل أن يزفر أو يتنهد معبرا بطريقته عن الرفض الكامل والكامن لما سمعه دون أن يكلف نفسه عناء الرد، والهواء الذي نتنفسه لمواصلة الحياة يتحول أحيانا إلي عبء خانق علي نحو غير معلن، ربما إشفاقا عليه أو اعتراضا علي سكوته الذي طال بأكثر من كل توقعاتنا التي حسبناها، كان يتناول معنا نفس الوجبات في مواعيدها المألوفة، يستجيب أحيانا لأية إشارة يتطوع بها أي واحد منا لينبهه أن الوجبة انحطت علي الطبلية الكبيرة في العشاء أو الإفطار أو الغداء، أحيانا يعفينا حتي من عبء دعوته ويتحرك قبل أي تنبيه أو إشارة، يتخذ مقعده المعتاد في نفس الركن بعد أن يتأكد أن مكونات الوجبة انحطت في الحيز المخصص لها ، ونشعر بإرتياح ونحلم بإنفراجة نتمني لها أن تكتمل بمعاودة التواصل معه لكنها لا تكتمل.

●●●

أستشعر الوهن وقلة الحيلة معها ومعهم، وكم تساءلت إن كان هذا

الوهن الذي أصابني كان نتاجا شائعا ومألوفا أو حتي متوقعا لحالة مثل حالتي لأنها تصيب البشر في الساعات أو السنوات التي تسبق الرحيل، هو ضعف بكل مفردات الضعف الذي جربته بالإكراه قطعا منذ لحظة الميلاد مرورا بكل المصاعب التي صادفتها وصادفتني أو تربصت بي في كل المنحنيات التي مررت بها في سنوات العمر الممدودة بغير حساب بحساباتهم، وربما أدهشتهم تلك القدرة علي مواصلة المشوار في سنوات السعي الدؤوب لتخطي كل عقبة تصادفني أو تتربص بي وأنا في البدايات أسعي بالفطرة لأتخطاها، ثم احتيالي في سنوات الصبا للقفز فوق الموانع لأواصل مشواري، عارفا إنني كنت في تلك السنوات فاقدا للسند وربما أفتقد المأوي الآمن واللائق أيضا، وربما كان محصلة طبيعية للتعايش مع المرض مغصوبا ومغلوبا علي أمري كل تلك السنوات، كنت أتساءل إن كانت قد تغيرت بالفعل أو أنها هواجسي التي تناوشني وتفسد علاقاتي بكل البشر، أو أنها كانت تهدف إلي تزويد تباعدي علي نحو غير معلن لكنه قائم.

ربما كان ذلك كذلك وربما كانت الأوهام التي ترسبت لدي عنها في العام الماضي قد أسهمت في تأكيد التباعد الذي كانت تسعي إليه أو يأتيها فرضا علي الرغم من إرادتها لكنه قائم ومتواجد كحاجز صلب بين طرفين كانا في الأصل طرفا واحدا تمكنوا منه وقسموه لعدة أجزاء وحطوا علي كل جزء علامة تميزه عن سواه فيتشكل باعتباره كيانا مستقلا يلزم أن تكون له صفات غير الصفات الموروثة لأنها قابلة للتبديل أو التغيير دون مقدمات، ولأنها تبدلت أو تغيرت بشكل مفاجئ دون مقدمات فقد تأكد له أنه يفتقدها أحيانا في وجوده أو أن تكون هي الأخري قد افتقدته، لأن المسألة بينه وبينها لاتقاس بميزان الذهب ولا ميزان الفضة فقد قال لنفسه في واحدة

من لحظات التجلي " يلزم أن تنساها قبل أن تنساك " لكن المسألة لم تكن نسيانا متعمدا أو مرسوما بدقة كي يحسبه البشر الأسوياء مألوفا لم يسع إليه أحد.

في أول الأمر تبدي لي أن الصحو والمنام يتداخلان علي نحو مربك، صرت أتخيل أطيافهم وأبدانهم بتفاصيلها وهي تتحرك بالتتابع من خلفي أو بجواري، وأنني سمعت صوتا لأي واحد منهم أتاني من خلفي أو من أمامي أو بجواري وسارعت بالرد بصوت مسموع علي سؤاله أو رأيه في موضوع يشغلني أو يشغله، ثم يتأكد لي أنني طرحت السؤال علي نفسي وجاوبته موهوما لأن أحدا منهم لم يتواجد خلفي أو إلي جواري، الغريب أن الأمر تكرر في أوقات متتابعة أو متباعدة والغريب أنهم كانوا يتابعون ما جري لي علي مهل في الخفاء قبل أن يعلنوا اكتشافاتهم وربما جاوبت سؤالا طرحه أي واحد منهم بحساباتي يتطلب ردا مسنودا علي معرفتي لأية تفاصيل، يصدر الصوت بحساباتي فأرد بصوت أسمعه وأستغرب بيني وبين روحي لأنه لم يعلق علي ما قلته، أتلفت ورائي ويميني أو شمالي، وأكتشف أن الفراغ يحوطني من كل جانب، وأدرك أن ردي علي السؤال كان مخزونا ينفلت في البراح لأنني لم أنطق به.

أحاور نفسي كيف قبلت أن أؤجل الرد علي سؤالها أو سؤاله كل هذا الوقت، ومتعاطفا مع نفسي لأنني تحاملت عليها وأنا أداري ما يمكن أن يقال عنه من انتقادات لشكل العلاقة بيني وبينهم، وربما أشفق علي حالتي وقد تحولت إلي هامش مركون ومعزول باختياره بحساباتهم، أو باختيارهم بحساباتي، وتتداخل الصور في خيالي، فأعاود تذكير نفسي أنهم عيالي وأنني لن أهون عليهم علي أية حال، وربما ألوم نفسي بيني وبين نفسي، أو أتشاغل بأي شئ يستهلك الوقت.

في البداية كنت أتوهم أنني متعجل بطبعي، وأنه من غير المعقول الرد ويتبدي لي أنني أسمع أنفاس من وجهت إليه السؤال، فألتفت إلي مصدر الصوت الوهمي ولا أراه، أشكر المولي عز وجل لأنه لم يكشف ستري أمامهم، أعتب علي روحي وأنبهها لكي تتحقق من وجود أو عدم وجود من وجهت إليه كلامي ويجعل أي واحد يقف أو يجلس خلفي مثلا، فألقي عليه سؤالا بصوتي، لكن الصمت يربكني ويحيرني فألتفت عازما علي لوم من يقف ورائي أو يجلس وقد توهمت وجوده، ثم تتبدل الصورة ويتبدي لي أنني في غفوة أو نصف صحوة ما بين البداية التي ارتسمت في خيالي والحقيقة المتباعدة فأخفيت حتي عن نفسي ما كنت قد تيقنت من حدوثه علي نحو متكرر.

وربما كنت في البداية أفسر الأمر لنفسي علي أنه نوع من الخلط بين الصحو والغفلة الخاطفة وبسبب عدم انتظام ساعات رقادي علي نحو يتناسب أو يليق بشيخوختي المبكرة التي بلغتها منذ سنوات، يضحكون مجاملة أو شفقة أو حتي شماتة ساكنة، ثم يضحكون ويعابثونني مجاملة قبل أن يسألني أي واحد ممن استمع إلي ما قلته إن كان ما بحت به محض خيالات تتبدي لي أو مداعبات لإزجاء الوقت أو التخفيف عنهم، أعاود ذكر ما جري لي بكل تفاصيله - متشكيا لهم وربما لروحي علي نحو غامض حيرني وبكل الحسابات - لمن يتعاملون معي من الأهل والجيران فيضحكون، ومشاعري التي أتستر بها وكأنها ثوب مسرق يغطيني ابتلاه الزمن المطوط، وقد أصابتني منه المواجع، وأوبخ روحي وأعتب عليها منفعلا وواعيا أنها لن تسمع شكاياتي بتعاطف ممزوج بالحياء، يتأكد لي أنها سر [illegible] ثقتي في تعاطفها الممزوج ببعض الخجل، أراجع نفسي في ذات الوقت لائما نفسي، لأنني تخيلت أنه من الممكن أن تظهر عليها

علامات مثل حمرة الخجل، وأسأل روحي إن كان ا‌ـ ـعيع وملامح تكشف هويتها أو تجسدها، وهو تصور كان من الممكن أن تكون للروح ملامحها أو تقاطيعها، وأنها تتأثر بالخجل إلي حد أن تصاب بحمرة الخجل علي تقاطيعها المتخيلة.

●●●

تمادينا في صمتنا المفتعل، لكنهم كانوا يتمازحون تباهيا بما أنجزوه، وواهمين أنهم نجحوا في إسكاتنا وفرضوا علينا الصمت، تواطأنا دون بوح أو شكاية، وما تبدي علي السطح الساكن غير علامات توحي للرائي أنهم أسكتونا، واجهت نفسي بالسؤال المباغت طالبا منها أن توضح لي ما أنجزته خلال مشوار العمر الذي طال بحساباتهم وحساباتي، وبيني وبين نفسي اتهمت روحي بأنها لم تفعل ما كان مأمولا أن تفعله علي كل المستويات، لعلني اتهمتها بالبلادة والكسل ولم أدافع عنها، وكانت بداية خصامي معها رغم عجزي عن فصل نفسي عنها. كرهتها أكثر من أي وقت مضي وتباعدت بإرادتي عنها، لعلني توددت إليهم وتقربت منهم علي نحو مغاير، ثم تباعدت عنهم، تكلمت بصوت خافت ثم سكت، صرخت وكتمت مواجعي، تباهيت بنفسي وشعرت بالخجل من نفسي، تعايشت غصبا عني، لمت نفسي وتمنيت أن أتبدل علي النحو الذي يرضيهم عني، تعاليت وتدنيت في بعض اللحظات، وكنت أراني محورا يتم الارتكاز عليه، أو كيانا هامشيا ليس له أثر أو تأثير.

تباعدت عن المناطق الفاترة في علاقات مفروضة بسبب الميلاد والهجر والتقارب المفتعل، وتوددت لمن يستحقون صادقا معهم، وتناءيت عمن كانوا في بؤر الأحداث بمصادفات مرتبة سلفا، لأنني كنت أراهم في أحجامهم

وكاشفا لقدراتهم، ولكنني لم أقترب ممن يملكون حق الفصل في دعاوي الحكم علي مستويات البشر دون مصوغات صادقة، والمرارة تتوجع والقلب يتسارع في دقاته فيخيفني، أو يتكاسل إلي حد الخمول المرتب والمقصود بحساباتي عنه وعن نفسي، كنت أفسح لنفسي المجال وأتجاسر عليه، أصوغ عريضة اتهامه بأنه افتعل المواجع ليمهد للحظة الانسحاب من زحمة الخلق، مهزوما يتراجع عن مكانه في وسط الملعب تماما، وهو يوشك علي التوقف التام عن تأدية دوره في تسيير الأوردة والشرايين.

" كنت أراني بيني وبين نفسي في تلك الأيام، ظلا يتحسس علي مهل طريقه لنهايته الجبرية، ولأنها نهاية جبرية لا يملك أي كائن حي أن يفر منها، فقد هونت علي روحي الأمر، وتبدي لي وجه أبي في الزمن الكالح وهو يحدثني بثقة العارف إنه يسير في سكة الرحيل عن دنيانا، أعترض إشفاقا عليه رغم ثقتي بأنه يصف حالته كما يستشعرها، وأن العبارات التي أسمعها منه لم تكن افتعالا علي أي نحو لأن ما كنت أسمعه كان يستند علي نحو رحيلي الحتمي – ولا يهم إن كان الآمر باختياري أو غصبا عني – عن دنيا لم يسعفني فيها أحد، ولأن الخبطات كانت تخلّف في البدن المهدود كثيرا من الكدمات والجروح بآثارها الظاهرة والمخفية مواجع، ولأن خطواتي المتعثرة في كل محاولة للفرار كانت تبوء بالفشل، فشل يتلوه فشل، ربما كنت أقول لروحي المحبوسة في هذا البدن المكدود المنهك وقد أصابته من كل الزوايا خبطات النيران الصديقة كما يقولون في أجهزة إعلامهم الموجه للضحايا من كل الجهات بغرض تخويفهم لأبعد الحدود، فأقول لروحي همسا خافتا: يلزم أيتها الروح أن تصمدي وتتحاملي علي نفسك كي تواصلي دورك المرسوم لك في حياتك بينهم وفي زمانهم برغم كل المعوقات

والحواجز المحطوطة في كل الأركان لكنها كانت روحا معاندة، تتسمع ولا يبدو عليها أية رغبة في مواصلة المشوار المطوط، وبخطواتها الفاعلة والمؤثرة في سباق المسافات الطويلة، وهو سباق مفروض عليها فرضا في زمن الفعل المحاصر والمحسور علي الجهد الضائع هدرا، لأنه لم ينتج عنه أي إنجاز ملموس أو محسوس، أقول لروحي وأنا أنتقدها، "حتي عدم حصولك علي أية ثمار لتعويض روحك عن سعيها المتواصل المطوط، بغرض الاسترخاء بعد الوصول إلي تباشير تلك الثمار التي تبدت لروحك حلما مستحيلا تم تحقيقه لحسابك علي النحو اللائق بمن سعي وظل يسعي ويبذل الجهد بكل طاقته وأكثر من طاقته، تحقق حلم يليق بك وقد كابدت بقدر المستطاع متخطيا في بعض الأحيان حدود المستطاع، كي تحتمل نواتج المكابدة، هو دور فاعل من المفترض أن يكون مردوده محسوسا وملموسا ما دام ضروريا ومؤثرا ومشروعا في نفس الوقت، وقد طاف في الخيال حلما من اللازم أن يتحقق، كان منوطا بك أيامها أن تواصل السعي في مساحات الفراغ، وكان من الضروري أيامها أن تتجاهل كل من يحيطون بك وتبدو علي ملامحهم حالات متفاوتة من الإشفاق الجوّاني عليك، ربما لأنهم كانوا يتوقعون انكسارك، ولم يكن من الممكن أيامها بحساباتك أن تصل إلي توهان العقل الفاعل، او التشبث بتأدية الدور ما دمت تمتلك أدواته ولديك المخزون الساكن القابل للتحرر في صور مرسومة كانت تسكن الخيال قبل أن تتحول إلي رسوم تلفت الأنظار، علي هذا النحو كان يتحدث مع روحه، ويزرع الأوهام حولها ليضيف جديدا ومفيدا كلما طافت روحه في البدن الثاني، وكم حاولت روحه أن تفر من مصيرها المحتوم ".

" لم يكن تفكيره في الفرار جبنا أو استسلاما، ولم يكن عجزا ولا

ضعفا ولا تهاونا في الفعل بغرض التحقق، ولم يكن وكنت أراه وهو يحاول أن يلملم كل أطراف الحكايات التي تجري أمامه ليسجلها " ويحسب لها حسابات تحميه من التأكد من كونه عاجزا عن مسايرة الزمان، او تفهم ملاعيبه الغبية المكشوفة.

●●●

ساعته المعطلة أخرته عن موعده، العيون الغريبة تترصد خطواته، تقتحم مرقده وتنفذ من جدران بيته، يحسها حتى في عيون أمه وأخوته وعيون المارة والأصدقاء وفوانيس الطريق والمركبات، يستسلم في اللحظة الواحدة ألف مرة كأي مشلول عاجز، تغوص في أعماقه أدوات طبيب جهنمي فالح في استنزاف الدم وكان في كل خطوة من خطواته المستسلمة المرعوشة يتوقع ضربة ساحقة، لا يدري كيف يتنفس رغم الجو الخانق والملبد بالغيوم، ويخاف، يخاف، حتى يصبح الخوف زاده الوحيد، تتهاوى كل الأمنيات المأمولة التي عاش لها، تنحدر أحاسيسه إلى مستوي الرغبة في الخلاص بالموت وتغوص به في سراديب مقفرة إلا من الهياكل المحنطة، صديقه القديم قال قبل أن يمضي في طريق العودة:

– عندما تتشابك الأمور وتعجز عن تفسير الأشياء فاغمض عينيك تماما واحبس أنفاسك واربط الرأس جيدا حتى لا ينفجر أو يطير.

ألحت في مخيلته صورة كان قد رآها في صحيفة يومية قديمة لقرود ثلاثة، أولهم كان يخفي عينيه بكفيه حتى لا يري شعاع الشمس، والثاني كان يسد فمه لمنع لسانه من الحركة، والأخير أعجزه الخرس ففضل أن يسد آذانه حتى لا يحس الحرج عندما يسمع أسئلة الآخرين ولا يجيب، وتدوي في الرأس خلايا سرطان فاجر، يضلله ويدفعه ليتخبط في مسيرته المجهولة

الشاطئ، ولا يعرف إن كانت حكمة هندية قديمة أم أنها من وصايا الإله القرد أيام أن كان القرد إلها محنطا، يعجب من تفسير الذين عبدوا الإله القرد يوما لأن الشمس أسعدته فتراقص فرحا وقيل إنه عرف سرها، وبات في الظلام مهموما لغيابها فأخفي عينيه وسد أذنيه وفمه، يتساءل دون سؤال ويحيط الرأس الساخن بذراعيه، يخفي أذنيه، يغمض عينيه، يحبس أنفاسه، يتأكد أنه قرد جديد، يبتسم لروحه وهو يتحسس مكان المخ ويطمئن إلى وجوده، في مساء الأمس قادوه إلى حيث لا يعرف، ربطوا عينيه حتى لا يري المكان أو يعرف الزمان، عندما شرعوا في صلبه نكسوا الرأس، شدوا وثاق رجليه عند طرفي الصليب وأمروه باستخدام كفيه عوضا عن الأقدام، كان الرأس مقلوبا فلم ير غير الرماد والحصي وذرات الرمال، كان الصليب ممدودا ومتقاطعا في شبه ميدان مأهول ، ميدان تتفرع منه شوارع المدينة الرئيسية الأربعة، كان الصليب مدينة وكان مطالبا بأن يجوبها طولا وعرضا لم يكن بقادر علي الرفض أو رؤية البنايات الضخمة والأشجار ووجوه الخلق، قلبوه فانعكست صور الأشياء وظن هو أن طرقات المدينة هي التي تزحف فوق المركبات ونعال الخلق، كانت الأرض قريبة ولزجة، وكان مستحيلا أن يقرأ حرفا من لافتات النيون التي ترسل انعكاساتها " في البدء كانت الكلمة " وتساءل عن جدوي الكلمات الصدئة حيال أمر بالسير في دائرة نصف قطرها ألف ألف باع، يدوس بالقهر والكفين حصباء الطريق، تلسعه برودة الإسفلت فتتجمد أطرافه، يتسلل إليه صهد الشمس حانقا من خلال طبقة القطران اللزجة، تكويه خيوط الغل القاتم فتفصل جلد الكفين عن العظام ويسألونه:

- ماذا تريد؟

ويدور في المحيط ولا يملك حتى أن يجيب، وتهزه أمه فيقوم من مرقده مفزوعا يتحسس كفيه ثم يلقي على ساعة الحائط نظرة، منذ سنوات لا يذكر عددها تعطلت ساعة الحائط، عندما حاول إصلاح العطب عجز كل من رآها عن تحريك العقارب أو التروس، كان مستعدا للدفع بسخاء، قال أحدهم إن الساعة تجمدت في ليلة من ليالي الشتاء الرطبة، شك مرارا في أن تكون رسما بارزا أن تكون تمثالا لساعة علي أحسن الفروض، قالت أمه في إشفاق شك فيه أيضا:

– كنت تهذي طوال الليل ولم أفهم من كلامك شيئا، اغسل وجهك بالماء والصابون واذهب إلى عملك مبكرا، واحرص أن تمشي جنب الحيطان حتى لا تدهمك سيارة.

يضيق بها أحيانا لأنها لا تفهمه، وأصبح يحس بسخف الحوار وعدم جدواه معها، لكنه يسلم بينه وبين نفسه أنها تكشف داخله وتعريه تماما في بعض الحالات رغم اعتراضه علي التسليم لها بذلك، عنادا أو قلة تربية ربما، وسأل نفسه عن السر وراء خشيته من السيارات وتحاشيها حتى ولو كانت بعيدة عنه تماما، أصبح يشعر بالهلع كلما سمع صوت واحدة، يتسرب الخوف إلى داخله، يتحرك برعونة وفزع حتى يتأكد أنها مرت بسلام وأنها لم تتوقف إلى جواره أو تدك جدار منزله، عندما كان صبيا كان جريئا بشكل ملفت لأنظار كل من يحيطون به، كان يحرض صبية القرية الصغيرة علي ممارسة لعبته العجيبة، يلملمون الحصي ويتبعونه عندما يقذف أي السيارات بحصوة، تنهال الأصابع الصغيرة في عملية القذف المتواصل، ربما يتهشم زجاج السيارة أو يصاب راكبها بجرح قبل أن يفر الجميع إلى كل الأنحاء في لمح البصر، كان يتواري تماما بين أعواد الذرة أو يغطس في

حقل قمح أو حتى برسيم، ينظر أصحاب السيارات المساكين إلى الصبية الأشقياء الذين فروا، يتأكد لهم عجزهم في الوصول إليهم فيحسبون الخسائر ويربطون الجروح علي عجل ثم يتابعون السير في سرعة مجنونة مخافة أن تتكرر اللعبة، عندما تكررت حملات الأطفال بزعامته علي سيارات الخلق أمسك به وربطه بحبل مخافة أن يفر وظل يضربه حتى أفقده القدرة علي الصراخ، وقالوا في الدار إنه كان ولدا عنيدا وشريرا إضافة إلى كونه ولداً عاقاً، سأل جده لأبيه مرة عن شئ كان في يده فجاوبه الجد في بساطة وتودد:

- هذه برتقالة.. خذها إن أردت.

نظر إلى وجه جده ويده الممدودة في ارتياب، قال لنفسه:

- ليست كل الأشياء المستديرة برتقالا.

تصادف أن وصل الأب في نفس اللحظة فسأله عن الشيء المستدير في كف جده الممدود فقال الأب في صرامة العارف:

- هذه ليمونة حلوة.. خذها إن أردت.

أشاح بوجهه عن أبيه وقال لنفسه:

- ليست كل الأشياء المستديرة ليمونا حلوا.

قالوا عنه في عدة مناسبات " ولد معتوه " وقال هو عنهم بلا مواربة إنهم بلا عقول، ولأنه كان معتوها بحساباتهم فقد أخرجهم من دماغه وألقي بهم في الفراغ، لفظهم كبقايا فكرة ولم يفكر في استعادتهم بشرا يأنس إليهم، لاذ بصمت القبور عاما فلم يتكلم، وتساءل بينه وبين نفسه عن جدوي الكلمات الصدئة والحمم الخارج من صدر الكائن الحي في رهبة، وعيون تفضحها النظرات الغرقى في دوامات الهم، وبين العجز الممتد اللحظات،

يتوه في منحنيات المتاهات الأخطبوطية، يفكر في سحب روحه من دوائر الموت فتشده الأرض إليها شدا فيغوص مرات في دوامات القهر، تحوطه وتغمره وتتسرب إلى حدقات العينين وسراديب الأذنين وتسد الفم.

عندما هزه العجوز المحني ليتكلم رماه بنظرة عدوانية، ابتسم العجوز فلفظ ابتسامته وأشاح عنه، كان وجهه معفرا بفعل ذرات الرمال الدقيقة التي حملتها رياح الخماسين تبشيرا بربيع المدينة، سأل نفسه عن جدوي أن يغسل وجهه كل يوم بالماء والصابون بحسب وصاياها؟ ولم يكن لديه غير ضحكة توشك علي الانفلات فحاصرها وسد فمه، ثم أغلق عينيه حتى لا يري وجه العجوز المحني وتشاغل بهز الرأس في آلية حتى لا يسمع الصوت، تشابكت نكاية فيه الأصوات بفعل الزحام حتى أصبح من السهل عليه ألا يميز صوتا بعينه، أعلن محصل الترام عن محطة وصوله لكنه لم يكن راغبا في السماع، وظل الترام يمضي ويمضي دون أدني اهتمام منه، وعندما سأله المحصل عن ثمن تذكرته الجديدة دفع دون أدني اعتراض ، كان الترام يدور ويرجع إلي نقطة البداية ليبدأ مشوارا جديدا ولا جديد، نفس الآذان المزحومة بالضجيج والصراخ المتشابك ولسانه ملتصق تماما بسقف حلقه محاذرا من السقوط والاحتجاج:

– امنحني فرصة مجانية يا سيادة المحصل، فلم تعد لدي قروش للدفع.

ويرفض المحصل بمثل ما رفض في صباح نفس اليوم السماح لامرأة ريفية مرتبكة وتائهة، ينزل في منطقة مجهولة الهوية:

– دلني علي الطريق يا رفيق.

ويسكت الرفيق فلا يفكر في إجابة:

- نمارسها علي أمل الخلاص منها بالموت في تلك الأيام.

تتوه الكلمات فلا يسمعها أحد:

- انحرف يا سائق الترام عن خط سيرك المتكرر الذي يعيدنا في كل مرة إلى نفس نقطة البداية.

ولم يكن يعرف إن كانوا يسألونه أو يسألون سائق الترام لأنه لم يتكلم ولأن الترام ظل يدور ويدور، كان هو لا يزال مشغولا بتحاشي السيارات العابرة، المتباطئ منها والمتعجل، يتقدم بالقدمين ويتراجع يستخدم الذراعين درع وقاية، ويعاوده إحساسه بأن الصور والبنايات مقلوبة، كأن المدينة صليبه الممتد، عيون الخلق فيها تثير فيه خليطا من الرثاء والتقزز، يري العينين اللتين تساقطت رموشهما فيشعر بالرثاء ممزوجا بالرغبة في الفرار، يري عيني الفتاة الحبيستين خلف جدار وهمي مذعورة بلا أسباب وحالة بلحظة المعاكسة رغم وجود خاتم الخطوبة في يدها اليمني، يتخيل أنها متمردة هي الأخرى وحالة ببشارة التكوين ولحظة المخاض، يتذكر أمه التي تدعي بمناسبة وبغير مناسبة أنها عاقر رغم وجوده بدنا متجسدا وكأنها تنفي أمومتها له، وتخيل الفتاة المتجاسرة لو أنها سيرته في مدارها ولفت حوله حبالها إلى الحد الذي يجعلهم يتلصصون عليه بينما يمارس الحب معها، ومن يدري، ربما رجموه حتى الموت بسبب نزوة لم يسع إليها، مالت البنت بدلال عليه تسأله:

- لعلك خواف.

قال لنفسه وهو يتباعد عنها كلما التصقت به " لست خائفا إلا من العيون المقتحمة المتآمرة ".

وقال لها أيضا:

- لست خائفا إلا من لحظة الابتعاد عنك قهرا يا بنية، لست خائفا إلا من لحظة الخوف منك، وعندما تتأكد لي إمكانيات الخروج بك من وسط الزحام الذي يحاصرنا ويحصرنا فلن أتردد.

كان يتحسس بنظراته الشباك المنصوبة حوله، ولم يكن يدري إن كان ذلك بتدبير مسبق أو أن الأمر محض مصادفات تجري بعفوية وارتجالا، كانت في دماغه مشاعر متباينة، وكانت البنت تبدو له منكسرة ومهمومة وربما تعسة، " لا بد أنهم فرضوه عليها فرضا أو باعوها بثمن بخس ".

كان يسبل عينيه إشفاقا عليها أو إشفاقا علي نفسه وقد ابتلع الطعم بحساباتهم، يتأكد له أن اللسان لا يزال ملتصقا بسقف الحلق، فلا كلمات، وما جدوي الكلمات والعيون تنضح الحزن والشوق والأسي؟

تتداخل اللحظات وتتميع تماما فلا زمان، والخوف يا بنية هو اللغة الوحيدة التي يتبادلها أمثالنا ممن يبحثون عن لحظة الحب الممنوع، وخوفها في داخلها بحساباته وكان خوفه في داخله أيضا، في السابق كان جريئا أكثر، كان يستطيع أن يقول أن كل الأشياء المستديرة ليست برتقالا ولا ليمونا، ربما كانت البنت تحلم بطفل أسمر مثله وهو العاجز عن امتلاك المأوي في تلك المدينة المتجهمة والممزقة أيضا رغم الأضواء الكاذبة في صلب المدينة.

كان يؤكد لنفسه في كل صباح أن أباه أصابه العقم بعد أن ألقي بذرته في جوف أمه أو أنها هي التي أصابها العقم بعد أن لفظته من بطنها ليواجه سخافات العالم وحده، ومن بعدها عاش الرجل ليؤكد للكل مقدرته علي إنجاب المزيد، وبينما تؤكد هي معكوس أقواله لكل الناس بينما تسر له بينها وبينه أنها مصابة بالعجز الفعلي عن الحمل والخلفة قبل سن اليأس

التي وصلت إليها منذ سنوات وكان يحتار في أمرهما وأمر نفسه ولا يصدقهما أبدا، وفي مساء الأمس تقيأ رغيفا كان يسكن إحساسه بالجوع وكان العجوز منتوف الرموش لا يزال يرقبه من بعد والبنت تقترب منه وتزداد به التصاقا، عيناها تحلمان بلحظة الأخذ الحرام، وكان الرجل الوقور يقف علي الرصيف المقابل متواريا خلف الصحيفة المفرودة ويمط بوزه شبرا ليعلن استهجانه، وأفلتت علي الرغم منه مقدمات ضحكة مدوية متواصلة وكأنها مقدمات بركان يغلي من الداخل ويمور ويبحث عن أرضية هشة ينفذ منها ويخرج حمما مصهورا صاخبا ، والمعايير تختلط والمتاهة تحوطه من كل جانب، مثل الغريب في حفلة بلا دعوة.

●●●

لم يلتفت أى من الحاضرين إلي الرجل متوسط العمر والطول بغير النظرة العابرة وهو يعبر داخلا وسط الزحام، كانت قاعة الفندق الكبير مزحومة بالمدعوين والمدعوات وقد تأنقوا جميعا فوق مقاعدهم المصفوفة بنظام، أو هؤلاء الذين كونوا مجموعات في الأركان يتضاحكون ويتعارفون ويتطوعون بتوصيل الوافدين الجدد إلي أماكنهم، كانت الراقصة الهاوية بارعة في تحريك كل جزء من أجزاء جسمها الممتلئ بانتظام، وكانت الأصوات المشجعة تتعالي من الأركان بعفوية من وقت الي آخر حتي أكملت رقصتها، وعندما أعلنوا عن الراقصة المشهورة اعتدل الرجال في كراسيهم وتحفزت النسوة وهلل الشباب والأطفال، كانت الكاميرات تلتقط الصور والكل متأهب ليحسن مظهره قدر المستطاع، وعندما دخلت الراقصة المحترفة ببدلة رقصها قليلة الاحتشام هلل الجميع استحسانا، ونسي الكبار وقار أعمارهم ومراكزهم المرموقة. كانت الراقصة تتحرك بحرفية ودلع

وتميل بصدرها علي كل من يصادفها عابرا أو جالسا، فيتزايد التهليل وتنطلق التعليقات كأنما كانت هناك رغبة تحتية غامضة ومندفعة بعد طول كبت لمعايشة الفرح لاجتلاب المزيد من النشوة إلي الحد الذي جعل البعض يقومون تباعا ويتراقصون حول أنفسهم أولا ثم يشكلون دائرة حول الراقصة التي جاءتها فرصة التألق وسط بؤرة إعجاب، فكانت الصاجات ترن متوافقة مع إيقاعات الطبلة، وصوت المطرب المبحوح لا يكاد يبين وسط الصخب والجلبة، كانت العلب الورقية الملفوفة بأشرطة لامعة من ورق مقوي والمحمولة علي عربتين يدفعهما عاملان من عمال الفندق تتوزع علي الجالسين أو تنحط علي المقاعد الخالية مع زجاجات المياه الغازية ناقصة التبريد، الأطفال وحدهم كانوا يفكون أربطة العلب ويستكشفون بعض محتوياتها من ساندوتشات الهامبورجر والجبن الرومي والبسطرمة، يأكل كل منهم ما يشتهيه ثم يتناول جرعة من زجاجة المياه الغازية دون أن يهتموا مثل الكبار بمتابعة الراقصة التي ظلت تتلوي والعرق ينضح علي جبينها وعنقها وصدرها، ثم يتساقط نقاطا علي الأرضية المفروشة بالموكيت الأخضر، ولابد أن الراقصة كانت قد شعرت بالتعب قبل أن تتوقف بمدة طويلة لكنها لم تفعل، ربما لأن البرنامج كان يعتمد عليها بشكل أساسي، وعندما كفت عن الرقص نالت ما يزيد عن حقها في التشجيع والتصفيق والتهليل، وعندما عاد الرجال ألقوا بعض نظرات الاستطلاع علي محتويات العلب، البعض منهم لم تعجبه الوجبة والبعض الآخر شرع في ملء فراغ معدته بمحتوياتها أو بعضها تاركا ما يتبقي ملفوفا ومركونا علي المقعد الخالي.

كان الرجل متوسط العمر والطول يأكل محتويات علبة وجدها ملفوفة

ووحيدة علي مقعد أمامه، وبعد أن فرغ منها جالت عيناه حوله وخلفه حتي وقعت عيناه علي علبة أخري نصف ملفوفة، وكان إلي جوارها زجاجة مياه غازية شبه ممتلئة، فغير الرجل مكانه وجلس في مقعد خال ثم تناول العلبة وفتحها وجعل يلتهم محتوياتها ويلعق بلسانه شفتيه مثل قط جائع، يتناول جرعة من زجاجة المياه الغازية ثم يعاود التجوال بنظراته ليكتشف البقايا، ينتقل في خفة ويستكشف محتويات العلب المفتوحة ونصف المفتوحة بنهم، لا بد أنه كان يسد فراغا كان يكابده في معدته، وبجسارة أكثر شرع يتناول أنصاف زجاجات المياه الغازية المهملة، تكرع أكثر من مرة ثم استشعر الشبع فتنهد ارتياحا، ووقعت عيناه علي علبتين مربوطتين فنقل نفسه متسرعا إلي مقعد آخر يجاورهما، تجاسر فمد يدَه وتناولهما وحاطهما بيديه علي صدره، وانبعث من عينيه المطفأتين الخابيتين بريق غبطة وارتياح، ابتلع ريقه وتنهد ثم قام من مكانه، أعطي ظهره للقاعة وتوجه ناحية بابها ولم يتردد في تناول علبة أخري ملفوفة ضمها إلي صدره بجوار العلبتين، ولا بد أنه كان يستشعر الدفء عندما تلقي في طريق الخروج إيماءة توديع من شخصين لا يعرف هويتهما عند باب القاعة، ورد عليهما بإيماءة شكر وعرفان، كان يتباعد عن الصخب والجلبة والأضواء في طريقه إلي السلم نازلا، ولا بد أنه لم يسمع الشابين يتجادلان في هويته وإن كان من المدعوين التابعين للعريس أو العروس وقد أنكر كل منهما بنفس الحماس سابق معرفتهما له أو حتي رؤيته.

●●●

في أول الأمر تبدي لي أن الصحو والمنام يتداخلان علي نحو مربك، صرت أتخيل أطيافهم وأبدانهم بتفاصيلها وهي تتحرك بالتتابع خلفي أو

بجواري، وأنني سمعت صوتا لأي واحد منهم يأتيني من خلفي او من أمامي أو عن يميني أو عن يساري وأنني سارعت بالرد بصوت مسموع علي سؤاله أو رأيه في موضوع يشغلني أو يشغله، ويتأكد لي أنني طرحت السؤال علي نفسي وجاوبته موهوما لأن أحدا منهم لم يتواجد خلفي أو إلي جواري، الغريب أن الأمر تكرر في أوقات متتابعة أو متباعدة، وأنهم كانوا يتابعون ما كان يجري لي علي مهل في الخفاء قبل أن يعلنوا اكتشافاتهم، وربما جاوبت سؤالا طرحه أي واحد منهم بحساباتي كان يتطلب ردا مسنودا علي معرفتي لأي تفاصيل فيصدر صوتي بتوهماتي وأرد بصوتي الذي أسمعه وأستغرب بيني وبين روحي لأن أحدا لم يعلق علي ما قلته، أتلفت ورائي ويميني أو شمالي، وأكتشف أن الفراغ يحوطني من كل جانب، وأدرك أن ردي علي السؤال كان مخزونا ينفلت في البراح لأنني لم أنطق به، أحاور نفسي " كيف قبلت أن أؤجل الرد علي سؤالها أو سؤاله كل هذا الوقت؟ " ومتعاطفا مع نفسي لأنني تحاملت عليها وأنا أداري ما يمكن أن يقال عنه انه انتقادات لشكل العلاقة بيني وبينهم، وربما أشفقت علي حالي بعد أن تحولت إلي هامش مركون ومعزول بإختياره بحساباتهم أو بإختيارهم بحساباتي، وتتداخل الصور في خيالي، فأعاود تذكير نفسي أنهم عيالي وأنني لن أهون عليهم علي أية حال، وربما ألوم نفسي بيني وبين نفسي، أو أتشاغل بأي شئ يستهلك الوقت، وفي البدايات كنت أتوهم أنني متعجل بطبعي، وأنه من غير المعقول أن أرد عليهم، ويتبدي لي أنني أسمع أنفاس من وجهت إليه السؤال، فألتفت إلي مصدر الصوت الوهمي ولا أراه، أشكر المولي عز وجل لأنه لم يكشف ستري أمامهم، اعتب علي روحي وأنبهها لكي تتحقق من وجود أو عدم وجود من وجهت إليه كلامي وجعلني

أراه لأتاكد أنه بالفعل يقف أو يجلس خلفي فألقي عليه سؤالا بصوتي وأنتظر منه الرد، لكن الصمت يربكني ويحيرني، ألتفت عازما علي لوم من وقف ورائي أو جلس خلفي وجعلني أتوهم وجوده وتتبدل الصورة ويتبدي لي أنني في غفوة أو نصف صحوة ما بين البداية التي ارتسمت في خيالي والحقيقة المتباعدة.

أخفيت عن نفسي ما كنت قد تيقنت من حدوثه علي نحو متكرر، ربما كنت أفسر الأمر لنفسي علي أنه نوع من الخلط بين الصحو والغفلة الخاطفة بسبب عدم انتظام ساعات رقادي علي نحو لا يتناسب أو يليق بشيخوختي المبكرة والتي بلغتها منذ سنوات كما أدعي، فيضحكون مجاملة أو شفقة أو حتي شماتة ساكتة، يضحكون ويعابثونني بمجاملات أكثر قبل أن يسألني أي واحد ممن استمع لكلام قلته أو بحت به كان محض خيالات تتبدي لي، أو أنها مداعبات لإزجاء الوقت أو بهدف التخفيف عنهم وأعاود ذكر ما جري لي بكل تفاصيله، متشكيا لهم وربما لروحي علي نحو غامض يحيرني بكل حسابات من يتعاملون معي من الأهل والجيران يضحكون ويتفحصون الثياب التي أتستر بها كأنها ممزقة كأنها تعري من ابتلاه الزمن المطوط وكأنني صرت مصابا بحمي غريبة عبثا، فأوبخ روحي أو أعتب عليها منفعلا وواعيا أنهم لن يستمعوا لشكاياتي بتعاطف ممزوج بالحياء أبدا، ويتأكد لي أنها سراب رغم ثقتي في تعاطفها الممزوج بالخجل، وأراجع نفسي في ذات الوقت لائما نفسي لأنني تخيلت أنه من الممكن أن تظهر عليها علامات واضحة مثل حمرة الخجل، أسأل روحي إن كانت لها تقاطيع وملامح تكشف هويتها أو تجسدها أو تصورها، ومن الممكن أن تكون للروح ملامح أو تقاطيع تتأثر بالخجل إلي حد أن تصاب بحمرة الخجل علي تقاطيعها

المتخيلة.

●●●

هأنذا أجلس القرفصاء منذ آلاف السنين كما تعرف أنت ويعرف الغرباء، قانعا بالقليل وأقل من القليل ومؤمنا بدوري في تسجيل بعض ما أشهده وأعترض عليه أو أتقبله، لكنني كلفت نفسي بأن أكون صادقا مع نفسي أولا، ربما طموح مشروع لأن أواصل وأنجح فى التواصل مع من يعيشون زمني، أو الآتين في مستقبل السنوات، سنوات سوف تأتي رغما عن إرادتك وإرادتي بعد أن ينتهي زمنك وزمني، عجافا مثل زمان عشناه كرعايا وحكماء يجلسون القرفصاء ويقتاتون من مردود كتاباتهم للبرديات بحسب الأحوال بلا تقنين أو تحديد لتكاليف صياغة الصفحات ومردودها الهزيل مقارنة بأثمانها، ولأن المسألة أرزاق محسوبة في أدمغة مهيمنين من أهل الثقة الأوفياء لأوهامهم ومطامعهم، وبإراداتهم يمنحون أو يمنعون، يزودون أو ينقصون المردود الذي يتيح للكائن الحي من أمثالي أن يعيش، ربما لأنهم أحيانا لا يستحون وربما يبرعون في البخل ليكون الفائض من أنصبتهم المهربة المسربة إلي خارج الحدود، وعندما تنكشف الأمور أو يتزايد اللّغط حول أي واحد منهم بواسطة أي واحد منهم أو أحد أعوانه، يزيحونه علنا ويأتون بآخر له نفس المطامح أو المطامع، فيكيدون ويرتبون ويزيحون ويسقطون من يجلسون علي المقاعد الدوّارة، ركلا لأعلي أو نفيا وحبسا في غياهب سجون وهمية تتحول أحيانا لمنتجعات للترفيه أو للراحة والتقاط الأنفاس، يطلعون من تحت الأرض أو يقفزون بمظلات غير مرئية، يسجدون أولا علي أبواب الخدم وعمال المطابخ وأنصاف الكتبة المأجورين القابعين في الأركان، عن يمينك أو يسارك يتواجدون ويجعجعون بلا يقين، ومن جديد يحاولون أن يتأكد لك بعد الطنطنات، أنك ارتحت وبدّلت وغيرت وصار

الزمن الذي نعيشه معا هو أفضل الأزمان، تتعايش مع أوهامك مثلما أعايشها واثقا أننا نعيش ويحق لنا أن نتباهي ونشعر بالزهو معاً أو بمفردك لأنك عندما تشير بإصبعك يستجاب لك علي الفور في غالب الأحوال، لأنك في واقع الأمر سيدهم وولي نعمتهم وقاهر الهكسوس، وأنا ما زلت كاتبك الجالس القرفصاء، الساكت لا ينطق لأنهم يلوحون لي بإشارات لا تحتاج إلي مترجم من إحدي اللغات السامية التي يعشقونها، غير لغتنا التي تعلمناها معاً في بدايات العمر، وحاولنا أن نظل لها أوفياء.

ولأنني قرأت معك وعنك وتأملتك من بعيد أو من قريب، ورأيتك باسما ببراءة أو راغبا بالفطرة في بعض الأحيان في العطاء، قلت لك بين السطور المسطورة أن الحياة كانت ميسورة أكثر وممكنة أكثر، في سنوات لم أجربها في غير البرديات المكتوبة علي امتداد العصور، لأني من خلالها تعرفت أو حاولت أن أتفهم بعض ما كان يجري في تلك الأزمنة، لعل ولعي بالتاريخ المكتوب المروي علي ألسنة الناس، كان زادي وزوّادي ودافعي لأن أقول لك أو أسجل، وأن أتحامل أيضا علي نفسي فأضنيها بلا مقابل، متعاليا كمالك لم يمتلك في زمنك الذي هو زمني ما يمكنه من العيش في مستوي الكتبة المأجورين من أنصاف الأنصاف، وقد زين أتباعهم صدورهم بأوسمة ونياشين ووشاحات براقة وأردية تلفت إليهم الأنظار، متعفّفا وأنا العارف أنني كيان قابل للفناء بالجوع الفعلي، لكنه يرفض بعناد فلاح أصيل مثلك، أن ينحني طلبا للزاد المجاني أو الزوّاد من أنصاف المانحين غيرك، ويا من عايشتك نصف عمري، هو مشوار محسوب بالإرادة الخالصة وبكل ما خطته أقلامي بإخلاص وكان لها حظ البقاء في ذاكرة شرفاء تعايشت معهم وعشت زمانهم كما عايشوني وأنا أجدّف بمجداف لا يكّل ولا يتكاسل،

ويواصل ويواصل، قانعا بأن هذا هو دوري في تلك الحياة، ربما لقناعة ثابتة أن الفناء آت لي ولك ولكل أتباعك المرضي عنهم لأسباب أعرفها وتعرفها أنت، ويتقوّل بها كل من يتفكّرون من شرفاء وبسطاء أهل هذا البلد، في المدن المزحومة التي يشتري ناسها قوت يوم بيوم، ويتباكون لأن ثمن لقمة العيش صار عسير المنال، أو أولاد الفلاحين الساكنين للقري، التي لم يسمع أعوانك عن أسمائها إلا في صفحات الحوادث أحيانا رغم أنها تنتمي لزمن الفراعين، أو عندما يرتحل البعض منهم فرارا متباعدا إلي بلاد غير بلادك فيغطسون في دوامات بحار بعيدة، ويأتوننا أبدانا غير مكفنة كما اعتدنا لندفنهم في مقابرنا ونتباكي علي الأطلال، أو لا يأتون علي الإطلاق، وتكبس ذكري ضياعهم بقسوة علي قلوب أهاليهم ونسائهم وخلفتهم ممن اكتووا بالنار شوقا لإطلالة أخيرة علي بقايا الأبدان التي التهمتها خنازير البحر، أو قروشه أو حيتانه أو تماسيحه أو الأسماك الصغيرة، أو ماتوا بالقتل غرباء في بلاد تشبه بلادنا ولها تاريخ داسته نعال الوافدين الغرباء الكارهين لكل من سبقوهم في الوعي بمفردات الحياة، يتمني أمثالي أن يتاح لك حق تكليف عمال التحنيط ليقوموا بواجبهم في استخلاص ما تبقي منهم أو استخراج ما ابتلعته الفجائع أو ابتلعتها تلك الوحوش، وأقولها لك سائلا وراغبا في ردك، ماذا لو أنشأنا مصنعا للنسيج الذي يصلح فقط لتكفين الأبدان بعد تحنيطها؟ فلعل قلبينا الموجوعين يرتاحان ويطمئنان علي بدنينا في نهاية زماننا معا وهي بالقطع قريبة، تليق بك كرفيق عمر، وتليق بي كجالس القرفصاء في زماننا المشترك.

فهل أخطأ أمثالي ممن حاولوا الإسهام في حل مشكلات الحياة اليومية المفروضة علينا في هذا الزمان ليكونوا مبعدين رغما عنهم؟ ومتباعدين

بإراداتهم؟ ولأنهم لم يفكروا في الخروج من تلك الدوائر المحكمة التي تحيطهم من كل النواحي، فيندبون ويلطمون الخدود فوق أوراق البردي، حالمين بأن تصل الآهات إلي مسامعكم يا من تتفهمون مفردات هذه اللغة التي ما زلنا نكتب بها حواديتنا عنكم؟ وكانت الدعوات للخروج من حدود الوطن سعيا وراء الرزق بعيدة تماما عن أذهاننا، بل يمكن أن نقول معا إنها كانت شططا مخبولا، في زمن النهر العظيم الذي فاض علينا وعليهم واحتواهم ووظّفهم وظل يجود بلا كلل لآلاف السنين، لنعيش ويعيشوا علي ضفافه هانئين بالخير العميم، وعندما تبدّل الزمان ضاقت الأرض بأهلها وطردتهم، لأن بعض من عاشوا في جنبات القري من أقراننا صاروا يتسكعون ويقبلون العمل يوما والبطالة أياما ويكابدون، وحكام الأقاليم يمرحون بزهو الجهلة في الأبعاديات التي منحت لأتباعهم قبل زمانك وزماني بصكوك مزورة دون علمي وعلمك في زمنك أو أزمنة سبقت زمنك، حتي من أضنتهم الأمراض لسنوات وسنوات، وبرغم السعي عجزوا عن تدبير أثمان الأدوية ليصبح الشفاء من أمراض متفشية مستحيلا، إلا علي من صاروا يملكون بغير حق أو من يتسولون بعرق جباههم من غرباء وافدين وقادرين علي التحكم في الأرزاق.

كثيرة هي تلك المثالب والمزايا التي يستطيع أن يحصيها كل من انشغلوا بالتدوين والتسجيل والكتابة، أو وهبوا أعمارهم ليصنعوا رسوما وصورا تعرض الوقائع بلا تجميل أو تشويه متعمد أو مخطط سلفا، ربما لأن بعض الكتبة من هؤلاء الذين كانوا يجمّلون الصور في بعض الأزمنة، تملّقا مفضوحا أو يشوّهونها بترتيبات وحسابات للغرباء أو الأعداء ليدفعوا أو يجبروا بعض الأعوان علي الدفع لهم، وهؤلاء في زمنك وزمني نالوا وكلانا

في غفلة، بأشكال مباشرة أو غير مباشرة أثمان التجميل الزائف، وأثمان التشويهات الضاغطة لنيل أثمان السكوت، وحتي لا يصبح المسكوت عنه شائعا، ويصير الواقع المعاش ضائعا، إلا من بعض جسارات توصف في أوساط كتبة مأجورين، بأنها حماقات وقلة وعي بلا طائل، ويتجمد من يجلس القرفصاء مثلي ساكنا في جزء ضيق محدود، في حيز خانق لا تدخله شمس الله التي وهبها لهذا الوطن، في أرضية بناية تعالت أدوارها مشاركا عند نفس المستوي حارسين لعقارين متعاكسين وملتصقين علي نحو هندسي غريب، وعياله تتأمل رفوف المكتبات وتقلّب الصفحات التي خطّها خلال تلك السنوات، التي اشتراها الأب من حر ماله أيام كان يستطيع الشراء وهو يجلس القرفصاء قبل هذا الزمان من قوته، قبل أن يحرمهم من قوتهم المطلوب أو ثيابهم التي تليق بهم بعدما شرفوا دنياه القاسية، ليقاسوا بلا ذنب إلا إنهم خلفة لجالس القرفصاء المتودد بوفاء لا يليق ولا يحتمل، ويمر الزمان ولا يزال برغم أنه أوشك علي بلوغ مطالع الثمانينات من عمره التعيس، موجوعا بوطنه معترضا علي الخروج منه سعيا وراء رزق خارج حدوده الموروثة مثلما فعل غيره، لم يشأ أن يتفرنج بين من تفرنجوا مع أهل الشمال، أو يؤجر قلمه لحساب من لم تتيسر لهم الكتابة في السابق لأنهم لم يتمكنوا من زراعة البرديات علي شواطيء البحار المالحة أو الأرض القاحلة، وقد يفلح عقله في تذكر ورواية الأحداث مثلما يفعل جيراننا وشركاؤنا في الدم والهّم والكرب العظيم، ومستباحة أراضيهم مثل من عاشوا علي ضفاف نهرين، ولما يفلحا في الدفاع عنهما عندما أتت جحافل البرابرة من المغول والتتر المحدثين، يجتاحون كل شيء قد يوحي بما فات من آثار وتواريخ مسطورة ومخطوطة بمسامير قديمة من صنع أجداد أقوياء لهؤلاء

الذين صارت بلادهم مستباحة في زمن السكوت، ولأن السيوف أصابها الصدأ منذ باتت في مغامدها دونما حراك، جزء من المسألة حكمة بليدة لتستمر الحياة وجزء منها حياء أو خجلا موروثا، وقد صارت كل المربعات معزولة عن بعضها البعض وكل من يتباعد أكثر، يتوهم أنه اطمأن علي مستقبل عياله وماله ما دام بارعا في التباعد، ومتجاهلا دلالة تلك المواجهات التي تبدو فردية، بينما الجماعات تغط في النوم الثقيل وفي الأحلام والأوهام، تتوالي الطنطنات بإحتمالات أن تنحل قضاياهم المعلقة، أو أن يرتدي أتباع البرارة الجدد ثياب حكماء مشكوك في نسيجها المستورد قطعا من منتجات الأعداء.

لكن حكايتي معك لم تنته بعد، ربما لأنني سوف أبقي سادرا في أوهامي وراغبا في أن تتحقق أحلامي المستحيلة، لأنك سوف تقوم من رقدتك وتنفض عنك أتربة الزمان الذي فات كله، وتقطع كل ما يحيط بك من تيل أو كتان أبيض ثم تعود إليك الروح فتتحرك مؤكدا صدق ما قيل لك في الزمن السابق، أنك لم تمت وأنك بعد التحنيط قمت وطاوعتني مثلما طاوعتك طوال عمري، فأمسكت بسيفك لتدافع عني وعنك وعنهم ضد البرابرة المحدثين بسيفك وفكرك وأنت تلاعب الجهاز شوط شطرنج دون تدبير مسبق، وسأحكي لك الحكاية.

●●●

كنت ألاعب الجهاز أول دور شطرنج وأشعر أنه يتباطأ بعد خسارة أية قطعة، يتباطأ حتى يشعرني بالملل، لأنني كنت في السابق قد لاعبت العشرات ممن يتباطئون في اللعب، لكنني كنت أملك الحق في استعجالهم أو الاستشهاد بمن يتفرجون كي يشجعوه أو يحرضوه علي اللعب أو حتى

يسخروا منه، وكنت في كل الحالات أخرج من المأزق بفضل تلك اللغة المشتركة التي يتبادلها البشر ممن يتفرجون أو يلعبون أو سوف يلعبون، لكنه في حالة الشطرنج لم تكن هناك لغة ولا خواطر ولا خجل ولا أحاسيس، كنت أواصل اللعب معه متحاملا علي نفسي وقائلا لها في نفس الوقت إنها مجرد لعبة بين مئات اللعبات التي يمكن تشغيلها علي نفس الجهاز، سباقات سيارات ودراجات بخارية في طرق وجبال وعرة وغابات ومباريات مصارعة حرة ودورات كروية وعبور غابات فيها وحوش ضارية وحيّات وصعود جبال أو الغوص في محيطات ودخول متاهات وتخطي حواجز مستحيلة، عشرات ومئات من الألعاب انشغل بها عيالي بمثل ما انشغل بها أصحابهم وجيرانهم، كأنها منافسات رياضية حقيقية أو مغامرات بشرية أو مباريات فعلية بينما كنت أراها محض ألاعيب لإزجاء الوقت ولم أكن متحمسا لمعرفة قوانينها بمثل ما كانوا يتحمسون، ربما لأنها كانت بحساباتي لا تحتاج إلى ذكاء بقدر ما تحتاج إلى ذاكرة تحفظ الشفرة الخاصة بكل لعبة وأصابع مدربة علي الحركة فوق المفاتيح بخفة لا أملكها، ولا بد أن العيال جاملوني بإضافة لعبة الشطرنج التي سمعوا مني في السابق كلاما كثيرا يؤكد عشقي لها وبراعتي في تحريك القطع لأحاصر ملك الخصوم أو أحسن الدفاع عن مليكي.

كانوا يتأملونني ويتبادلون النظرات وكأنني كائن من كوكب آخر يضيع وقته الثمين بحسب ما كانوا يقولون في لعبة وحيدة بينما هناك في الدنيا مئات الألعاب المتاحة علي الجهاز الذي امتلكوه بعد إلحاح شديد لأشتريه لهم مؤكدين أنه وسيلة معاصرة يلزم أن تدخل كل بيت لتخرين المعلومات وحفظ الوثائق المكتوبة إضافة إلى إمكانياته غير المحدودة في الاتصالات

وتبادل المعلومات مع كل الناس في أركان الكرة الأرضية، لم أكن أعترض علي شئ مما يقولون لانني كنت قد قرأت عن الجهاز وسمعت من الأصدقاء الذين أدخلوه بيوتهم كثيرا من الحكايات التي تؤكد أهميته في زمن العولمة وقد تحولت الكرة الأرضية بفضله إلى قرية صغيرة بحسب ما كانوا يؤكدون، لكنهم كانوا يضيفون أنه يتطلب بعض الحذر من أضراره ومخاطره ما لم يستخدم بوعي، كنت أجاريهم وأنتوي شراء الجهاز في أول فرصة أمتلك فيها ثمنه، وقد حدث أن حصلت علي مكافأة لم أكن أتوقعها فقلت لروحي " هو رزق العيال وقد بعثه الرزاق العليم من حيث لا تحتسب فاشتر الجهاز يا ولد ".

كنت أراهم يتناوبون الجلوس أمام الجهاز وقد حضروا دورات متكررة دفعت تكاليفها بحسب ما كانوا يرغبون دون أي تردد، لعلني لم أنشغل به في البداية، لكنهم دفعوني لأن أتأملهم وهم يتبادلون الخبرات ويتجادلون بخفة، وعندما أضافوا لعبتي المفضلة لجهازهم طالبوني بأن ألاعبه فلعلني أكسب وأثبت لنفسي ولهم أنني لم أنس خبراتي السابقة، قررت أن أدخل المغامرة،لكنني لاحظت أنه كلما خسر الجهاز قطعة تباطأ في اللعب، لكنه لم يكن هناك بديل للصبر والتحامل علي نفسي ومواصلة اللعب، وفي كل المرات التي أوشك علي الفوز عليه لأبرهن لعيالي ولنفسي أنني ما زلت كما كنت لاعب شطرنج عارف بقوانين اللعبة وقادر علي الانتصار، لكن الجهاز كان يكايدني بالقطع لأنه بحساباتي كلما أوشكت علي هزيمته أو كانت هناك نقلتان باقيتان لفوزي فإذا بالصورة تتجمد تماما والقطع التي تخصني لا تطاوعني وتتأبي علي الحركة، كان عيالي يحاولون بكل خبراتهم مع الجهاز تحريك الصورة لكنها كانت تظل ثابتة ثم يظهر مربع فوق قطعة الشطرنج

مكتوب داخله رسالة اعتذار رقيق لأن عطلا مفاجئا أصاب اللعبة وأنه من الممكن بداية دور جديد، أقول لروحي لأواسيها علي الحرمان من نصر مؤكد بعد طول انقطاع عن اللعبة أنها ربما تكون مصادفة غير مدبرة، وأترك الجهاز لعيالي معتذرا عن طول الوقت الذي أجبرني لأضيعه عليهم وعلي نفسي دون نتيجة مؤكدة.

●●●

في الصحو كنت أستعيد خبراتي القديمة في الفوز علي الأصدقاء والمعارف أو من يطلبون ملاعبتي دون سابق تعارف، أيامها كانت لعبة الشطرنج هوايتي الوحيدة، وبمثل ما كنت أصعد كل صباح درجات الطوابق الخمسة الأولي للمبني المجمع الكائن في ميدان التحرير دون انتظار للمصعد لأوقع في خانة الحضور كنت أهبط نفس الدرجات متعجلا علي حريتي دون انتظار للمصعد وأتمشى علي مهل حتى أصل إلى مقهى الحرية، وغالبا ما كنت أسمع عبارات التهليل ترحب بوصولي أو تتوعدني بالهزيمة أو تعاود التحدي أو حتى تعلن الاستسلام قبل ملاعبتي، كنت أشعر بالنشوة وأمتلئ بالثقة في قدرتي علي الفوز عليهم بكل مودة في نهاية الامر، صحيح أن الأمور كانت تتأزم في الدور الأول وأخسره أو أخسر دورين متتابعين فأمضغ مرارة الهزيمة وأحس ببعض الانكسار وأتأسى لأنني لم أحسن الدفاع عن القطع التي خسرتها فانهزمت، لكن شيطاني العنيد كان يركب رأسي ويدفعني دفعا لمواصلة اللعب حتى لو اعتذر من يلاعبني بشتى الأعذار حتى لو تطوع زميل أو صديق بأن يلاعبني بديلا عنه، كنت أرفض وأواصل ركوب رأسي بدعم من شيطاني المارق وأصر علي إجباره ليعاود اللعب دورا جديدا إن كنت قد خسرت دورا واحدا أو دوري إن كنت خسرت دورين.

كان الأمر يبدأ دائما بالرجاء المهذب الذي يدعوه لمواصلة اللعب أو بالترغيب لأنه سوف يكسبني مرة أخري أو مرتين بحسب الحالة فيحصل علي لقب ملك الشطرنج في مقهى الحرية ، وكان الأمر يصل أحيانا إلى مشاحنات بأصوات مرتفعة ومجادلات حول حقي في التعويض بعد الخسارة أو حق الآخر في الاكتفاء والانصراف لشأنه بحسب ظروفه، يتوسط العقلاء من كبار السن من رواد المقهى القدامى ومنهم من فاز بلقب ملك شطرنج مقهى الحرية في الزمن القديم ويعرفون تفاصيل اللعبة ويستشعرون مواجع المهزوم ويرغبون في أن أعوض خسارتي، كأنهم بوقوفهم في صفي ودعم موقفي يعوضون خساراتهم القديمة للّقب.

يتطوع أحدهم برص القطع علي الرقعة ويبرع آخر في إجلاس من كان يبتغي الرحيل سالبا نصره مني سلبا وراغبا في الفرار بحساباتي وحساباتهم، يستسلم خجلا أو إشفاقا أو رغبة في الخلاص من الموقف أو إظهاراً للروح الرياضية السمحة، أشعر بالنشوة وأحزم أمري عازما علي تعويض خسارتي.

نبدأ الدور الجديد وقد تزايد عدد المشاهدين فأشعر بأنني صرت مسئولا أمامهم وأنه يلزم أن أنتصر، أستجمع قدراتي وتواريخ انتصاراتي وأنتوي الفوز عليه علي نحو مباغت يستفزه ويدعوه لمطالبتي بملاعبته دورا جديدا واهما أنه سوف يحسم الأمر لصالحه، لكنه في أغلب الحالات كان يخسر وأستعيد أنا ثقتي بنفسي بعد أن اهتزت بعض الشيء.

يتأكد للجميع أنني قادر علي التعويض والنصر في نهاية الأمر وأنني ألعب الشطرنج بروح مقاتل له ثأر يلزم ألا يفرط فيه مهما كانت المصاعب. ساعتها أشعر بجوع حقيقي رغم شبع الروح بالفوز في النهاية، ووسط تهليل الاستحسان ممن كانوا يشهدون أتسحب من المكان وأتوجه إلى

المطعم المجاور لأتناول وجبة الغداء صحنا من الفول المدمس أو العدس وربما أقراص " الفلافل " وأحيانا كنت أعبر الميدان وأدخل المطعم الفسيح المتخصص في تقديم وجبات من المخ والكبدة المقلية وما زالت ساخنة ومعها سلطات ومخللات فاتحة للشهية المفتوحة. أشعر بالامتلاء وأتمشي علي مهل حتى أصل إلى مسكني الكائن في شارع خيرت قريبا من مقام السيدة زينب.

يبدو أن المدينة أيامها كانت أكثر براحا برغم امتداداتها المؤكدة في كل الاتجاهات وما انضاف إليها من أحياء يسكنها بشر كثار، كنت أستمتع بالسير في أمان، أتأمل البنايات والناس ولافتات الدكاكين والمؤسسات وكلها يشع عبقا إنسانيا ومودة بلا مقابل، كنت في تلك المشاوير أتخيل حركة الناس علي الأرض وكأنها بيادق أو عساكر، أفيال وأحصنة وقلاع أو وزراء وملوك، ولا بد أن كثرة اهتمامي وممارسة لعبة الشطرنج سيطر علي خيالي وجعلني أفكر علي هذا النحو الغامض، وكان الأمر يبدو لي أحيانا وكأنه مقدمات جنون، جنون تقسيم حركات البشر علي النحو الذي يحدث فوق رقعة الشطرنج.

لكن الأمر كان علي نحو ما داعيا للتأمل فالعسكري الشجاع يموت في الحرب غدرا أو عجزا عن الدفاع عن نفسه، لكنه يتقدم للأمام بجسارة وينتصر وربما يترقى إذا أحسن المسئول تدريبه وتسليحه وإفهامه أنه يدافع عن وطن، والوزير الذي يتحرك علي قطعة الشطرنج مطلق الحرية لأية مسافات وفي كل الاتجاهات رغم أنه دمية يتشابه علي نحو متعسف مع بعض الوزراء في كافة أنحاء العالم، تنكتب سيرهم بحسب ما يقدمون لشعوبهم وملوكهم بالسلب أو بالإيجاب، أما ملوك الشطرنج فيتميزون بالوقار في خطواتهم وغالبا ما يحكمون ولا يتحكمون كما يجب أن يكون،

ومثلما يتقافز بعض البشر علي أكتاف الخصوم تفعل الخيل الجامحة التي تركل بسنابكها كل ما يعترضها. كنت أري أيضا بعض البشر الفانين يبرعون في الدوس والدهس والفرم بغلظة فوق الأبدان كأنهم أفيال ملك الحبشة المتوجهة لهدم الكعبة في الزمن القديم فتوقفها الطيور الأبابيل وترميها بحجارة من سجّيل، لكن أفيال هذا الزمان تفلت وتدوس وتدمر وتترك خلفها الخراب والأشلاء دون أن يحاسبها أو يوقفها أحد، أما القلاع والطوابي فهي إما هزيلة سهل تدميرها علي رؤوس حراسها أو شامخة تتأبى علي جحافل الأعداء، تصدها وترسل في أعقاب فلولها المنكسرة فرسانا يلقنونهم آخر درس كي يكفوا عن معاودة الحصار.

دعونا من قوانين اللعبة شبه الشائعة والتي كنت أجيدها في الزمن القديم علي طريقتي الخاصة، انكسار يعقبه صحو وانتصار وكل من يتعايشون معي في نفس المقهى في ذلك الزمان البعيد يعرفون أنه من النادر أن أكسب أول دور رغم براعتي المشهود بها، ربما كنت في داخلي شخصا لا يميل إلى حصار الآخرين أو الاعتداء عليهم أولا، كان البعض منهم يقول في حضوري أو غيابي أنني برغم براعتي التي تتبدّى لهم في نقلي للقطع وبرغم أنني أكسبهم جميعا إلا أنهم كانوا يدركون ويعلنون أنني لو دخلت أية مسابقة رسمية لخرجت من التصفيات الأولي ومن ناحيتي لم أكن أهتم، كنت أرغب في أن أكون لاعبا له نفس طويل، مسالم ولكن بغير استسلام، أرد العدوان وأهزم من يعترضون مساري.

لكن الشطرنج الآلي حيرني في أمره وأمر نفسي، كان في كل الأدوار التي أخسرها حريصا علي تسجيل انتصاره ، ومن ناحيتي كنت أجاهد لاستعادة براعتي القديمة بعد الهزيمة الأولي أو الثانية، أباغته بحركات غير متوقعة وأحاصره بحيث لا يكون له مهرب بعد نقلة أو نقلتين، ساعتها كان

يتباطأ إلى حد الإملال ثم تتوقف حركة الجهاز تماما، لا يطاوعني أو يطاوع عيالي ليتيح لي فرصة الفوز عليه، يظهر نفس المربع فوق رقعة الشطرنج مكتوب بداخله اعتذار رقيق عن عطل مباغت ويطلب مني أن أبدأ دورا جديدا، كنت في البداية أطاوعه قائلا لنفسي أنه جهاز عجيب ومراوغ ولابد أن أكف عن ملاعبته، أتصور أن يكون مبرمجا علي عدم الاعتراف بأية هزيمة في لعبتي المفضلة علي وجه التحديد رغم أن الأمر في أوله وآخره لعبه، ويوما في إثر يوم كان يستفزني ويجعلني أرفض تفسيري القديم بأن الأمر مجرد مصادفات غير مدبرة، أسأل نفسي كيف أن هذه هي اللعبة الوحيدة التي تهدف إلي إفقاد ذى خبرة مسبقة مثلي كل ثقة في قدراته علي مشهد من زوجته وعياله؟، هل كنت خصما يلزم القضاء علي طموحه بالحسرة علي وعيه القديم بعد الهزائم المتكررة دون أمل في نصر وحيد؟

كنت أسرح بخيالي وأقول أنه جهاز غريب ومبرمج يترصد الخصوم ويتوعدهم بالقضاء علي أحلامهم رغم أنه في نهاية الأمر آلة، وأتساءل إن كانت لعبة بريئة في نهاية الأمر يمكن أن تتعامل مع مواطن مسالم باعتباره عدوا أو خصما تلزم تصفيته؟ وهل كتب لاعب محترف هزمته ونسيته تقريرا ملفقا عن نشاطي في السابق أو مشاركتي في أحداث شغب خطيرة مضادة لتوحيد العالم في تواريخ بعينها برغم وجودي وبشكل مؤكد في نفس مقر عملي بمبني مجمع التحرير ما أزال؟ وإذا كان هذا الجهاز نفسه هو الذي يلجأ إليه عيالي لمعرفة ما يدور في كل أنحاء العالم في نفس اللحظات وبكل دقة فكيف يكون كاذبا وهو الذي ينقل لنا صورا لدبابات تفرم أبدانا في شوارع ساكتة وخالية تكتم الأطفال فيها أنفاسها رعبا ويتأكد تقسيم الكرة الأرضية إلى أقوياء بشكل مطلق وضعفاء بشكل مطلق رغم أنها قرية

صغيرة تختلف فيها العادات واللغات والعقائد منذ البداية.

كانت كل هذه الأفكار تراودني في أعقاب كل دور ألعبه وأوشك فيه علي الفوز فتتجمد الصورة ويقهرني نفس المربع الآسف بأدب جم عن العطل المباغت فوق رقعة الشطرنج، يدعوني إلى بداية جديدة فأفعل، أقول لنفسي أنني صرت له صيدا حلالا يستحق الهزيمة الأبدية والانكسار،لكنني من داخلي كنت أثق أنه سوف ينهزم في القريب وأنني بالقطع سوف أفك شفرة اللعبة في الزمن الآتي أو يفكها عيالي.

كان الأمر يبدو في البداية لعبة، لعبة فرار وإمساك ، والبارع هو من يفر وينجح في الزوغان، لم يكن الأمر يخلو من دعابة تستحق الضحك وتبعث نوعا من النشوة إن كان للنجاح في الفرار نشوة، ولا بد أن هناك أنواعا من البهجة أو النشوة الناتجة عن النجاح في الفرار برغم أن عائد من يهرب معدوم، لكنه علي أية حال نوع من النجاح يؤكد شكلا من أشكال القدرة.

كان هو كما بدا لي في " المنام /الكابوس" أشبه بممثل فاشل لم يتحقق بالتمثيل علي خشبة مسرح أو علي شاشة تلفاز أو سينما ولا حتى علي موجة إرسال إذاعي، ممثل لم يعترف بموهبته أحد ولا صدق هو نفسه بأنه ينتمي لفن التمثيل بأية صلة، كان يؤدي دوره دون قصد أو علي نحو طبيعي كما يقولون، لعلهم لو اكتشفوه كان يحق لهم التباهي بالعثور علي النجم المستحيل، لكنه لم يكن من الممكن بكل الحسابات أن يتحول إلي ممثل محترف تشيد بقدراته الأفواه والأقلام، ربما لأنه قبل كل شئ سوف يرفض حفظ أي نص لأي كاتب مهما علا شأنه لأنه يكره فكرة الكتابة ويكره الكتّاب، وسوف يرفض طاعة أي مخرج أو يلتزم بالحضور في مواعيد

التصوير أو التسجيل، يري نفسه فوق كل هؤلاء، ليتأكد الجميع أنه خصم لا يستهان به ويفعل كل أفاعيله بحسب إرادته الحرة وباختياره المطلق، ينطق بالكلمات علي النحو الذي اختاره لنفسه ويقول العبارات التي يصوغها عقله لينطق بها لسانه، يتحرك في الفراغ، كل الفراغ الذي أوهم نفسه بأنه امتلكه ليتحكم في كل ميادينه ومبانيه المطلة علي شوارعه وحواريه وأزقته، كنت في منامي لسوء حظي قد شهدت المصير التعس الذي انتهى إليه رجل مسالم ومعدوم الحيلة وقع عليه اختياره ليلاعبه لعبة المّساكة أو العسكر والحرامية، كان المصير شنقا أو خنقا أو ما شابه ذلك.

كان حلما خاطفا انقطع إرساله بحركة بدني للرقاد علي جانبي الأيسر وسوف أحدثكم بالقطع عن الأضرار التي أصابتني بسبب رقادي بغير قصد علي جانبي الأيسر، ذلك أنني كنت أغطس في سراديب النوم بعد تناول المهدئ وأستسلم فوق الفراش ساعة أو ساعتين في أقل تقدير مهدود الكيان مفكوك الأوصال راقدا علي ظهري، يسرح دماغي في ردود أفعال عيالي وزوجتي إذا فوجئوا بموتي بعد فترة قصيرة أو طويلة، وكثيرا ما كنت أحس بها وهي تدخل الحجرة التي أرقد فيها وتخطو ناحيتي بحذر بينما أنا غاطس في بحر النوم فأستيقظ أو أكون مازلت أتقلب قلقا أو موشكا علي النوم في تلك اللحظة الفاصلة بين الرقاد وغفلة النوم.

أنتفض غالبا علي الرغم مني فتبسمل هي، ربما تربت علي كتفي أو صدري وكأنها تبعث لي رسالة طمأنة أحتاج إليها لأعاود الدخول في سراديب الغفلة، كنت أفسر الأمر علي أنه نوع من توقع الموت - موتي - من ناحيتها، عشرات المرات وربما مئات المرات كان يحدث نفس الشيء وبنفس تفاصيله تقريبا، فإذا قمت منتفضا سألتني عن حالتي وما أحس به.

في السابق كنت أتمكن من الكلام وربما الوصف لبعض تفاصيل ما كنت قد رأيته في منامي أو غفلتي وانقطع بدخولها، لكنني في العامين الأخيرين صرت لا أرغب أو أستطيع الكلام أو الوصف دون سابق ترتيب مني أو تدبير وعلي نحو بطئ وغير ملحوظ ، حدث أنني صرت لا أرغب في الكلام أو الوصف، وفي أحسن الأحوال كنت أكتفي بالإشارة مثل أي أبكم مدرب وبارع في لغة الإشارة أطلب منها أن تكف عن طرح الأسئلة، تجلس إلى جواري وتتأملني، ومن داخلي كنت أغضب وأقول لنفسي مثلا أنه من الممكن أن تكون هي قد لاحظت علامات الموت علي ملامحي أو بدني وأنها بالقطع جلست لتشهد الفصل الأخير من لعبة الحياة والموت ، أغضب وربما أكتم غضبي أو أعبر عنه بزفرة احتجاج، ربما لو أسعفتني القدرة أقوم وأخرج من المكان وهي في أعقابي أو جالسة في مكانها تتأملني بلوم أو دهشة، وربما أبقي في مكاني فترة ثم أعاود الرقاد فتترك هي الغرفة وتسحب وراءها الباب.

أتذكر أن أباها مات في طفولتها المبكرة جدا فتولت أمها تربيتها، انقطعت لها وما كفت عن الحسرة عليه لأنه مات فوق فراشه دون أن تصدر عنه صرخة أو نداء أو صوت غير مألوف، وأنه لم يتركها وحدها وحيدة بل ترك طفلته وحيدة أيضا دون أخ أو أخت أو حتى عم أو خال يعتمد عليه أو يساعد في رعايتها لو تصادف أن ماتت أمها أيضا فيكتمل يتمها، أستنتج أن فجيعة مثل هذه في حياة الأم كانت محورا أساسيا في حكاياتها للبنت عن مصاعب الحياة بعد رحيله عنهما في صمت مطلق، وأقول لنفسي أيضا أن الخوف من الموت عند زوجتي كان ميراثا لا تملك منه فكاكا، وربما بسبب ذلك تحولت أنا إلى موضوع للتأمل والتوقع من غير قصد، لكنني

برغم كل تلك التصورات كنت أستشعر وجعا يصعب الاحتجاج عليه ويناسبه الكتمان رغم كونه موجعا وبشراسة، وربما لا يخفف منه كل طقوس الحنو والتعاطف الصادقة بسبب تلك المخاوف المرسومة فوق تقاطيعها.

في المنام رأيته مرة أخري وقد اختارني خصما له بعد أن تسبب في قيامي مفزوعا بسبب رؤية المصير التعس الذي انتهي إليه من كان قد اختاره قبلي ليكون خصما له، كان لا بد أن أتوخى الحذر، أنام علي جانبي الأيمن، لكن الأرق ناوشني قبل أن أتوه في الغفلة، لكنني رأيته يختارني خصما يطيب له مطاردته، كأنما كان يختبر ذكائي ومقدرتي علي مراوغته والفرار منه، ولعله كان علي نحو غامض يعدني بمصير مبهج إذا أفلحت ونجحت في الهرب منه ولو مرة واحدة، أكد لكل من كانوا يشهدون اللعبة أنه يحترم الذكاء والأذكياء، صحيح أنني في الصحو لم أدّع الذكاء الفائق، لكنني كنت أعرف أنني أنتمي إلى فصيلة الأذكياء في المنام، ربما كنت واهما أو كنت محقا لكنني كنت أراني علي هذا النحو من فصيلة الأذكياء، وربما بسبب ذلك لم أتخوف من لعبة الفرار من الحصار، ربما بدا لي الأمر هيّنا لأن النوم يحرر الإنسان من بعض مخاوفه التي تلازمه في صحوه.

كان علي أن أرمح في طول المدينة وعرضها عارفا أنه سوف يطاردني بكافة الحيل والألاعيب، كنت قد تخلصت من إحساسي بالخوف أو الخطر وكأنني شاب يافع مازلت، أفر وأفر وهو في أعقابي، تغريني علي مواصلة الرمح نشوة الانفلات من كل الفخاخ المنصوبة والشراك المحفورة التي أتخطاها، هل كانت تتبدّى لي في الأفق القريب بوادر حياة هادئة أو مصير مبهج لو أنه أوفي بوعده؟ ربما، لكنه كان وهما في منام جعلني أطرح علي نفسي سؤالا لا يحتاج إلى ذكاء خارق للإجابة عليه، كنت أسمع صوت

نفسي وأنا أكرره مستنكرا:

- يا عبيط... متي أوفي الخصوم الخصوم بوعودهم.

وأرد علي نفسي بنفسي:

- يا عبيط.. ومتي توقع العقلاء أن يمنحهم الخصوم مكافآت لأنهم بارعون؟

لكنني كنت أفر ويحاصرني، أفر ويحاصرني وأعاود الفرار، وكان هو قد أعلن نجاحي في كل الاختبارات، كانت عيون الناس تتابعني بإعجاب وأصواتهم تهنئني علي النجاح في الخلاص من كل الفخاخ ووسائل الحصار، ومن بين الناس اقترب مني ثلاثة من الشباب المتحمس الذين شدوا علي كفي ثم ربتوا علي ظهري وصدري وجعلوا يمسحون علي رؤوسهم وأبدانهم بكفوفهم التي لمستني، كأنني صرت وليا من أولياء الله، تذكرت الحسين بن علي والسيد البدوي فأدهشني الأمر. كانت هناك عربة"حنطور" فسيحة ومكشوفة تجرها أربعة خيول عربية بيضاء وتزينها الورود التي تفوح روائحها العطرة فتسحر الألباب، ساعدوني بكل الأدب وأركبوني، أحاطوني بينما تعبر العربة الشوارع والميادين حيث كانت آلاف العيون تتابعني بكل الإعجاب بينما الكفوف تصفق والحناجر تهتف فتأخذني نشوة النصر وألوح لهم واقفا ومتخليا بإرادتي عن مقعدي الوثير، يهلل قلبي مع الناس فرحا لأننا تخلصنا من فترة الحصار والفرار، وقبل أن ينتهي موكب المنصور الذي كنته بدا لي أن عجوزا عاجزا ومحنيا علي نفسه يشير بعصا يتوكأ عليها ناحيتي يستمهلني، كانت له لحية بيضاء كثيفة وطويلة تتطلب حسن التقدير والرعاية، أمرتهم بشهامة المنتصر أو أشرت عليهم بالوقوف ليركب إلي جواري، لكنه بعد أن ركب رأيت فيه وجه الخصم العنيد

بكل تقاطيعه وقد انفرد عوده وانخلعت لحيته المستعارة ثم اتسعت أشداقه بينما يضحك بشماتة لأنه أسقطني في أضيق فخاخه وتأكد من انتصاره. لحظتها تأملت وجوه الشبان الثلاثة الذين يحيطونني فاكتشفت علامات الشبه الشديد بينهم وبينه، كان فخاً محكما ومفاجئا لم أعمل حسابه، وكان السقوط مدويا بحسابات الجميع، لكنني لم أستسلم، لعلني طلبت العدل المستحيل في المنام أو حاولت توسيط واحد من أولاد الرجل ليوضح له أنني بكل الحسابات كنت قد أفلتّ من الحصار وأنني فررت بشرف وراوغت بشرف فأجّلت اللحاق بي أكثر مما كان الكل يتوقع.

كان الشاب يتسمع كلماتي ويزنها بميزاته فتبدو له موزونة، تبدو علي وجهه علامات تعاطف وموافقة علي أفكاري، يتركني محاصرا بالشابين الآخرين ويقترب من الرجل هامسا في أذنه بكلمات لا بد أنها كانت في صالحي لكن الرجل يرفض بعناد بغل مواصلة الاستماع فيرجع الشاب ليستنطقني لأقول له المزيد مدافعا فيبدو متعاطفا أكثر ويشير إلى بأن أرتاح، يتركني في حراسة شقيقيه ويذهب إلي الرجل من جديد، يقول بصوت مسموع أنه متعاطف مع حالتي وأن شقيقيه اللذين يحاصراني متعاطفان معي مثله، يضيف بصوت مسموع أن قوانين العدل الدولية والأساليب الديمقراطية الحقيقية في صفي من كافة الوجوه، لكن الرجل كان ينظر ناحيتي بغل وكراهية عمياء، ربما قال شيئا يفيد أنني أوشكت علي قلب موازين الدنيا لأنني حصلت بالحيلة أو السحر علي تعاطف أولاده فيوبخهم ويتهمهم بالغباء، يطرقون خجلا ويؤكدون التزامهم بالطاعة له دون أن يتخلوا عن الدفاع عني، يدفعونني دفعا لأن أدافع عن نفسي في مواجهته، أفعل بعد تردد وأجاهد أن أوضح له أن الأمر كان خدعة من خارج قوانين لعبته هو بحسب ما اتفقنا عليه فيسخر مني

ويقول إن الصراع علي البقاء ليست له قوانين وأن الغفلة هي الغفلة والغباء هو الغباء بدرجات متفاوتة، يعترف ببعض ذكائي لكنه يقلل من قيمته لأنني في نهاية اللعبة وقعت في واحد من فخاخه المنصوبة حولي، يدافع بعض الغرباء عني بأصوات خافتة ويدافع عني عياله بأصوات أكثر خفوتا لكنه لا يستجيب، يطالبني البعض بمعاودة المحاولة معه لأفلت من عقابه البشع، ينصحني أكبر عياله بأن أتودد إليه أو أداهنه وأعترف له بالنصر قائلا إن مثل هذه الأشياء تجعله أكثر ميلا للمسامحة والعفو، أتردد أولا ثم أبدا في شرح حالتي معه مؤكدا أنني لم أكن أضعه في خانة الخصوم أبدا، أوضح له أن الأمر كان من بدايته لعبة فيذكرني بأنني رأيت بعيني رأسي المصير التعس الذي وصل إليه الرجل الطيب الذي اتخذه خصما قبلي، يسخر مني أكثر فيتبدى لي جلفا دمويا بلا مشاعر، أحاول مرة أخري فلا يحيد عن موقفه المعادي لي، أشعر أنني نزلت ونزلت ثم تنازلت بأكثر من حساباتي عن نفسي استجابة لنصائح عياله الذين أعلنوا كامل الولاء له والاستعداد لتنفيذ كل أوامره في نهاية الأمر بغض النظر عن بعض الخلافات الشكلية التي تسبك اللعبة في عيون الناس الودعاء.

يتبدل حالي فألعنه، أبصق علي ملامحه فيمسح آثار البصقة بكل التواضع الزائف، يشهد الجميع علي عصبيتي وانفلات لساني بالشتائم اللاذعة، لا أتوقف رغم حصاري عن الصراخ وأقول للجميع أنني لو كنت في شبابي القادر ما تمكن مني أبدا وأنه لو صادفني في تلك الفترة لكسرت أنفه أو أضلاعه أو رقبته لأنني كنت في شبابي بطلا للرماية والسباحة وركوب الخيل، وكان من الممكن أن أصرعه في أي ميدان، أكشف له ولهم صدري لأريهم آثار جراحة القلب المفتوح التي أجريتها، يتعجب الحاضرون

من قدرتي علي تخطي كل المصاعب التي صادفتها برغم ما وصلت إليه حالتي، لكن الرجل كان يبدو بليدا وشامتا إلي أبعد حد، عيناه تنضحان كراهية ووعيدا قبل أن يشرح لهم ولي بنبراته الباردة مصيري التعس الذي ينتظرني، تنقلب موازين الأشياء فيهللون استحسانا بينما يشرح لهم الأسلوب المبتكر الذي سوف يتم بمقتضاه خنقي أو شنقي، كنت أنا قد تماديت وحدي في التهوين من قيمته وقيمة الزمن الذي أتاح له الفرصة ليتحكم في مصيري علي هذا النحو بسبب أنني تجاسرت ولاعبته، وكنت أدعوهم لمقاومته وكشف مفاسده بأجرأ العبارات فكان يشهدهم علي انفلاتي ويستنكرون كلماتي، أتحول إلي شهيد علي الحافة بين الموت والحياة، شهيد مات بالفعل لأنه أفرغ بالكلمات شحنات الغضب والاحتجاج لكنه لن يفلت من تنفيذ العقاب في البدن لإزهاق الروح إن كانت مازالت هناك روح تحتمل مزيدا من الإزهاق، لعلني كنت قد سألت الرب الخالق ليبعث لناس الأرض بعض عدله بمثل ما يبعث إليهم الأرزاق والأعمار والمصائر واثقا من استجابته للدعاء الصادق الذي ينطق به لسان العبد المؤمن.

كان الرجل هناك لا يزال وقد أحاطني أولاده بكل القيود وبكل الغلظة التي لم أكن أتوقعها منهم، لكنهم علي ما بدا لي لم يشفوا كل غليله فراح يسخر من رقة مشاعرهم ونعومة أناملهم، كنت مأسورا وقد انفض الناس من حولي ولم يعد هناك في الميدان غيرنا، أنا وهو والقيود وعياله الثلاثة الذين صاروا يتشابهون معه في كل شئ، الملامح وقسوة القلوب والرغبة في الانتقام بكل ضراوة، هل كادت اللعبة تنتهي لصالحه بخنقي أو شنقي علي نحو غير مسبوق؟ ربما استشعرت ذلك لفترة خاطفة، لكنني بحركة عفوية

أفلت نفسي من الكابوس فأعادني الصحو المباغت للحياة وحررني.

●●●

كان قلبي قد اطمأن تقريبا علي مستقبل الولد بتأشيرة السيد الوزير. كانت واضحة تمام الوضوح " أوافق علي طلبه " ثم " برجاء التنفيذ علي وجه السرعة " ووقع باسمه مؤرخا بتاريخ نفس اليوم، ليلتها بت فرحانا لأنني خلصت من المشكلة التي كان يبدو في بعض لحظات الغم المباغت لن تنحل، كنت أحاول أن أهدئ نفسي في كل صباح بعد مكابدات الأرق المتكررة رغم المسكنات والمهدئات الموصوفة بحسب تعليمات الأستاذ الدكتور الذي يتابع حالتي بكل دقة ويصف لي علاجا لكل ما يستجد من متاعب أستشعرها أو أتوهمها، أبوح له فيزود الجرعات الدوائية أو يقللها، من ناحيتي كنت أراني حالة مطيعة وراضية بتنفيذ كل التعليمات، وكان يحدث أحيانا أن أصاب بأعراض جديدة فيتجدد قلقي ويحرمني من النوم وكأنني بالصحو أفر من احتمال موتي وأنا في الغفلة، وكنت جاهزا لمواجهة النهاية الحتمية لكل الكائنات الحية مثلما كنت أتخوف لحد الرعب قبل الاطمئنان علي مستقبل ابني الوحيد، عارفا أن المستقبل بيد المولي القادر الوهاب الذي أوصانا أيضا برعاية العيال.

كنت في السابق قد طاوعت شيطاني المارق وأنجبت، واهما أنني سأحافظ علي اسمي بميلاد الطفل الذي جاء متأخرا، لكن الأيام مرت وتخطيت العقد السابع من عمري وأنا أرعاه، أخذت من الدنيا أكثر من حقي بكل الحسابات وصرت كهلا أتوكأ علي عكاز، أتساند علي إرادة معاندة لأتم تعليمه وتربيته رغم ضآلة معاشي راجيا أن أواصل مشواري وأتمكن من توظيفه في نفس الوزارة التي كنت أعمل بها، صحيح أن الولد

تخرج في نفس الجامعة التي تخرجت فيها منذ ما يزيد علي نصف القرن، لكنه كان كسلانا ولا يسعى بالقدر الكافي في مناكبها كما كنا نفعل ليحصل أي واحد فينا لنفسه علي عمل ليرتاح من القلق في أواخر أيام شيخوخته، وكنت قد أخطأت دون قصد لأنني جعلته ابنا يعتمد علينا بشكل مطلق، أكل وسكن وملابس ومصايف ورحلات ترفيهية وأشياء أخري كان يعتبرها ببساطة حقوقا يلزم أن نلبيها له، وخلافا لمن هم في مثل عمره في البلاد المتقدمة كان يسألني باعتباري مسئولا كيف يواجه مستقبله وهو عاطل من غير تركة أو ميراث؟ فأحتار في أمره وأمر نفسي.

لكن المصادفات السعيدة تأتي من غير ترتيب أيضا لأن وزارتنا بحثت في سجلاتها القديمة وقررت أن تكرم من خدموها في السابق بنزاهة وشرف، وكنت قد قرأت خبر التكريم في صحيفة الصباح، وتلفت حولي سائلا نفسي إن كانوا قد فكروا في تكريمي أيضا؟ وقبل أن أكمل استفساري رن جرس الهاتف ورفعت السماعة وسمعت صوت السيد مدير مكتب السيد الوزير يزف لي بشري لأنه قد تم اختياري علي رأس من قررت الوزارة تكريمهم في أول احتفالية من نوعها ليكون أمثالنا قدوة للأجيال الجديدة، وتخيلت نفسي قدوة أتلقي تقدير السادة المسئولين، وفكرت في صورتي المنشورة في الصحف والمجلات وأنا أتسلم شهادة التقدير من الوزير شخصيا، وقد رتبت أمري علي الظهور بأحسن صورة ممكنة، فتحت دولاب ملابسنا وقلبت في البدلات التي أملكها، اخترت أفضلها وقررت أن أبعثها للمغسلة لتنظيفها من تلك الأتربة الدقيقة التي كانت قد تسللت إليها لا أدري كيف بينما كان الدولاب مسكوكا، وعندما استيقظ الولد علي عادته في الثانية بعد الظهر سألني عن وجبة الإفطار فذكرت له مباهيا أنني سأنال

تكريما يليق بما بذلته من جهود في الزمن القديم، وبدا لي غير متحمس لما سمعه وعلي نحو يغيظ، وهز رأسه ليسألني مستنكرا عن الفائدة التي سوف أجنيها من ذلك التكريم، اندهشت وقلت لروحي إنه ولد شرير ثم لذت بالصمت. كان يتناول وجبته قبالتي وقفاه في مواجهتي علي خلاف عادته، كأنه كان يتهرب من تصديق أن ذاكرة الحكومة رغم مشاغلها لا تنسيها من خدموها، لكنه استدار فجأة علي غير توقع ليطالبني بأن أتقدم للسيد الوزير بطلب لتشغيله، شعرت بالخجل من نفسي وأنا أتخيل نفسي أمام سيادته أتناول شهادة التكريم بيد وأقدم له طلبا باليد الأخرى. قلت لنفسي إنها في أيامنا كانت تسمي انتهازية في السلوك، وكان الولد في البعيد يتأملني وينتظر ردي علي مطلبه بطلب تشغيله فبحت له بما كان يجول بخاطري، لكن الولد ضحك بصوت مجلجل وساخر قبل أن يصرخ:

– يا بابا أنت في غيبوبة؟

– أنا يا ولد في غيبوبة بعد كل ما عملته لك؟ أنا.

– وكأنك من دنيا غير دنيانا.

أضاف وفي نبراته حسرة ومرارة ثم اتجه ناحية باب الشقة وفتحه ليخرج ويتركني وحيدا، بيني وبين نفسي فكرت في الأمر بمنطقه، لعلني تعاطفت معه كأب وإن لم أوافقه علي أنني في غيبوبة، أو أعيش في دنيا غير دنياهم، وقلت لنفسي لأفض الاشتباك بيني وبين نفسي وبينه:

– وماذا في هذا؟ نفذ رغبة الولد.

في يوم التكريم قدمت للسيد الوزير طلبي بعد أن تسلمت منه الشهادة، فابتسم بمودة وفتح الورقة ثم أشر عليها بقلمه تلك التأشيرة الواضحة التي تستحق الشكر، وبدا لي أن الولد كان عنده حق في كل ما قاله من أنني

أعيش في غيبوبة عندما توالت الطلبات التي تقدم بها زملاء الزمن القديم فتوالت توقيعات السيد الوزير بالموافقات المتتابعة، وقلت لنفسي إن التكريم احتفالية شبه مرتبة لحل مشاكل كبار السن من أمثالي لتخليصهم من مشاكلهم في أواخر أيامهم بمثل ما حدث في حالتي، وكاد الولد أن يطير فرحا وهو يقرأ سطور التأشيرة الواضحة ويتأمل التوقيع والتاريخ، لعله أخذني في حضنه وقبلني لأول مرة منذ سنوات، فجعلني أشك في حساباتي عنه وعن جيله وزمنه الذي يختلف عن جيلنا وزماننا القديم وكان الولد يتابع طلبه بنفسه وكأنه خرج من بئر الكسل البليد ودخل دائرة الحلم، ومن ناحيتي كنت أحلم له، لكن تفاصيل الواقع لم تكن في خيالها ولا في خيالي، وقد بدا لي أن حلمه تحقق علي غير توقع ولكنه وضعني في مأزق.

●●●

استشعرت الوهن وقلة الحيلة معها ومعهم، وكم تساءلت إن كان هذا الوهن الذي أصابني كان نتاجا شائعا ومألوفا أو حتي متوقعا لحالة مثل حالتي، لأنها تصيب البشر في الساعات أو السنوات التي تسبق الرحيل، هو ضعف بكل مفردات الضعف الذي جربته بالإكراه قطعا منذ لحظة الميلاد مرورا بكل المصاعب التي صادفتها وصادفتني أو تربصت بي في كل المنحنيات التي مررت بها في سنوات العمر الممدودة بغير حساب بحساباتهم، وربما أدهشتهم تلك القدرة علي مواصلة المشوار في سنوات السعي الدؤوب لتخطي كل عقبة تصادفني أو تتربص بي وأنا في البدايات أسعي بالفطرة لأتخطاها، ثم احتيالي في سنوات الصبا للقفز فوق الموانع لأواصل مشواري، عارفا إنني كنت في تلك السنوات فاقدا للسند وربما أفتقد المأوي الآمن واللائق أيضا، وربما كان محصلة طبيعية للتعايش مع

المرض مغصوبا ومغلوبا علي أمري كل تلك السنوات، كنت أتساءل إن كانت قد تغيرت بالفعل أو أنها هواجسي التي تناوشني وتفسد علاقاتي بكل البشر، أو أنها كانت تهدف إلي تزويد تباعدي علي نحو غير معلن لكنه قائم، ربما كان ذلك كذلك وربما كانت الأوهام التي ترسبت لدي عنها في العام الماضي قد أسهمت في تأكيد التباعد الذي كانت تسعي إليه أو يأتيها فرضا علي الرغم من إرادتها لكنه قائم ومتواجد كحاجز صلب بين طرفين كانا في الأصل طرفا واحدا، تمكنوا منه وقسموه لعدة أجزاء وحطوا علي كل جزء علامة تميزه عن سواه فيتشكل بإعتباره كيانا مستقلا يلزم أن تكون له صفات غير الصفات الموروثة لأنها قابلة للتبديل أو التغيير دون مقدمات ولأنها تبدلت أو تغيرت بشكل مفاجئ دون مقدمات فقد تأكد له أنه يفتقدها أحيانا في وجوده أو أن تكون هي الأخري قد افتقدته، لأن المسألة بينه وبينها لاتقاس بميزان الذهب ولا ميزان الفضة فقد قال لنفسه في واحدة من لحظات التجلي " يلزم أن تنساها قبل أن تنساك " لكن المسألة لم تكن نسيانا متعمدا أو مرسوما بدقة كي يحسبه البشر الأسوياء مألوفا لم يسع إليه أحد.

" في أول الأمر تبدي لي أن الصحو والمنام يتداخلان علي نحو مربك، صرت أتخيل أطيافهم وأبدانهم بتفاصيلها وهي تتحرك بالتتابع من خلفي أو بجواري، وأنني سمعت صوتا لأي واحد منهم أتاني من خلفي او من أمامي أو بجواري وسارعت بالرد بصوت مسموع علي سؤاله أو رأيه في موضوع يشغلني أو يشغله، ثم يتأكد لي أنني طرحت السؤال علي نفسي وجاوبته موهوما لأن أحدا منهم لم يتواجد خلفي أو إلي جواري، الغريب أن الأمر تكرر في أوقات متتابعة أو متباعدة والغريب أنهم كانوا يتابعون ما جري لي

علي مهل في الخفاء قبل أن يعلنوا اكتشافاتهم وربما تكون إجابتى سؤالا طرحه أي واحد منهم بحساباتي تتطلب ردا مسنودا علي معرفتي لأية تفاصيل عندما يصدر الصوت بحساباتي فأرد بصوت أسمعه وأستغرب بيني وبين روحي لأنه لم يعلق علي ما قلته، اتلفت ورائي ويميني أو شمالي، واكتشف أن الفراغ يحوطني من كل جانب، وأدرك أن ردي علي السؤال كان مخزونا ينفلت في البراح لأنني لم أنطق به، أحاور نفسي كيف قبلت أن أؤجل الرد علي سؤالها أو سؤاله كل هذا الوقت، ومتعاطفا مع نفسي لأنني تحاملت عليها وأنا أداري ما يمكن أن يقال عنه من انتقادات لشكل العلاقة بيني وبينهم وربما أشفق علي حالتي وقد تحولت إلي هامش مركون ومعزول بإختياره بحساباتهم، أو بإختيارهم بحساباتي، وتتداخل الصور في خيالي، فأعاود تذكير نفسي أنهم عيالي وأنني لن أهون عليهم علي أية حال، وربما ألوم نفسي بيني وبين نفسي، أو أتشاغل بأي شئ يستهلك الوقت. في البداية كنت أتوهم أنني متعجل بطبعي، وأنه من غير المعقول الرد ويتبدي لي أنني اسمع أنفاس من وجهت إليه السؤال فألتفت لمصدر الصوت الوهمي ولا أراه. أشكر المولي عز وجل لأنه لم يكشف ستري أمامهم، أعتب علي روحي وأنبهها لكي تتحقق من وجود او عدم وجود من وجهت إليه كلامي ويجعل أي واحد علي يقف أو يجلس خلفي مثلا، فألقي عليه سؤالا بصوتي لكن الصمت يربكني ويحيرني فألتفت عازما علي لوم من يقف ورائي أو يجلس وقد توهمت وجوده، ثم تتبدل الصورة ويتبدي لي أنني في غفوة أو نصف صحوة ما بين البداية التي ارتسمت في خيالي والحقيقة المتباعدة فأخفيت حتي عن نفسي ما كنت قد تيقنت من حدوثه علي نحو متكرر، وربما كنت في البداية أفسر الأمر لنفسي علي أنه نوع من الخلط

بين الصحو والغفلة الخاطفة، وبسبب عدم انتظام ساعات رقادي علي نحو يتناسب أو يليق بشيخوختي المبكرة التي بلغتها منذ سنوات، فيضحكون مجاملة أو شفقة أو حتي شماتة ساكنة، يضحكون ويعابثونني مجاملة قبل أن يسألني أي واحد ممن استمع إلي ما قلته: إن كان ما بحت به محض خيالات تتبدي لي أو أنها مداعبات لإزجاء الوقت أو التخفيف عنهم، أعاود ذكر ما جري لي بكل تفاصيله، متشكيا لهم وربما لروحي علي نحو غامض وحيرني وبكل الحسابات ممن يتعامل معي من الأهل والجيران فيضحكون، ومشاعرى التي كنت أتستر بها، وكأنها ثوب ممزق يغطيني وابتلاه الزمن المطوط وقد أصابتني المواجع، وأوبخ روحي وأعتب عليها منفعلا وواعيا أنها لن تسمع شكاياتي بتعاطف ممزوج بالحياء، يتأكد لي أنها برغم ثقتي في تعاطفها الممزوج بالخجل، وأراجع نفسي في ذات الوقت لائما نفسي، لأنني تخيلت أنه من الممكن أن تظهر عليها علامات مثل حمرة الخجل، أسأل روحي إن كان لها تقاطيع وملامح تكشف هويتها أو تجسدها وهو تصور من الممكن أن تكون للروح ملامح أو تقاطيع تتأثر بالخجل إلي حد أن تصاب بحمرة الخجل علي تقاطيعها المتخيلة، والخيالات في الغفوات أرقي من تلك الأمنيات والأحلام المشروعة في بدايات العمر.

●●●

كانت غفوات الصحو والتأمل الغويط تقودني إلى سراديب الرؤى الغامضة، أسأل نفسي إن كانت لحظات الخروج من بطنها كانت علي هذا النحو فعلا أو أنها محض رسوم اقتحمت الذاكرة علي مهل؟ لعلها لم تكن منبتة الصلة بما جري بالفعل ولعلها تكونت في اللاوعي مسنودة علي خبرات قديمة قدم الحياة نفسها، **لكنني في كل الحالات كنت أراني منفلتا**

علي غير ما كانوا يتوقعون، وبحسب ما كانت تحكي لي ولكل الحاضرين من الأهل والأقارب بعد أن كبرت وصرت بحسابات الكبار رجلا، تحكي مزهوة بنفسها أنها أفلتتني بكل اليسر رغم أنني انولدت قبل الموعد المحسوب بأكثر من شهرين، كنت أشاركها الحديث الجالب للضحكات أحيانا قائلا أنني استشعرت خروجي من داخلها مندفعا الي أرضية القاعة الجوّانية الرطبة وكيف اختلط السائل اللزج ودم "خلاصي " بالرماد الناعم قبل نزول " الخلاص " نفسه، أقول إنني تشممت رائحة الرماد واستشعرته ساكناً فوق مقدمة الرأس وأجزاء من البدن العريان فيضحكون، أسرح بخيالي قائلا لهم بينما أتأمل ملامحها أو أبوح لها بيني وبينها: أنه من المحتمل جدا أن أكون قد أحسست بأصابع " أم يوسف " وهي تلتقطني وتربط حبلي السري من فوق بطني بخيط متين قبل أن تفصله عن" الخلاص" ثم ترفعني مقلوبا وتربت علي ظهري بخبرة السنوات الطويلة في التوليد والإرضاع. أقول واثقاً ومسنودا إلي إمكانية تصديقي: أنه حدث أنني بكيت لأول مرة بينما أتنفس في ذلك الركن هواء تلك القاعة الذي مازلت أميزه، فهل كان هواء تلك القاعة المهجورة مميزا بالفعل في تلك اللحظات؟

أزعم أنه كان كذلك ولا يزال، لكنني كنت أشعر أنني سوف أبالغ في وجود الآخرين لو أكدت قدرتي علي تمييز رائحة ذلك الهواء الذي كنت قد تشممته في أول تجربة شم فعلي عبر تلك اللحظات، وسوف أصادر علي نفسي لو قلت إنني لم أستشعره أو أتشممه بشكل لائق، كنت أستند إلي احتمالات إحساسي بحدوث ما حدث لأنني كنت قد قرأت وأنا في سن الإدراك ومحاولة الفهم أن الجنين في بطن أمه يحس بمثل ما يتغذى ويتحرك ويفرز الفضلات، أحيانا كنت أقول لنفسي أنها محض تخيلات

ترسبت في الوعي من اللاوعي بعد أن قرأت تفاصيلها مئات المرات، لكنها علي كل الحالات بحساباتي وحسابات الوقائع التالية أول سقطة تحدث لي وإن بدت زيارة غير مألوفة أو متوقعة من كل الناس في ذلك الزمن القديم لأنني جئت قبل موعدي بشكل مؤكد بحسب كلامها ولم أكمل حتى شهري السابع في بطنها، وكثيرا ما كانت تحدثني وهي تشير بإصبع سبابتها القصير مفرودا وحده من كفها الصغير إلى تلك البقعة أو مكان السقطة علي وجه التحديد في دار المرحوم والدها الذي لم أره أبدا بينما تبتسم:

- هنا كان مسقط رأسك يا ضنايا.

أتأمل المكان الذي صار مألوفا لي وتربطني به علي نحو غامض مشاعر حنو متبادل إن كانت الأرض الرطبة المهجورة تعرف الحنو كما نعرفه، أسأل نفسي إن كانت تلك البقعة من الأرض علي وجه التحديد هي التي استدعتني رجلا في الخفاء فأتيت كي أتأملها وأتأكد من جذوري؟ أتساءل بيني وبين نفسي إن كانت أمي هي التي لفظتني قبل موعد خروجي المألوف لتخلص مني أو أنني تعجلت الخروج رغم إرادتها؟ أتساءل ولا أجيب.

تحكي دليلة أو أم يوسف عن صرختي العالية التي كانت صاخبة أكثر من كل الصرخات التي سمعتها هي لحظة أي ميلاد فأسرح بخيالي مرتبكاً، يتضاحك الحاضرون لأنني بكل الحسابات سرحت في البعيد عنهم، تهمس أمي بمودة ساخرة بينما تنصّب نظراتها ناحية العينين بلوم ناعم:

- عملت لنا فضيحة.

كنت في المرات الأولي التي أسمع منها تلك العبارة أشعر بالخجل من نفسي لأنني صرخت بصوت عال، وربما لو كنت أملك القدرة علي صياغة عبارات الاعتذار المناسبة ما ترددت أبدا، كان في داخلي خجل حقيقي لأنني

أتيت أو خرجت علي غير موعد ثم صرخت عاليا وعملت لها فضيحة علي النحو الذي كانت تؤكده وتؤكده كل من حضرت الواقعة أو الوقعة، لكنني بتكرار تلك الرواية عشرات المرات لم أعد أستشعر ذلك النوع من الخجل، ربما لأنني عرفت أن الصرخات تصاحب كل من يولد كإعلان علي الوجود الجديد، تختلف حدة الصرخات لكنهم جميعا يصرخون، ولا بد أنني تآلفت مع المكان وصرت أتشمم رائحته، أستعيدها وأستكشف الفروق بينها وبين كل الروائح التي تفح أو تصدر عن الأماكن الأخرى، أقول لنفسي إنها نفس الرائحة القديمة التي تسربت إلى أنفي وعبرت حلقومي، امتزجت بتلك الخلايا الحية التي شكلت مولودا كنته أنا في الزمن القديم، كان يتأكد لي أن ذلك الرماد الناعم الذي التصق بجزء من رأسي وأجزاء من بدني تفاعل مع كياني وتسلل ليكوّن في الدماغ أول خبراته مع الحياة، يبدو لي أنني علي نحو غامض كنت قد انعجنت برماد تلك البقعة ثم تنفست هواءها وأنني لأول مرة سمعت فيها أصواتا وصرخات وهمسات لم أميزها، تحسست الأرض أو تحسسّتني، انطبعت علي بدني بمثل ما انطبعت أنا علي سطحها، تلقتني بحنو يليق بمولود سقط لتوه فوقها.

وكانت المساحات تتسع بمرور الأيام، أنظر إلى مكونات القاعة والدار وأسمع أصوات ناسها، أتآلف أكثر مع صوت أمي وأشبع من لبن صدرها وأطمئن وأنا في حضنها، تحتويني بحنو أحتاجه وأحتج صارخا لو لم أحصل عليه في كل الأوقات، بعدها زحفت وقعدت في الأركان قبل أن أخرج من باب الدار بمساعدتها أو بمساعدات غيرها، شاهدت بوعي حقيقي ذلك الزقاق وميّزت أصوات ناسه، رأيت تفاصيل الوجوه التي لم أكن قد رأيتها من قبل، كانت المساحات تتسع يوما في إثر يوم ثم انقطع الخيط تماما،

درت حول نفسي في فراغ لفترة لم أستطع تحديدها.

●●●

رأيتني في مكان آخر وسط ناس غير الناس، أبحث عنها بين الوجوه فلا أراها، أبكي وأبكي تعبيرا عن عدم الموافقة علي ابتعادها عني أو ابتعادي عنها، يحاولون إسكاتي فلا أسكت، عاجزا عن الكلام بمثل ما يتكلمون ومتشوقا لصدرها وهمساتها ورائحتها التي كنت أطمئن إليها وأنام، حتى في الحالات التي كنت أشعر فيها بالجوع أو العطش أو إخراج الفضلات كنت أثق أنها سوف تأتى وتحملني تنفّذ رغبتي وتبعث في قلبي السكينة والإحساس بالأمان، لكنها لم تأت أبدا ولا استشعرت أنفاسها إلى جواري مرة أخري، لا بد أنني كنت أغيب عن الوعي في ساعات الصحو وأشعر بالأنامل الغريبة وهي تتحسّسني لتتأكد إن كنت ما زلت أعيش أو أنني فارقت الحياة معانداً.

كان الجوع يعتصر أمعائي برغم كل محاولاتهم لإطعامي أو إرضاعي من صدور أخري غير صدرها كنت أرفض وأرفض ثم أستسلم مغصوبا بغريزة الجوعان الراغب في مواصلة الحياة وفي داخلي رغبة أخري في الخلاص من حياتي ومكابداتي، لكن إرادة الحياة انتصرت وواصلت الحياة بحسب ما قالوا لي بعد ذلك وأنا علي عتبات الوعي أو الفهم، لا بد أنني من داخلي كنت أرغب في مواصلة الحياة، لكي أحاسبهم وأسألهم عنها أو أعاتبها وأسألها عن سر غيابها عني، أنتظرها لتأتي وتأخذني أو يساعدني أحدهم علي الوصول إليها فتحوطني بذراعيها وتدفئني في حضنها ولو مرة وحيدة أخيرة، تتحسّس بدني وترضعني أو تطعمني وتسقيني ثم أموت، تغمغم لي أو تهدهدني لأنام باطمئنان كنت قد افتقدته تماما وظللت أفتقده، كانت الرغبة في داخلي غير منطوقة ويستحيل الخلاص منها حتى وأنا في

مراحل الوعي التالية، لكنها لم تتحقق علي امتداد السنوات، كنت أخزّن في داخلي أملي في استعادتها بينما أسمع حكايات جدتي لأبي عنها وكيف أنها تعيش هناك في نفس القرية التي تركناها وابتعدنا عنها، فارقناها وعشنا بعيدا بالغصب عنا، كانت تضيف أن أولاد الحرام كانوا وراء انفصالها عنه وابتعادي عنها، كانت أمي بالنسبة لي خيالا منسوجا في فراغ بلا تقاطيع ولا ملامح محددة، لكن طيفها تباعد عني بعد أن أكدت لي الجدة في واحدة من تلك الأمسيات الصيفية أن أمي دخلت بيت رجل من النّاس الشّلبي وصارت له زوجة، أتذكر ما كانت هي تقوله في السابق عن الناس الشلبي الذين هم ناس أمي وعائلتها والذين لا ترتاح لهم جدتي ولا تحب سيرتهم، ناس بلا أصل، غرباء عن الكفر الذي تركناه وابتعدنا عنه، لكنه كفرنا وفيه ناسنا وأرضنا، ميراث أبي وميراثي عن ذلك الجد الذي افتري عليها وعلينا.

أستعيد ملامحه وأراه ماثلا أمامي بعوده الفارع "وشمروخه" المركون إلي جواره إذا قعد والمسوك في يمينه إذا وقف أو سار، أستعيد ابتسامته لي بينما يضع في حجري الصغير زرع الغيطان بعد أن يمسحه بطرف جلبابه ويطلب مني أن آكل بالهناء والشفاء، بلح زغلول أو رطب أو جوافة ناعمة، حمراء أو بيضاء، جميز أو توت أبيض وأحمر واسود، عناقيد عنب فيها بذور أو خالية من البذور من فوق التكعيبة الساكنة فوق الخارجة الواسعة المسكونة بالبقر والجاموس والماعز والخراف من كل الأحجام، وأحيانا خيار أخضر أو قثاء أو بطيخة صغيرة أو حتى حزمة قصب تنحط بيننا فأكتشف ما سبق أن اكتشفته بأن هناك أعواد قصب قشرتها حمراء أو بيضاء أو فيها خطوط حمراء وأخري بيضاء بصفرة، يهمس لي بمودة لأنه اكتشف إعجابي بتلك الخطوط وكأنه يمنحني سرا بينما يربت علي

ظهري مبتسما:

- ده بقي.. اسمه " خد الجميل ".

كان يأتيني بكل شئ من زرع تلك المساحة الواسعة الكائنة بين الترعة الصغيرة والترعة الكبيرة علي رأس الغيط، وما يزال وجهه الباسم بشاربه الأبيض الكثيف الناعم في الذاكرة وما أزال أحب الرجل، أتشوق لرؤيته مثلما أتشوق لرؤية تلك الأم التي كانت بلا ملامح، لكن ملامح الرجل ماثلة ومطبوعة في الذاكرة ويستحيل نسيانها، حتى شمروخه المميز وعباءته الفضفاضة أكثر من كل العباءات والتي كان يغطيني بها لو شعرت بأي برد.

لعل جدتي كانت تقرأ ما يدور في ذاكرتي أو أتوهم أنا ذلك، أسمعها وهي تؤكد أن الظفر لا يخرج من اللحم وإن خرج فإنه يخرج بالدم، كأنها تطمئنني بأنه في الزمن القريب الآتي سوف تعود المياه الي مجاريها ويعود الحق لأصحابه، كان في إيقاع كلماتها شئ شبيه بالأحلام أو الأمنيات مستحيلة التحقيق، شئ يشبه إمكانية حصولي في الصباح التالي علي دراجة تخصني أتمكن من ركوبها والجري بها في شوارع المدينة دون أن يختل توازني وأسقط سقطة موت كتلك التي سقطها جدي القديم من سطح داره فوق حجر الطاحونة القديم قبل أن أراه، لابد أنني بمرور الأيام تأكدت من استحالة رؤيته حيا يتحرك بخفة ونشاط فتشبثت بملامحه بديلا عن وجوده دون أن أدري، ولعلني في تلك المراحل الأولي من عمري كتمت رغبتي في الذهاب إلي أمي البعيدة رغما عن إرادتي، استشعرت علي نحو خفي أنها في مكان لا يخصها وحدها، مكان لا يحق لي دخوله لأنه كان مملوكا لرجل آخر غير أبي اتخذته زوجا، بيني وبين نفسي كنت أتشكك في كلام جدتي عن عدم قدرتها علي الخروج من دار الرجل الغريب عنا لتراني ولو

مرة واحدة، تبرر لي غيابها وتبرر ابتعادها عني كل هذا الوقت، لكنني كنت أشعر أنها في تلك الحالات لم تكن تصدق نفسها وتعرف أنني لن أصدق.

●●●

كان أبي يحادث جدتي همسا في واحدة من تلك الأمسيات عن مشواره الذي تأجل، وأذكر أنها وافقته علي مرافقته في المشوار، كلاهما كان ينظر ناحيتي نظرات غريبة إلى الحد الذي جعلني أتشكك بأنهما سوف يتركاني وحدي، هل همست لجدتي محتجا علي تركي وحيدا أو أنني بكيت فأحاطتني بذراعيها وضمتني إلي صدرها وهي تقول بصوت عال:

– مش ح نسيبك لوحدك أبدا يا ضنايا، نسيبك إزاي؟ حد يسيب ضناه؟ إحنا ح ناخدك معانا.

أذكر أنه في الصباح التالي استأجر سيارة مخصوص وقفت أمام باب البيت وأخذنا لنركب وتسير بنا السيارة في اتجاه كفر عسكر كما قال للسائق ولها ولي، كأنه كان محبوسا في المدينة التي كنا نعيش فيها، كفر عسكر، اسم سمعته آلاف المرات، سكنني ولم أكن ساكنه في تلك السنوات لكنني كنت منسوبا لناسه، لأولاد عوف الذين لهم ينتمي هو وهي وأنا علي العكس من أمي التي هي من جماعة شلبي، وصلنا إلي كفر عسكر في الظهيرة، دخلنا دار ناس لم أشهدهم من قبل، كنت أشعر بالجوع ولا أبوح، وبأصوات خافتة كانوا يتحدثون، وعندما دخلت امرأة في وسط القاعة وحطت كفها مفرودا ومحنيا فوق شفتها العليا وأطلقت زغرودة قام رجل من بين الرجال وضربها بالكف فسمعناها تصرخ بينما ترمح هربا وهو يسبها ويلعنها:

- يابنت المراكيب، عاوزة تجيبي لنا مصيبة، الراجل الكبير مات، ما فاتش عليه سنة.

وساد صمت إلا من نهنهات آتية من خارج باب المندرة المزحومة بالرجال والنساء، سمعنا بوق سيارة فكأنه كان علامة للكل أو أمراً بالوقوف، وخرج أبي وجدتي وأنا ممسوك في قبضة يدها، ركبنا نفس العربة في ساعة المغيب المبكر وركبت إلي جوار أبي بنت كبيرة جميلة التقاطيع كانت جدتي تحادثها بمودة طول الطريق وتناديها باسم " روحية " فترد عليها بصوت خافت أو تطرق ولا ترد، ترفع عينيها ناحية أبي خلسة وتربت علي كتفي صامتة بنصف ابتسامة، وعندما وصلنا إلي بيتنا الكائن في المدينة دخلت هي معنا، وعند باب حجرة حملها أبي ودخل بها بينما سحبتني جدتي إلي الغرفة الأخرى، أطعمتني فتخلصت من جوعي، راحت تحكي لي حكايات فنمت وصحوت في الصباح التالي علي لساتها وهمساتها الخافتة بنغمات ساخرة:

- اصحي بقي يا سيد.. مش تقوم تبارك لأبوك؟ إيه رأيك ف روحية؟ حلوة؟ هي حلوة .. بس يا رب يكون طبعها حلو برضه، ما هي دي ح تبقي مرات أبوك وبدل أمك.

مستسلما لكف جدتي الممسك بكفي سرت إلي الحجرة الأخرى وقد انفتح بابها، رأيته بجلباب أبيض جديد وطاقية بيضاء صغيرة ورأيتها بثوب ناعم وشعر مفرود وتقاطيع حلوة، أسرعت هي ناحيتي وحملتني، قبلتني عدة قبلات وضمتني إلي صدرها الطري فاستشعرت دفئا من نوع آخر، كنت أسمع همسات أبى وجدتي ولا أميزها، وكانت هي تقبلني فيصدر عن قبلاتها صوت غير كل الأصوات الأخرى، أقعدتني علي حجرها وهمست:

– من النهارده يا سيد إنت ح تبقي ابني وأنا أمك، أعمل لك اللي انت عايزه، أي حاجة عاوزها تقول عليها، بس تقوللي يا أمه، تقوللي إيه؟ هيه، ح تقوللي إيه يا سيد يا ابني؟

لم أرد، نظرت إلي جدتي وأبي عدة نظرات، لعلني كنت أستفسر منهما إن كانت هذه بالفعل أمي الجديدة، وأوشك أن أسأل جدتي عن تلك الحكايات التي كانت ترويها لي عن أمي الأخرى والساكنة بحسب ما قالت في كفر عسكر حيث كنا في اليوم السابق، لكنني لم أحصل علي جواب أو حتي غمزة بعين أو إيماءة من رأس، كنت أري علي الوجهين فرحة وانشغالاً بمن وفدت إلينا وسوف تبقي، هزت جدتي رأسها عدة هزات قبل أن تهمس لي ولروحية في نفس الوقت:

– قول لها يا نينه، يبقي يقول لك يا نينه، مش كده برضه يا حسن يا ابني؟

– كله زي بعضه يا أمه، وماله، نينه نينه.

لابد أنني تعايشت خلال تلك الأيام مع كل من كانوا يحيطونني، وكنت أكبر، أمشي وأرمح وأنطق الكلمات الجديدة في المدرسة وأميز بحساسية لا أعرف مصدرها من يتعاطف معي بصدق ومن يكرهني بلا أسباب، كانت جدتي في ذلك الزمان القديم هي الصدر البديل الأكثر حنوا، تطعمني وتسقيني وتلبي رغباتي الصغيرة، لعلني لم أطمئن تماما للوافدة الجديدة بقدر اطمئناني لها وتصديقي لكل ما كانت تقوله لي أو تهمس به أو حتي تغمزني لأفعل أو لا أفعل فأستجيب، لعلها كانت حساسية موروثة كما قال الكبار عندما كبرت، وكانت في بعض الأحيان تتباكى علي مصيري التعس وحرماني من أمي البعيدة، تسخر في بعض الأوقات من " روحية " لأنها

احتلت مكان أمي زوجة لأبي وأما كما كانت تقول، لكنها كانت برغم جمال تقاطيعها ونعومة صوتها لحظة التودد شحيحة في كل شيء، الخبز والغموس والملاليم التي أطلبها إذا سافرت جدتي وغابت، أحيانا كانت تدفعني للعب في حوش البيت مع العيال، تعطيني كسرة خبز جاف وتبتسم قائلة:

- إنزل العب تحت يا حبيبي.

وكنت أنزل مغصوبا ومغلوبا، أسمع كلامها وأنفذه مخافة العقاب والتخويف إذا قلت لأبي أو جدتي شيئا مما يحدث بينها وبيني في غيابهما، وكانت بارعة في التودد لأبي ومداعبته، تطمئنه علي حالي وتلبية كل مطالبي إذا سألها لأنني بحسب ما كانت تؤكد له سوف أكون أخا أكبر لضناها الآتي في علم الغيب، أحيانا كنت أتسمع صوته يسألها إن كنت قد تناولت وجبة العشاء فتقسم له بأنني تعشيت وانبسطت، أكون صاحيا تحت الغطاء لكنني لا أتقلب أو أجرؤ علي رفعه عني أو أقدر علي تكذيبها، كنت أخاف منها وأتشكي لجدتي في الخفاء فكانت تلعنها وتعاركها إذا شافتها أو سمعتها تتحرش بي، تهددها بأن تقول لأبي بعد رجوعه من الشغل ليخلص منها، تعايرها بأصلها الوضيع وتزدريها إذا أقسمت بأنها تخدمني لوجه الله وقد تركتني أمي وتخلت عني وما فكرت في طلب رؤيتي مرة أو السؤال عني في أية مناسبة وكيف أنها انشغلت بعيالها من زوجها الثاني، تقاطعها جدتي وهي تتحسسني بيديها:

- اخرسي يا غسالة يا بنت الغسالة، يا لحاسة الصحن، إنتي نسيتي روحك يا روحية ولا إيه؟ ايش أوصلك لأمه يا بنت المراكيب؟ دا المداس اللي بتلبسه برقبة عشرة زيك.

وتسألها أحيانا باستنكار ساخر وعيناها مركزتان علي وجهها الذي كان يتلون باللون الأصفر:

- بقي هي لو كانت لسه علي ذمته كنتي تطولي تشتغلي عندها خدامة؟ دي ما كانتش ترضي تشغلك خدامة.

تسكت روحية ولا ترد أو تتسحب من المكان وهي تبرطم بكلام غير مميز، لكن جدتي كانت في بعض الأحيان تنصحني بأن أطاوع روحية وأسمع كلامها في غيابها لأن روحي بين يديها، تطلب مني أن أناديها قائلا: " يا خالتي ".

لكنني إذا طاوعتها وفعلت تبتسم ساخرة منها ثم تهمس في أذني بأن روحية لو طلعت السماء برجليها ما طالت أن تكون شقيقة لأمي، كنت أسرح بخيالي وأتخيل أمي البعيدة وهي أعلي من السماء ذاتها، أتعجب وأسمع جدتي وهي تهمس:

- أنا بس خايفة عليك منها، دي قادرة ولو طالت تسمّك ح تسمّك، أمك يا ضنايا كانت ست الستات، إنما يا خسارة.

تقول عبارتها وتسكت فترة تتفكر خلالها قبل أن تضيف:

- بس الناس الشلبي أهل أمك مالهمش أمان، الواحد منهم يحفر البير بإبرة، قلبوا دماغها بكلام فارغ، انعوج ميزانها وساقت اللّوع، بس أبوك ما طاقش، خلصها قبل ما تولدك بشهرين، ياريته ما كان خدها من الأول وخلاك يتيم وهي عايشة علي وش الدنيا.

أحاول أن أرسم صورة لوجه أمي الذي لم أره فتتوه مني الملامح وتختلط، أتجاسر أحيانا وأسأل جدتي عن شكلها فتنظر إلي بإشفاق وتهز رأسها، تحكي عن تقاطيعها الحلوة وشطارتها ونظافتها ثم تسكت، أشعر أنها تتحسر علي ضياعها وقد يئست من التفكير في استعادتها بعد أن

تزوجت وخلفت وانشغلت عني إلي حد أنها لم تعد تسأل عن أحوالي مجرد سؤال، تستعيد بعد تسبيلة لعينيها وتحدث نفسها وهي تنظر الي البعيد وكانها نسيت وجودي جوارها:

- كان وشها في وشي وعملت روحها ما شافتنيش، هما بيولدوهم وينسوهم؟ طيب تسأل وتطمن علي ضناها العيل ذنبه إيه يارب؟ العيل ذنبه إيه؟

تلتفت ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي، فتحتويني وتقبلني وربما تمنحني قرشا وتوصيني أن أشتري به أي شئ أريده، أقوم وأتحرك من مكاني متباعدا عنهم فيزداد شعوري بوحدتي، أسرح في الطرقات التي توصلني لفراغات الحقول وأنا أطل إلي السماء البعيدة وأحتمي من الشمس تحت ظلال الأشجار، أشعر بالجوع ولا أفكر في الرجوع، أبحث عن عيل في مثل سني لألعب معه أية لعبة ليكتمل تعبي ولا أحتمل المزيد، وربما لا أجد في طريقي أحدا فأخلع جلبابي وأنزل لأستحم في مياه الترعة، أعوم وأغطس ثم أعوم وأغطس حتي يتملكني التعب وأوشك في آخر غطسة أن أموت غرقا، لكنني في كل مرة كنت أخرج من الترعة وأرتدي جلبابي وأسير في أي اتجاه بلا هدف، وتتأكد غربتي في أطراف الكفر، وربما أستعيد وجه أبي وأتشكي له وكأنني أستدعيه ليرجع ويأخذني، أو أفكر في أمي التي تعيش في نفس الكفر لكنها بعيدة، وربما أسأل طيفها ممرورا لأنها لم تفكر في رؤيتي أو تبعث أحدا من أهلها ليراني ويطمئنها علي أحوالي، أشعر بالمرارة وأبكي داخلي بلا دموع خائفا أو خجلانا أن يراني أي واحد من أهالي الكفر.

●●●

- النكتة الحريمى بعشرة قروش والرجالى بخمسة وسأدفع فوراً.

كذلك قال مشرف الرحلة لركاب أتوبيس شركة الاستثمار الأجنبي حديثة التأسيس.. قطعت عبارة الشاب صمت العاملين الذي خيل إليه أنهم فرضوه على أنفسهم فرضاً،كانوا قد تجمعوا في ميدان الشهيد عبد المنعم رياض في الصباح الباكر، تبادلوا عبارات التحية الصباحية كما اعتادوا في أيام العمل.. وبسرعة جلس كل منهم في مكانه المحدد بنظام ودون جلبة.. متوارين خلف نفس الأقنعة التي اعتادوا الاحتماء بها في مكاتب العمل الرسمية.. فشركة استثمار مثل هذه الشركة تحسن اختيار من يعملون بها، سواء كان ذلك على المستوي العملي أو الأخلاقي أو مستوي الخبرات النادرة، صحيح أنها تعطي من يعمل بها أجورا عالية وبالعملة الصعبة لكنها بالمثل تلزمه بأن يسلك سلوكاً راقياً يتناسب مع اسمها العالمي الرنان، حتى في مثل هذا اليوم وهو عطلة رسمية استغلتها إدارة الشركة في عمل رحلة الهدف الأول منها تزويد نشاط العاملين.. لكنهم لم يفهموا الأمر كذلك.. ظلوا محتفظين بوقارهم الوظيفي حتى لا يفقد أي منهم هيبته أمام الآخر يضاف إلي ذلك أن مدير الفرع كان موجوداً بينهم، وهو رجل أنيق وجاد في نفس الوقت.. ويقال إنه يحمل شهادة الدكتوراة في العلوم البحتة ويجيد أربع لغات حية.. وكانت السيدة قرينته تجلس بجواره في المقعد الأمامي، وربما كان وجود السيد الدكتور قد ألقي بظله على الجميع.. على أن المشرف على الرحلة كان يرغب في إسعاد العاملين بأي شكل باعتباره يخوض أول تجربة عملية بإشرافه على هذه الرحلة.. ولأنه خريج قسم الاجتماع قال لنفسه.. لابد أن يتحول الجميع إلى أسرة، لابد من إذابة الجليد بين البشر.. فليتحول الوقار إلى بساطة والصمت الحذر المتوجس إلى ضحكات.

كذلك كان يفكر خريج قسم الاجتماع.. أما السيد مدير الشئون الإدارية

فكان له رأي مختلف.. لم يصرح به علناً وإن كان قد نظر إلى المشرف نظرة استنكار مستهجن.. فتلك التصرفات لا تليق في حضرة السيد مدير الفرع.. صحيح أن المنظار الشمسي الذي كان يضعه على عينيه قد حجب نظرته فلم يلحظها المشرف، لكنه كان من الواجب أن يلحظ بوزه الذي امتد في شئ من الامتعاض، والله وحده يعلم إن كان المشرف قد لاحظ وتجاهل أو أنه لم يلحظ على الإطلاق.. لكن ما حدث بعد تلك النظرة هو أن المشرف قطع الصمت مرة أخري.. وبإلحاح وإصرار قائلاً لمجموعة العاملين وكأنه يحرضهم ويغريهم:

- هيه.. قلت لكم النكتة الحريمي بعشرة قروش والرجالي بخمسة.. مالكم؟.. هل فقدتم الرغبة في الضحك؟

تململ الوقار على الوجوه.. رفت مشاريع البسمات على الثغور. دارت في الأذهان أفكار مرحة.. لكن وجود السيد الدكتور مدير الفرع كان يشكل للعقول عائقاً يمنعها من الاسترسال في مثل هذه الأفكار المرحة وفكر موظف يحب الضحك قائلاً لنفسه: هل يجرؤ المشرف على الاستئذان منه أولا؟ وهو الرجل الحازم الصارم الذي لم يره أيهم مبتسماً في أي الحالات؟.. وحتى لو فكر في الاستئذان فإنه كان لا يثق أنه سيعرف كيف يصوغ الكلمات. هل كان من الممكن أن يقول مثلا:

"سوف نضحك يا رئيس الفرع.. هه.. سوف نضحك.. هل تسمح لنا بساعة من الضحك "؟

أفكار مثل هذه الفكرة دارت في بعض الخواطر، خصوصاً بعد أن طرح المشرف اقتراحه للمرة الثانية.. ووجد شيئاً من الاستجابة الحذرة.. صحيح أن مدير الفرع لم يلتفت ليمنع المشرف من الاسترسال في هذا الاتجاه.. لكن هل يعني ذلك أنه موافق؟ ولماذا لا يكون الرجل أعظم من أن يعقب على

مثل هذه السفاسف الصغيرة؟ ربما يكون الرجل راغباً في الضحك هو الآخر.. ربما.. فهو في نهاية الأمر إنسان مثلهم.. ولا شك أن الضحك سلوك إنساني بحت.. الإنسان حيوان ضاحك " كذلك فكر مشرف الرحلة قبل أن يقطع الصمت للمرة الثالثة:

– الذي يراكم يحسبكم ذاهبون لتشييع ميت.. أنتم في رحلة.. رحلة.. أجازة من كل شئ..

كذلك صرح بأدب الشاب المشرف خريج قسم الاجتماع ليذكرهم بحقيقة كادت بالفعل تغيب عن أذهانهم. حدثت اهتزازة جماعية، وسرت همهمات.. التفت السيد الدكتور بنفسه إلي الخلف.. حط نظرته على مدير الشئون الإدارية مباشرة.. تحسس الآخر رباط عنقه بسرعة خاطفة مخافة أن يكون غير مكانه اللائق وهو أمر لا يليق بمدير شئون إدارية لشركة استثمار أجنبي تدفع الأجور لمن يعملون بها وهم من كبار المحظوظين بالعملة الصعبة في زمانهم الصعب.. أومأ مدير الفرع برأسه يستدعيه بأنفة وشموخ فقام الآخر من مقعده.. رمي مشرف الرحلة بنظرة نارية وتعثر في خطواته قبل أن يقف في محاذاة السيد مدير الفرع.. ثم انحني نصف انحناءة مدربة وجعل يتسمع في أدب جم.. كانت ملامحه تتبدل من العبوس المطلق إلى التهاون ثم الدهشة.. ثم جرؤ في أعقاب كل هذا التبدل على النظر إلى وجه السيدة قرينة مدير الفرع.. لكنه سرعان ما سحب نظرته كما تقتضي بذلك أصول اللياقة والأدب. اعتدل في وقفته فبدا الفارق بين طوله الحقيقي وطوله لحظة الانحناء ، نظر إلي مشرف الرحلة وأومأ برأسه.. تماما مثلما فعل معه مدير الفرع منذ لحظات.. لكن مشرف الرحلة لم يستجب له.. تجاهل ربما.. وربما لم يصدق أن مدير الشئون الإدارية يومئ

له هو بنفسه.. تلفت حوله فقطع عليه الآخر كل المحاولات الهروبية بأن أشار بسبابة يده اليمني نحوه قائلاً في جدية:

- أنت.. نعم أنت.. تعال هنا.

وبنفس الطريقة تلفت المشرف حوله بحثا عن آخر يقصده مدير الشئون الإدارية.. وهنا تطوع البعض بتنبيهه إلي أنه يريده هو.. وقد ظن المشرف للحظة أن عقابا صارما سينزل به حالا.. وفي تكاسل وبطء زحفت خطواته ناحية المثلث البشري الذي يقعد ضلعاه ويقف ضلعه الثالث متواريا خلف منظار شمسي لا يشي بما في العينين من أفكار.. وعندما وصل إلي الواقف في اعتدال توقف.. وبسرعة دار حوار هامس بينهما.. وتوقع البعض أشياء وأشياء لكنهم سرعان ما كفوا عن شطحات عقولهم عندما ابتسم المشرف واخترق الحيز الضئيل بين مدير الشئون الإدارية ومدير الفرع.. ثم اقترب من السيدة قرينة رئيس الفرع وابتسم.. مد يده إلي جيب سترته وأخرج بعض الأوراق المالية من فئة العشرة قروش.. تنهد ثم قال بصوت مرتفع:

- يبدو أننا سنبدأ مشوار الدفع.. أمرنا لله.. المدام عندها نكتة.. لو أضحكتكم تكسب.. تفضلي يا مدام..

تلفتت السيدة حواليها قبل أن تتفضل بالوقوف.. في أول الأمر تحرجت من مواجهة النظرات التي تنصب عليها في عجب ودهشة.. لكنها كانت قد دخلت التجربة واستحال عليها التراجع.. نظرت إلى يمين المشرف الممسكة بورقة مالية جديدة وابتسمت.. تبسطت ومدت يدها إلى الورقة المالية بينما المشرف يبعدها عن متناول يدها إلى الخلف.. تاركاً أناملها الرقيقة تقبض على الفراغ.. انكتمت مشاريع الضحكات حذراً وأدباً ولياقة، قال المشرف:

- لا.. ليس الآن.. بعد أن نسمع النكتة ندفع.. الأجر بعد أداء العمل..

تفضلي.

كان من العسير على السيدة أن تلقي بنكتتها في تلك اللحظات، وكانت تحتاج إلى مساعدة ما.. شئ أو شخص ينتشلها من المأزق الذي وضعت نفسها فيه.. ولم تجد غير المشرف المبتسم الجريء.. مالت عليه وبدأت تهمس في أذنه ببضع كلمات.. كانت ابتسامته تزداد ولا أحد يدري إن كان يعبر بابتسامته تلك عن سعادة أم عن استخفاف، المهم أنه استمر يسمع ويبتسم ويهز رأسه.. وبسرعة جلست السيدة بجوار الدكتور رئيس الفرع وكأنما لتحتمي برئاسته لكل هؤلاء.. تحرك المشرف إلى منتصف السيارة وأعلن:

- المدام تعتذر لكم أولاً لأنها لم تستطع إلقاء نكتتها بنفسها.. وهذا أساسي للمسابقة.. فإذا قبلتم استثناءها من هذا فأنتم أحرار.. أنقل إليكم النكتة نيابة عنها.. هيه.. ما رأيكم؟

وتعالت الأصوات المجاملة بالموافقة في حماس ظاهر..واكتفي المشرف بهذا التأييد الجماعي وقال لهم النكتة.. كانت نكتة قديمة ومعادة.. وكان من الممكن أن تحظى بفشل عظيم.. لكن لأنها أولاً لسيدة عظيمة القدر في مركز محترم، وإن كانت لها ميول شعبية فإنها كانت تستحق التشجيع. ثم إنها كانت البداية، فتناثرت الضحكات هنا وهناك.. ثم ما لبثت كل الأركان تضحك.. وتضحك في صخب هادر.. ضحكات مجلجلة تليق بنكتة حرم مدير فرع شركة استثمار أجنبي.. شركة لها سمعتها العالمية وشهرتها الذائعة.. ولا أحد يدري إن كان الضحك المتواصل الذي لا يرغب في الانتهاء كان مجرد مجاملة حسنة النية أم أنه كان نوعا من السخرية الخبيثة.. لا أحد يقدر على التحديد في مثل هذه الحالات حتى المشرف نفسه.. "الضحك هو

الضحك " كذلك قال لنفسه وهو يقترب من السيدة وقد مد يده بالورقة المالية باسماً.. وبسرعة امتدت يدها بطريقة بدائية واختطفت الورقة المالية وكأنها لم تحصل في حياتها على أية مكافأة من أي نوع.. ومن جديد تعالت الضحكات، ضحكات هستيرية هوجاء يستحيل تصديق أي ادعاء بأنها استمرار للضحك على النكتة القديمة الشائعة، وكان مدير الفرع حتى هذه اللحظة يتواري خلف وقاره المعتاد ويبتسم مقدراً أن قرينته حتى هذه اللحظة هي محور الضحكات وأنه برغم كل شئ يمكن أن يعتبر نفسه خارج حلبة السخرية التي أوجدتها نكتة قديمة ومستهلكة.

لكن لأنه في المسائل أو الأنشطة الاجتماعية تكون ضربة البداية الناجحة هي الأساس السليم الذي يحدد حجم المسار، ولأن ضربة البداية كانت من فعل حرم السيد رئيس الفرع وبغض النظر عن كونها كانت نكتة ماسخة وقديمة إلا أن المشرف وجمهرة العاملين كانت تري البداية جد مشجعة، وفي مثل هذه الأمور وفي وجود رئيس فرع الشركة فقد كان المتوقع والطبيعي بل واللائق إداريا أن يشارك الجميع في اللعبة.. لقد انزاح كل الخوف والتوجس المتحفظ.. وذاب الجليد البشري الذي يسمونه بالوقار في هذه الشركة، وتتابعت النكات الجادة الهادفة والغبية الحمقاء.. وبدأت الأقنعة الرسمية تتهاوى وتسقط.. تحول رؤساء الأقلام إلي أنصاف مهرجين يستجدون الضحكات، وظهرت شخصية عامل التليفون ليصبح سيد الموقف تماماً، فهو يحفظ عشرات النكات الجديدة والقفشات الذكية القادرة على إضحاك الطوب الرملي، كان يحصل علي خمسات القروش في أول الأمر، ثم أدرك بحسه الوظيفي أن مشرف الرحلة غاص في حسابات خاصة، أدرك أنه تجاوز المسموح المادي الذي قدره لتنفيذ فكرته.. وببساطة أعلن أنه

متنازل عن كل المكافآت.. يكفيه إضحاك الناس بلا مقابل، بل إنه اقترح أن يدفع من يقول نكتة قديمة أو سخيفة غرامة بسيطة.. قرشاً أو قرشين، وفي فورة الحماس الضاحك وافق الجميع.. وبدأت القروش تزحف في بطء في عكس اتجاهها الأول، إلي جيب المشرف.. غير أن الضحكات لم تتوقف.. حتى النكات السخيفة ضحكوا عليها أو على قائلها لحظة الدفع الإجباري.. بل إنهم بدأوا في توريط البعض بالإصرار على عدم الضحك إثر إلقاء النكات حتى يدفعوا للمشرف.. كان من العسير إيقافهم تحت أي ضغوط.. كانوا قد انفلتوا تماماً ونسوا كل ما كانوا قد جاهدوا للتظاهر به.. ظهر ما كان مستوراً تحت الثياب والأوضاع الوظيفية، تحولوا إلى مجتمع بشري حقيقي، متواصل وبسيط، ورغم وجود السيد مدير الفرع والسيدة قرينته لم يستح مدير الشئون الإدارية في فورة حماس من الوقوف في منتصف السيارة قائلاً للولد عامل التليفون البارع في التطبيل على سقفها:

– ملعون أبو الدنيا.. رقصني يا جدع.

علي هذا النحو تحولت رحلة الوقار والتحفظ إلى تهريج غير متوقع من الجميع.. كان مشرف الرحلة يرصد حركة الوجوه وهي تتحول من التحفظ الحذر إلى السخريات التي تشمل كل شئ.. كل شئ، وكل إنسان.. انفلات لا يعرف الحدود ولا يؤمن بالمراكز التي طالما حسبوا لها ألف حساب.. كان مشرف الرحلة قد أصبح علي هامش الأحداث، فعامل التليفون أقدر منه على إدارة الأمور بخفة دم نادر. كان السيد مدير الفرع حتى هذه اللحظة يبتسم فقط وكان الوحيد الذي ظل متوازناً وموزوناً في مواجهة هذا الفيض من الضحكات الهادرة، وكانت السيدة حرمه تشارك بضحكات مجلجلة مثل الجميع.. لكنه رغم ذلك قاوم وقاوم وقاوم.. ولا أحد يدري لماذا فرض على

نفسه مثل هذا التوازن المستحيل.. هل هو المركز الذي يحتله؟ أم هو الوضع العلمي المتألق الذي وضعه في خانة حملة الدكتوراة ولابد أنه اعتبر هذه الدرجة العلمية تستحق العزلة والاحتماء بلقبه؟ أم لا هذا ولا ذاك؟، ربما يرجع ذلك إلى تكوينه النفسي، ربما يكون إنساناً مختلفاً آمن بأن الضحك مفسد للعقول والنفوس.. ولذلك لم يسمع أيهم ضحكته تجلجل حتى جاءت لحظة.. لحظة خارقة للعادة.. لحظة تهاوت فيها كل استحكاماته النفسية وانطلق يضحك في جنبات السيارة ضحكة مخنوقة في أول الأمر.. مترددة وحذرة أولاً.. لكنها اندفعت كسيل هادر لا تتوقف.. كأنها مخزون الضحك الهادر الذي كان محجوزاً في داخله لسنوات وسنوات.. دوت ضحكة مدير الفرع وحده.. جلجلت لتزيح آخر معقل من معاقل الإدارة.. وهنا.. وربما بعدها بجزء من اللحظة ضحك الجميع.. ضحكوا على تركيبة الضحكة نفسها ربما.. على المفاجأة.. وربما.. على الشعور بأنه قاوم طوال هذا الوقت دون سبب معقول.. ربما.. وألف ربما.. لكن مدير الفرع أصبح في بؤرة الحدث.. طالبوه بأن يشاركهم في التنكيت فتمنع قليلاً ثم فكر ثم قال لهم نكتة قبيحة على غير ما كانوا يتوقعون خصوصاً وأن قرينته تجلس بجواره.. وعلى عكس ما كان منتظراً ضحكت السيدة قرينته قبل الجميع، وبشكل ماجن.. وضحك الناس.. ليس لظرف النكتة وإنما للملابسات التي لازمتها..

وبدا الأمر غير مفهوم على الإطلاق حتى اقتراح عامل التليفون على مدير الفرع أن يلقي عليهم نكتة أخري ليعوض صمته الذي طال أولاً.. وتلقف مدير الفرع اقتراح الولد عامل التليفون وقال نكتة داعرة أخري وضحك الجميع.. وضحكت السيدة التي تجلس بجانبه.. ثم ساد صمت.. وكأنما

راجع السيد الدكتور نفسه عبر لحظات.. وأدرك إلى أي حد سقط في هوة التهريج.. ولا يدري أحد كيف استطاع هذا الكائن البشري أن يستجمع نفسه بهذه المقدرة وأن يتجهم.. هكذا فجأة تجهم رئيس فرع الشركة.. وبدا للجميع كائناً آلياً يستطيع أن يتحكم في صماماته وأجهزته وقتما يشاء.. وبسرعة أصدر أوامره بصرامة وحسم:

- كفوا عن التهريج.. أنتم تعملون في شركة محترمة..

كذلك قال مدير الفرع وسط الدهشة الجماعية على الوجوه.. وكذلك فرض عليهم الصمت للحظات كأنها الجحيم نفسه.. كانت صلعة الرجل الذي استدار تلمع بينما يصدر أوامره.

- رأسك ذكر قلقاس.. ها ها ها ها..

كذلك انطلق صوت الولد عامل التليفون موجهاً كلامه لرئيس الفرع.. وهدرت الضحكات من جديد.. وتلفت الرجل حوله بينما الكل يضحك.. دارت عيناه في محجريهما كأنهما عينا فأر مذعور في مصيدة لا يعرف لنفسه مخرجاً.. صرخ:

- عيب يا ولد..

لكن الولد لم يهتم، أطلق ضحكة ساخرة قبل أن يقول:

- قفاك بقصة.

ثم راح يضحك..

ورغم ما حاوله مدير الفرع ليبدو مستعلياً على الجميع فقد ساهم الكل في السخرية منه ومن تصرفاته غير المفهومة.. كان الغطاء قد انكشف.. ولم يعد أي منهم قادراً على تصديق أن هذا الرجل هو نفسه السيد الدكتور رئيس فرع الشركة العالمية حديثة التكوين.. والذي يجيد أكثر من لغة.. ورغم صراخه وتهديداته بلسانه وكلتا يديه كان الكل يضحك، يهدرون

بالضحكات على هذا الكيان القميء الذي نال منهم في الماضي قدراً من الاحترام لم يكن يستحقه.

●●●

ورثتها عن أبى عن جدي الأول عن أحد أجدادي القدامى الذي لا أعرف على وجه الدقة ترتيبه في سلسلة الجدود، ولكنني وجدتها هكذا وسط مجموعة من الأوراق القديمة التي تخص ميراثنا القديم من عقود بيع وشراء عقارات وأراض زراعية وأشياء أخري لا أعرف أهميتها أو أسباب وجودها في تلك الخزانة القديمة المسكوكة بقفل قديم صدئ السطح لكنه لا يتعطل عن العمل أبدا، أفتحه بمفتاحه فيفتح بيسر، أقعد أنا أمام باب الخزانة وأقلب في الأشياء، أتأمل أوراق العملة القديمة التي لم يبدلها أحد قبل أن يبطل استخدامها، أتحسس سطوح البارات والخردات والملاليم وأنصاف الفرنكات الفضية والريالات وأنصافها وعلى وجوهها الكتابة على شكل "طرة" وصورة الخديوي لابس الطربوش. أمسح بأناملي سطوح ساعة الجيب القديمة المعطلة أو المشبوكة في سلاسل معدنية، وأجرب في أصابعي الخواتم ذات الفصوص الضخمة التي لا أعرف لأي الأحجار الكريمة تنتمي، أسبح بحبات المسابح الباقية وأتأمل عقود "الكارم "الأصفر المتنوعة الأحجام، ثم أخرج الصورة من داخل الخزانة وهي في بروازها الصلب من خشب الأرو، وقد زال عنه الدهان، امسح زجاجها بكفي المفرود لأزيل عنها ما قد يكون عالقاً بها من الرماد، أضعها أمامي وأتأمل وجه جدي الكبير جاد الملامح بشاربه المبروم وأنفه المستقيم البارز، يتسلل إلى داخلي من دون أن أعرف الأسباب نوع من الزهو المفاجئ فأرفع هامتي وأشمخ بأنفي، أتوهم أنني اكتسبت في تلك اللحظات مهابة وصارت لي هيبة.

أدقق النظر في الوجه الصارم التقاطيع، وتنتقل عيناي إلى يده القابضة

على العصا الأبنوس بشدة فيشتد عزمي وتنطبق قبضتي بقوة فلا تمسك غير الفراغ، أصحو لنفسي من أثر الضغط، ضغط أطراف أصابعي على كفي، أنظر إلى البعيد فرارا من نظرة اللوم في عينيه، أشعر بالارتياح أولا ثم يحاصرني خوف مجهول المصدر سرعان ما يسلمني إلى مكابدة الإحساس بالضآلة أمام وجهه، أسارع وقد حاصرني الخوف فأقلب صورته على وجهها، أتأمل ظهر البرواز وتنحني هامتي في وهن، أشعر أنني سوف أتلقى ضربة مباغتة من كف خفية فوق قفاي الذي لابد انه استطال وصار جاهزا للضرب، هي حال من الرهبة تعقب الشعور بالزهو وتفسدها،أفسر الأمر لنفسي على أنه لابد من وجود روح شريرة تسكن المكان وتحوم فيه، تمنعني من رفع الهامة أو اكتساب المهابة اللائقة بسليل هذا الجد الكبير، ولابد انه عدو قديم لذلك الجد الكبير نفسه، جاء يطاردني بسبب ضعفي وقلة حيلتي، وأقول لروحي إن أعداءه في الزمن القديم يتربصون بي يحاصرونني لأنني حفيد الرجل الذي دوخهم في حياته، وان أعداء الأمس هم أنفسهم أعداء اليوم والغد إلى يوم الدين، أنكمش على روحي ثم أفرد طولي بعسر، وأنا أسمع صوت أبى يحدثني عن الصندوق: " فيه ميراثك فحافظ عليه، ولا تفرط فيه لآخر يوم من عمرك ".

أقوم من جلستي وأتحرك في المكان كأنني أهش الذباب والهوام من حولي، أطارد الأشباح والأرواح وأزيحها عني، أرفض ما كنت صدقته مرة من أنني إنسان متحضر ومسالم وأنني بإخفاء الصورة أشتري ود الأرواح الشريرة، أعيد كل الأشياء إلى مكانها في الصندوق، أعيدها بنظام وحرص يليقان بها، لكنني أترك الصورة وأمسك الخزانة بقفلها القديم، بعدها أتجاسر للمرة الأولى وأعلق الصورة على أقرب جدار، يبدو لي أن صورته المعلقة سوف تساعدني على طرد الأشباح والهوام السابحة وأرواح الأعداء

القدامى، وكنت أحدق في عينيه وأبادله عبوساً بعبوس وغضباً بغضب وأعايش الرغبة في معاودة الزهو والطلوع.

●●●

لو شئت الصراحة فسوف أعترف لك الآن بأنني رجل لم يعرف قدراته الفعلية أو إمكانياته الحقيقية في أية مرحلة من مراحل عمره، رجل لم يعرف حدوده ليقف عندها بحيث لا يتراجع أو يتقدم إلا في الوقت المناسب، ولعلني قررت بعد أن استوعبت الدرس الصعب أو بعد فوات الأوان أن أكف عن السرحان في أحلام اليقظة التي تسلمني للأمنيات الوردية مخافة أن أتطوح في آفاقها الرحبة التي لا تحدها حدود ثم أسقط علي أم رأسي علي صخرة الواقع الخشن بكل تفاصيله، أكابد المزيد من الشعور بالإخفاق والانكسار، ذلك أنه كان قد تأكد لي بعد كل المكابدات المجانية أنني رجل يليق به أن يعيش في الهامش وبشكل أبدي، رجل لا يحق له حتي أن يحلم مجرد حلم في أن يتطوع صديق طيب مثلك بتطييب خاطره ولو ببضع كلمات لاتكلفه شيئا، لكن لأنك صديقي القديم فسوف أبوح لك بتلك المصادفات التي حبستني في شبه دائرة محكمة لا أستشعر فيها إمكانيات التحقق كما أبتغي، أخرج من دائرة فأدخل دائرة أخري، سلسلة من الدوائر المتلاحمة التي لاتتيح للبني آدم أية قدرة علي الانفلات، وعندما يتأكد عجزي أستسلم لتفسير الأمر علي أنه " قسمة ونصيب " كما كانوا يقولون في سوق المواشي التي شارك المرحوم والدي في تجارتها زمنا فانكتب علي أن أتعرف علي تفاصيل السوق ومساراته وسراديبه طفلا وصبيا وشابا".

" قسمة ونصيب " كما كنت أسمعها في الحالات التي يرتفع فيها شأن البعض علي حساب البعض الآخر، أو يتخطي خلالها الأصاغر كل الأكابر،

لم تكن هناك في سوق المواشي موانع أو قواعد يلزم مراعاتها أكثر من ترديد بعض الكلمات الطنانة عن الشرف والصدق والحمد والشكر للخالق علي الستر والصحة والرزق الحلال " قسمة ونصيب " يقولونها في أشد حالات العسر والخسران بغير مخرج ولا أمل في تعويض مثلما حدث مع والدي رحمه المولي جل شأنه في مثواه الأخير فقد فقد كل شيء في أواخر سنوات عمره، المال والصحة ووفاء الأهل والصحاب والشركاء، كنت أنا في مطالع الشباب مثل شعلة الأحلام الوردية لكن " القسمة والنصيب " تسببا في كسر خاطري.

" البداية كانت طفلا يحلم ويتمني أن تتاح له الفرصة كي يطير، يطير ويحلق في فراغ الكون دون أن يوقف مساره أحد، يرقب الدنيا من البعيد البعيد وبمحض اختياره يعود أو يسرح ليحط في دنيا غير هذه الدنيا ويتعامل مع ناس أو كائنات غير هؤلاء الناس أو تلك الكائنات ".

كنت قد تربيت إلي جوار سوق المواشي وكنت بيني وبين نفسي أحتج علي سلوكيات ناسه بداية بالأب الذي لم يتورع عن ارتكاب بعض المؤامرات الصغيرة أو الكبيرة ليرتفع نجمه وتتسع تجارته ويذيع صيته، لكنهم انتقموا منه أو قل خانوه في نهاية المطاف، أنزلوه أو قل أسقطوه بعنف إلي أسفل سافلين بعد أن جردوه من كل ما كان يتباهي به أو يحوزه، كسروه بضراوة وقسوة فلم تقم له بعدها قائمة، لكنه برر سقوطه بنفس العبارة المكررة "قسمة ونصيب " وأضاف إليها تفسيرا من عنده ليريح نفسه أو يضحك علينا وعلي نفسه " الدنيا انقلب ميزانها.. واطيها ركب فوق عاليها وتاهت فيها الأصول " صدقته وتأسيت لحاله دون أن أجرؤ علي البوح له بأنني كنت أتوقع له هذه السقطة ولا أجرؤ علي تحذيره منها، وهل كان من

الممكن أن أحذره وأنا ابنه الصبي أو الشاب الطالع من صلبه؟ كانت الدنيا قد دانت له وطابت وزهزهت من حوله فانسطل بفعلها وعايشها بنصف وعي، تماما مثلما كان يجلس وسط أتباعه حول راكيبة النار الملتهبة يرصونها له ببراعة فوق أحجار المعسل المغموسة بأنقي وأثمن عبوات الحشيش من خيره وحر ماله، كنت بالقطع أخافه وأنتظر مشوار الرجوع إلي دارنا بالقرب من مدخل السوق وقد انقسم هو علي نفسه نصف واع ونصف مدرك فأتجاسر وأسر له ببعض مخاوفي عليه فيدمدم بأنصاف ردود لا تشفي القلب الحيران ولا تبعث الطمأنينة في العقل القلقان.

لا أخفي عليك أنه كان في بعض الأحيان يفاجئني ويبهرني بكلام أشبه بكلام الحكماء، وبعيدا عن تلك الروايات المتواترة حول سيرة النبي محمد أو قصة أبي زيد الهلالي سلامة التي كان يحفظها عن ظهر قلب ويدندن بها في ساعات النشوة رغم عجزه عن القراءة والكتابة، وبعيدا أيضا عن تلك الأمثال التي كان يقولها بالمقاس في أي المواقف فتبدو مثل ثوب محكم التفصيل لابسة علي الحالة دون زيادة أو نقصان، كنت أقول لنفسي أنه نصف نبي أو أنه عارف بكل ما يدور حوله من ملاعيب لكنه يتغابي بإرادته واختياره، وقد كان هو الذي أفهمني في لحظة صفو نادرة أن لكل شيء في هذه الدنيا حدودا لايحق للبني آدم أن يتخطاها حتي في أحلام يقظته ، وأفادني بأنه يحق لي عندما أكبر مثلا أن أدخل مدرسة الطيران بالواسطة بدلا من السرحان العبيط في أحلام اليقظة، وأكد لي أنني لو دخلتها فسوف أتعلم الطيران علي أصوله، وأنني بالقطع سوف أتسلم طائرة حقيقية ويسمح لي بأن أحلق بها في مجالنا الجوي أو في أي مجال جوي آخر شريطة أن أحصل علي الإذن أو الموافقة من أصحاب المجال الجوي

الذي أنوي التحليق فيه بطائرتي، ورغم كل التفصيلات التي أفادني بها فقد كنت أطمع في المزيد، ورغم عدم ترحيبي من داخلي بفكرة الطيران في حدود محددة أو مجال مسموح بعيدا عن كل المجالات غير المسموحة، إلا أنه زود طموحي ورسخ رغبتي في الطيران في مستقبل الأيام.

ذاكرت تنفيذا لوصاياه وتفوقت بأكثر مما كان يتمني لي أو يتوقع مني، لكن النجاح بتفوق لم يكن يكفي، كانت هناك إجراءات يلزم اتباعها وقد تطوع من ناحيته بعمل كل الإجراءات ليتحقق ما كنت أحسبه حلما ورديا، صرت علي الباب أنتظر، لكن " القسمة والنصيب " أو ما جري لي لم يكن بسبب الكشف الطبي الذي خوفوني منه في البداية، بل إنه كان هناك في تاريخي موقف لم أكن أحسبه سرا خطيرا مخفيا بحساباتي علي الأقل وراء إبعادي، صحيح أنهم ادعوا أن نظري ضعيف بأكثر مما تسمح به لوائحهم وبأن قلبي خفيف بأقل مما يليق بطالب يتعلم الطيران، وأضافوا أيضا أن جهازي العصبي فلتان ومشدود وغير مأمون العواقب، لكنه ما لم أكن أعتبره سرا خطيرا مخفيا وانكشف كان وراء إبعادي من كشف المقبولين، وكان الرجل الذي وعدنا بدخولي عالم الطيران هو الذي فضحهم.

كان الرجل قد تسلم المقابل يدا بيد من أبي في حضوري علي سبيل الرشوة، لكنه عندما فشل في إدخالي لم يخف علينا شيئا مما سمعه أو رآه في لجنة التصفيات الأخيرة، أيامها كانت الرشوة منتشرة ومألوفة ومحددة بالأرقام، وكان الرجل الذي أغضبه ما جري له ولي يقسم ويؤكد بكل الأيمانات أنني كنت سليما من كل النواحي الصحية وأنني كنت أملك نظرا حادا وقلبا صالحا يعمل بكفاءة وجهازا عصبيا منسجما لا تشوبه شائبة، وأضاف أنه عمل كل ما كان يلزم وأكثر لإدخالي لكنه لم يفلح، أكد لأبي أن

حجة الكشف الطبي باطلة، وبدا لي ولأبي أن الرجل كان صادقا في كل ما قاله، وعندما أخرج المظروف الملفوف ليرده لأبي أشفقت عليه، كان قد همس بأن المظروف يحتوي علي المبلغ الذي أخذه من أبي علي سبيل الرشوة، لكن أبي أزاح بيمينه تلك اليد الممدودة في حسم رغم إلحاح الرجل الذي كان متحيّرا في أمر نفسه، فوضع المظروف فوق حافة المكتب بينما يواصل حكاية كل ما دار في لجنة القبول، صحيح أنه أخذ المظروف غصبا عنه كما كان باديا عليه بينما كان يغادر المكان، لكنه أخذه تنفيذا لرغبة أبي التي كان فيها شئ من الوعيد المخفي الذي لابد أنه أخافه من تاجر كبير ومحسوب حسابه في سوق المواشي وله علاقات بأكابر البلد يمكن مثلا أن يتسبب له في فضيحة تضيع مستقبله ككاتب في مدرسة الطيران.

ولأن أبي اعتاد في سوق المواشي أن يدفع قبل أن يقبض مطمئنا بأنه سوف يكون كسبانا في كل الصفقات وكل النهايات، وبغض النظر عن سمسار صغير كذاب يلعب علي الحبلين أو صبي من صبيانه يسعي للقفز خطوة إلي الأمام في سوق المواشي علي حسابه، فماذا كانت قيمة الرشوة ليستعيدها من رجل خدمه من حيث لا يدري عندما كشف له أكاذيب الأكابر الذين كانوا قد وعدوه وأكدوا وعودهم؟ المهم أنه اكتشف يومها أنني شخص غير مرغوب فيه عند من يتولون أمور الطيران والتحليق في الفراغ عاليا لأتمكن من مراقبة العالم من فوق، كانت لديهم تلك الأسباب الواهية التي بدت له عارضة وهامشية ولا تسوغ لهم ذبح حلم عمري أو إزاحتي بعيدا عن مدرستهم مكسور الخاطر لأول مرة في حياتي.

باح الرجل لأبي بأنني علي المستوي السياسي غير مأمون الجانب فتذكرت علي وجه الخصوص جماعة الخطابة التي كنت عضوا فيها والتي

كان يشرف عليها الأستاذ التوابتي وكيف أنه كان يباهي بي قبل أن يقدمني لأطلع علي المنبر الصغير الخاص بجماعته، أطلع مزهوا بنفسي ثم أخطب في الحاضرين عن أي شئ يخص الوطن، كنت أبدو لهم متحمسا ومخلصا في دوري كخطيب مفوه وفارس كلمة لايشق له غبار، وكانوا يصفقون فأحييهم وأنزل بينما يصعد الأستاذ التوابتي مكاني ليمتدحني ويؤكد لهم متباهيا أنه اكتشفني، كان في الفصل يقرأ للتلاميذ ما يتيسر من موضوعات الإنشاء التي أكتبها، ويطلق علي اسم مصطفي كامل بدلا من مصطفي فاضل الذي هو اسمي الحقيقي، كنت أقول لنفسي وماذا يهم يا ولد؟ كامل أو فاضل؟ المهم هو الاستعداد لخدمة الوطن.

" كانت جماعة الخطابة إذن هي سرك المفضوح؟ الخطابة يعني سياسة، والسياسة خطوات تخطوها علي مهل عكس اتجاه الحكومة عميلة الإنجليز، وأنت بنفسك مشيت في اتجاه الحارة السد التي توصل إلي منطقة المستبعدين فاحتمل ".

بدا لي أن أبي كان يدمدم بمثل هذا الكلام ونحن في مشوار الرجوع من " المحششة " بينما أنا نصف غائب ونصف واع لأنه سمح لي لأول مرة في حياتي بأن أشاركهم الأنفاس، كأنما كان يسعي لتغييبي أو لتنبيهي، تغييبي عما فات وانقضي وتنبيهي بما هو آت، وأنا من ناحيتي راجعت نفسي بيني وبين نفسي دون أن أفقد ثقتي في قدراتي، قلت لروحي إن الأحوال سوف تتعدّل إذا عدّلت أنا مساري، وراجعت كل الاختيارات وتوصلت لنتيجة مؤداها أن الزعامة أفضل من التسكع في الفراغ طائرا بلا هدف، وتذكرت كيف كنت في المدرسة الثانوية زعيما بالفعل بسبب الخطابة، كنت عندما أقف في طابور الصباح وأهتف ولو بصوت خافت:

- يسقط الاستعمار.
- يسقط الاستعمار.
- الجلاء بالدماء.
- الجلاء بالدماء.

يرددون الهتاف ورائي ويسارعون بحملي علي الأعناق، نخرج من باب المدرسة الذي ينفتح علي مصراعيه وندور في جنبات المدينة، وبرغم وجود الزعامات في المدارس الأخري إلا أنني كنت أشعر أنني أكثرهم تأثيرا وقدرة علي صياغة الهتافات التي تليق بما كان يجري حولنا، كنت أتعرض لمضايقات الشرطة وضربات الهراوات والعصي، لكنني كنت أفلح في الفرار منهم، يطاردني العساكر بتوجيهات الضباط لكنهم يعجزون عن اللحاق بي، ومرة وحيدة أمسكوني واقتادوني إلي مركز الشرطة مع العشرات من زملائي تلامذة المدارس وزعمائهم ضربونا بالعصي الغليظة فاتهمتهم بالهتافات بأنهم عملاء للاحتلال الإنجليزي فردد التلاميذ كلماتي رغم وجود العساكر والضباط وآثار الخبطات علي الأصداغ والأبدان، تحول المركز إلي صرخات تتوجع واتهامات تتعالي وتنفذ إلي الشارع، هل كان دخول الناس مبني المركز في تلك الظهيرة الشتوية مصادفة أو أنه كان استجابة للهتافات الوطنية والتحريضات التي كنت أصوغها عبارات موزونة ومسجوعة فيرددها الناس داخل وخارج مبني المركز في ذلك النهار؟

كان أبي قد وصل، كتب مثل كل الآباء تعهدا بحسن تربيتي ورعايتي ومتابعتي، وفي الركن أوصاه المأمور بأن يحافظ علي حياتي بأن أكف عن تأدية دور زعيم المدرسة أو تقمص شخصية الزعيم مصطفي كامل الذي أسرّ له بأنه مات مسموما بمؤامرة إنجليزية غير معلنة، وذكره بأن الإنجليز

مازالوا يحكمون البلاد من وراء القصر والحكومات المتتابعة.

كان الرعب المرسوم علي ملامح أبي يخيفني لأنه صدق كل ماسمعه، وعبثا حاولت في مشوار الرجوع أن أوضح له أن المأمور يخيفنا ويزرع في قلوبنا الرعب لنكف عن المظاهرات، لكن أبي كان يسمع ولا يعلق، ولعله بعد تلك الواقعة زوّد جرعات المخدر التي كان يدخنها، ولعله بدأ مشوار الانحدار نازلا ومتنازلا عن مكانته التي كان قد بلغها بالجهد والحيلة والاحتيال أحيانا.

قلت لنفسي بيني وبين نفسي: أدخل كلية الحقوق لأكون زعيما حقيقيا، لكن أبي اعترض بشدة، كان يتخيلني طبيبا بشريا أو حتي بيطريا، كان من المحتم أن تنتصر إرادة الأقوي، وكان أبي هو الأقوي لأنه أخذ أوراقي وقدمها بنفسه إلي كلية الطب، ومن ناحيتي لم أكن أهتم بتلك الدراسة ، كأنني كنت أعانده وأعاند الحكومة وأعاند نفسي أيضا، قضيت ثلاث سنوات بطولها وعرضها دون أن أتعلم شيئا في مدرسة الطب غير أعراض الزكام والحمي الروماتيزمية ونسب المصابين بالبلهارسيا في مصر المحروسة، وربما بسبب كراهيتي لمنظر الدم لم أحضر واحدة من محاضرات التشريح أو أتعلم تطهير الجروح حتي ولو كانت سطحية، فشلت ببراعة أو بعناد بغل استرالي حتي فصلوني، سكن الحزن قلبه ولم يوجه لي عبارة لوم أو يفكر في توبيخي لأنني خيبت أمله وأنا ابنه الوحيد، لكنه في واحدة من تلك الأمسيات بينما كنا راجعين من تلك الجلسة المعتادة حول الدخان الأزرق باح لي بأن خسارته زادت عن كل توقعاته، لم أدخل معه في التفاصيل، كنت مشغولا بنفسي وما أزال أحلم بكلية الحقوق متصورا أنها السبيل الوحيد لأكون زعيما، ومادمت قد فشلت في الطيران ولم أقدر علي النجاح في الطب فلابد أنه سوف يوافق مكرها علي دخولي كلية الحقوق،

لكن أبي لم يتح لي فرصة إكراهه علي عمل شئ لا يرضيه، كانت كل الأشياء التي نملكها تتطاير مثل كل الأحلام الوردية، كنت أراه منكسرا وأراني منكسرا مثله دون أن أتمكن من مساعدته أو مساعدة نفسي، وكانت أحلام الزعامة التي لازمتني في سنوات الصبا ومطالع الشباب تنطفئ حولي علي مهل، أوشك أن أسخر منها قائلا لنفسي بيتي وبين نفسي " قسمة ونصيب " بمثل ما كان يقول هو في حالات الوعي أو نصف الغياب دون مقدمات، أو بمقدمات مخفية.

رقد أبي في فراش المرض متألما ومتوجعا قبل أن يصل إلي زمن الغياب شبه الكامل عن الوعي، يطول رقاده وينقضي عامان وأنا أشقي في أحط الأعمال داخل سوق المواشي راضيا بإهانات صغار الصبية القدامي وقد تحولوا إلي أنصاف تجار، كنت أحتمل سخرياتهم من ابن المدارس الذي خاب أو الولد الذي افتري علي نعمة ربه ففصلوه من مدرسة الطب أو ذلك الولد الذي كان يتحدث في صباه عن طائرة يملكها ويلف بها أركان الدنيا، وكنت أحتمل مضايقاتهم لأنني لم أكن أعرف سكة أخري للاسترزاق خارج سوق المواشي، وكان من المحتم أن أتكسب أي قروش مهما كانت قليلة لأدبر لنفسي وله اللقمة وبعض أصناف العلاج المطلوب لحالته لأنه كان قد أفلس بالفعل ونسي الناس في سوق المواشي هيبته وتاريخه معهم، أقول لنفسي بيني وبين نفسي شيئا من كلامه القديم " الدنيا انقلب ميزانها، واطيها ركب فوق عاليها... وتاهت فيها الأصول " وأقول لنفسي مفسرا أن ما جري لنا " قسمة ونصيب ".

كان يطيب لي أن أتأمل وجوه أنصاف السماسرة وأنصاف التجار بينما يتفحصونني بشماتة، يذكرهم أي صبي جديد باسم أبي مكملا لاسمي

فيترحمون عليه حيا قبل أن يموت، أغتاظ ولا املك القدرة علي الدفاع عنه، كان علي أن أتحامل كي أرعاه ولا أتوجع، كان يزيدني ألما وانكسارا أن أعايش بعد منتصف الليل إفاقته نصف إفاقة، يحادثني ويوصيني بأن أتعلم الحساب والمحاسبة إلي جانب الطب الذي انتهيت من دراسته بحسب ما كان يتصور كي أحمي ثروته من لصوصية الكتبة المأجورين، ينبهني ويوصيني بعدم الاهتمام بالسياسة في مستقبل أيامي ويذكرني وهو نصف غائب بأنني سوف أرث تجارته الرائجة في سوق الموشي وأنه يلزم أن أحافظ عليها وأنميها لأكون جديرا بحمل اسمه ومسئولا أمام المولي جل شأنه عن تربية إخوتي الصغار مع أولادي الذين هم أحفاده بعد أن ينقضي أجله، يوشك أن ينفلت عياري وأواجهه بالحقيقة لأريحه من الأوهام التي سكنت في خياله بأنه لايزال يملك نفس المال أو نفس الاسم الرنان في سوق المواشي أو أن له خلفة أخري غيري أو أحفاداً أنجبتهم في غفلة من أمر نفسي، لكنني كنت أتراجع خوفا عليه من صدمة تعجل بموته إذا اكتشف حقيقة ما صار إليه حالنا، وهل كان يحق لي أن أكون صادقا معه وهو علي فراش الموت بعد أن بارت تجارته وتراكمت ديونه قبل أن يشهروا إفلاسه وهو في كامل غيبوبته بينما فشلت أنا في إكمال تعليمي؟ كنت أجاريه وأسايره وأفعل ما كان يبدو لي لائقا برجل مكسور الخاطر خلّف للدنيا رجلا مكسور الخاطر ليعيش في هامش الهامش باختياره متأملا ومتباعدا عن كل المطامح.

●●●

أحاطوا به من كل جانب، وكل منهم يتباري ليرفع صوته أكثر ليوصله إلي مسامعه إلي حد أن اللغط جعله عاجزا عن تمييز الأصوات أو معرفة

الغرض الأصلي لكل هذا الصخب، لكنه كان محاصرا بهم ومخنوقا بالزحام رغم براح المكان الذي يقترب من مساحة ميدان متوسط الاتساع مقام علي عمدان وله سقف، زحام لم يعتده بهذه الكثافة إلا أيام شبابه الغض عندما كان يشارك في مظاهرات الطلبة في براح الميادين والشوارع الواسعة ومنهم للسماء، كان ذلك في الزمن القديم أيام سعد زغلول وتأسيس حزب الوفد، يهتف ويرددون هتافاته أو يردد هتافاتهم ليطالب مثلهم بالاستقلال التام أو الموت الزؤام. أيامها أصيب بضربة عسكري إنجليزي جرحت حنجرته وتسببت في حجب صوته تماما لعام كامل رغم أن الجرح طاب، كان يكتفي بالإشارة أو يكتب رغباته علي الورق وهو يشير بخجل إلي حنجرته لكنه تجاوز أزمته وبدأ ينطق بعسر العسر، ثم تقدم أكثر بمرور السنوات بالصبر والسلوان، لكن " سينه " تحولت إلي " ثاء " بالإضافة إلي " لامه ورائه " اللتين تحولتا إلي " نون " فصارت كلماته ألغازاً تحتاج لمترجم أو عقول واعية وأدمغة صاحية تتمكن من فهمه بدلا من الاستفسارات المتكررة التي تطلب منه تكرار ما قاله لتفهم فيتزايد خجله ويلجأ إلي اعتزال الناس رغما عن رغباته.

عايش في ذلك الزمن البعيد صراعات الأحزاب علي كراسي الحكم وسمع ما كان يقال في الخفاء وقرأ ما كان ينشر عن فساد القصر والحكومات المتتالية، كان يكتب بعض المقالات أو القصائد ليعبر عن أزمته وأزمة وطنه ويسعي لنشرها أو تجميعها في كتب علي نفقته الخاصة، مسنودا علي راتبه وميراثه من أرض كان يبيعها فدانا في إثر فدان ليعيش معزولا في مسكنه ومحزونا علي حاله حتي قامت في البلاد ثورة أجبرت الملك علي التنازل عن عرشة لولي عهده، لعله في تلك الأيام نسي عاهته

ورقص لأول مرة في الشارع، شعر ببهجة لم يعايشها من قبل ولا من بعد فتحرك قلمه ليكتب قصائد جديدة تبشر الناس بالمستقبل الزاهر مثل غيره من الشعراء، ينشرها فينال استحسان من يقرأها، لعل ما كان يكتبه وينشره خفف من مواجع جرحه وحقق له شيئا من التوازن وأنساه همه الشخصي وكأنما صار بينه وبين نفسه مسئولا من غير تكليف لمناقشة الحقائق البسيطة التي يكتشفها أو يؤمن بها مع الناس، وبمثل ما كان بعيدا عن كل الأحزاب قبل إلغائها وإلغاء الألقاب كان يعيش متباعدا عن كل أشكال التنظيمات السياسية المعلنة والتحتية، قائلا لنفسه في كل الأوقات أنه لا يرغب ولا يصلح لممارسة تلك الأدوار التي تعتمد أساسا علي الألسنة الفصيحة والسليمة، كان يكتفي بدور الشاعر العاطفي أحيانا والذي يتأجج غضبا في أحيان أخري ضد وجود أي شئ يتصور أنه يعوق أحلامه أو أحلام الناس في مستقبل أفضل.

وبحساباته عن نفسه كان مولده الحقيقي قد تأكد له يوم جلاء المستعمر الذي كبس علي أنفاس وطنه لأربعين عاما بالتمام والكمال كان قد عاشها لتنضاف إلي تلك السنوات السابقة علي ميلاده بالمعني الحرفي في قريته وبلاده مستعمرة لغرباء، قرأ عن أزمنة الاستعمار القديم المتكررة في أيام الرومان والإغريق والبطالمة والفرس والأتراك، وصولا لزمنه المعاش ليعرف ما جري لناسه، وليته ما فعل لأن انغماسه في تفاصيل التفاصيل في تاريخ بلاده اختطفه من نفسه وأفقده سنوات شبابه وأحلامه الخاصة ورغبته حتي في الزواج أو الخلفة، متجاوزاً في بعض الأحيان ما كان يشعر به من عجز في توصيل مطالبه أو أخباره، وكان اليأس من صعوبة تحقيق رغبته كرجل بلا عاهة يدعوه إلي التفكر في الموت كأي كائن حي يكتشف أنه عاجز عن

مواصلة دوره في الحياة.

كان قد قرأ كتابين وعدة أبحاث علمية عن فكرة الموت بالإرادة فراودته نفسه وقال لها إن متوسطات الأعمار في البلد أقل من الأربعين عاما وقد عاشها وتخطاها منذ سنوات فما هي مبررات الحياة؟

لعله كان يحس أيامها أنه لو واصل الحياة أكثر فسوف يفقد كل ما تبقي من ميراثه ويكابد العوز بينما يأخذ من الزمن أكثر مما يستحق لفترة لا يعلمها إلا واهب الحياة والآمر بنهايات الأعمار، لكنه علي الرغم من رغبته الشريرة ضد نفسه عاش وأقبل علي الحياة، وربما توصل إلي فكرة معكوسة مؤداها أنه من حقه أن يعيش ليؤدي دور الكاتب أو الشاعر من غير مساحة ثابتة ليزرع في أدمغة الناس حلما أو يبشر بمستقبل، يتواصل معهم بحسب ما كان يتصور من خلال الكلمات المكتوبة، ويعيش وحيداً باختياره ومتباعدا عنهم في نفس الوقت بسبب ذلك الخجل الذي كان يعتريه وسط التجمعات التي تتكلم، لأنه يتلعثم في الكلام ويثير ضحكات من يستمعون إلي " سينه " التي تحولت إلي " ثاء " معاندة لا تتزحزح وإن كانت أخف وطأة من " لامه " و " رائه " اللتين تحولتا إلي " نون " فجة ومحرجة وكأنها مستعمر أبدي لابد فوق لسانه.

كان يواجه أحيانا بانتقادات لا يملك الجرأة علي مواجهتها رغم ما فيها من تشدد أو جمود في نظر الناس، انتقادات ممن يطالبونه باستخدام كلمات قديمة أو عبارات عفا عليها الزمن وهجرها معظم شعراء عصره، لكنه كان في نظر البعض الآخر منفلتا ورافضا لفكرة الالتزام بسياسات أو قواعد ضرورية لا يحق له ما دام يكتب وينشر أن يتجاهلها ليدخل في زمرتهم، كان محاصرا بالتيارين المتصارعين ومصابا بالثأثأة والنأنأة معا، لكنه اختار أن يكون وحيدا في هامشه المعزول ليتعايش مع واقعه الذي كان

يتبدل بإيقاعات أسرع من قدراته وقدراتهم، قائلا لنفسه أنه سوف يحاول أن يكون حرا وبشكل مطلق.

●●●

كان في السنوات الأخيرة يدرك أنه بلغ من الكبر عتيا كما يقول المتفيقهون الأصلاء في استخدامات اللغة التراثية المؤكدة الجذور، والتي كان قد تخفف منها خطوة في إثر خطوة وتجاسر علي استبدالها بكلمات لها جذور شعبية تندس بين سطوره في غفلة منه، ويقدمها لمن يقرأها ممن يثق في رأيهم قبل أن ينشرها فيؤكدون له أنها صالحة وجسورة أيضا، لكن علماء الكلام ودعاة الوحدة لم يغتفروا له مواصلة هذا الدور المعاكس لمحاولات توحيد الناس من خلال اللغة المشتركة، ينصحونه بأن يكتب بالفصحي فيهز رأسه ممرورا قبل أن يتكلم غصبا، صحيح أن البعض منهم كان يغتفر له " سينه " التي انقلبت " ثاء " عند النطق إلا أنهم لم يغفروا له " لامه وراءه " اللتين تحولتا إلي " نون " بشعة، فيضحكون سخرية لا يملكون كتمانها فيغفر لهم ذلك أو يشاركهم السخرية من نفسه قبل أن يحاول تبرير تخففه من الفصحي، نافيا أنه يكتب لحساب لغة يستخدمها سفلة الناس والجهلاء المغفور لهم عدم المعرفة بقواعد اللغة، علي العكس منه لأنه كان يعرفها ويستخدمها بإتقان قبل أن تسيطر عليه تلك العامية التي تساهم في تزويد الخلافات في لهجات الأوطان التي يحاولون توحيدها وتأكيد جذورها المشتركة.

كان في نظر البعض منهم خائنا للمرة الثانية لأن تلك الثائرات والنائرات المتواصلة علي لسانه كانت تتطلب منه كتابات سليمة ليصحح وضعه في الكتابة، وقد استحال أن يصلح لسانه لكنه لم يتراجع.

انقلبت موازينه وسرت رغبته في الكتابة بحسب ما يشاء مسري الدم في

عروقه، فطلعت عليهم تلك الأغاني الناعمة والكتابات المسطورة بين دفات كتبه التي لا تليق حتي بأعمدة الصحف اليومية التي كان يطالعها في البدايات فينتقدها بشدة، لعله صدق أن أغانيه وأشعاره تليق أكثر بعامة الناس وأنها قابلة للفهم بيسر لهم رغم أنها بلا مراجع يعترف بها علماء الكلام ممن ينكرون أصولها أو هؤلاء الذين كانوا يتشدقون بضرورة الوحدة، لكن لغة العامة ناوشته كعذراء سافرة تفتن العابد فوقع في هواها وتعبد في محرابها بالكتابة علي هواه وهواها، راضيا أن يعيش مكبوسا في مناماته الطويلة التي لابد أن تنتهي بصحوة أو هزة تدعوه لأن يفيق فيفيق.

●●●

وفي الكابوس الكابس علي قلبي وعقلي رأيتني زوجًا لنفس الزوجة وأبا لنفس العيال، كانت أحوال زوجتي لا تطاق بسبب إنها تعترض علي كل اعتراضاتي الشرعية وغير الشرعية، كنت أكابد من تكرار محاولاتي لإفهامها منطقية أسبابي التي تبرر اعتراضاتي فلا تستجيب أو تبدي استعدادها لإمكانيات الاستجابة أو الفهم، كان عيالي في الكابوس يكابدون العري والحرمان والمرض ولا أملك القدرة علي مساعدتهم لضيق ذات اليد، وفي نفس الكابوس الكابس علي أنفاسي كان لزوجتي شقيق وحيد قادر علي الانقسام بحيث يتحول إلى ثلاثة أشقاء بمثل ما كان لي شقيق واحد يمكنه الانقسام إلى ثلاثة أشقاء وقتما يشاء.

كان شقيق زوجتي وقت الانقسام يتحوّل إلى سمسار مواشي في سوق بلدتنا مع تاجر سوق سوداء في المدينة التي نتعايش فيها بكل العسر، أمّا الثالث فكان عميلا لأكثر من جهاز من أجهزة الرصد والمتابعة والمراقبة ، كان من الممكن أن أحتمل تاجر السوق السوداء أو سمسار المواشي رغم

الخسائر التي كنت أخسرها بسببهما، صحيح أنني كنت لا أهتم بأسعار المواشي إلا في أضيق الحدود لأنني لا أشتري لحومها إلا في المناسبات السعيدة التي هي قليلة ونادرة، لكن تاجر السوق السوداء كان يكويني وينتقم مني علي أبشع نحو لأنه كان يطاردني أو يجعل صبيانه يطاردونني كلما احتجت شيئا ضرورياً من سوقه الذي يسيطر عليه، كنت أدفع أضعاف أثمان كل ما أشتريه للاستهلاك اليومي أو الشهري أو السنوي، وسواء اشتريت منه مباشرة أو من أحد أعوانه أو شركائه فقد كنت أدفع بزيادة مكرهاً، والذي كان يكيدني هو إلحاح زوجتي – التي هي أخته – عليّ كي أكف عن الاعتراض وكانت فكرتها تتلخص في أنه أحق من الغرباء في ابتزازي، وما دام الكل يكسب في سوقنا السوداء بنفس البشاعة فلا بد أن أخاها مظلوم لأنني أصب عليه وحده كل غضبي وأعلن عليه احتجاجاتي وكأنني أستخسر فيه الربح الحلال بموازين السوق.

كانت تستشهد بحديث مروي عن رسولنا الأميّ يقول فيه " إن تسعة أعشار الرزق في التجارة "، أطالبها بأن تمهلني فترة حتى أراجع صحة الحديث فتتهمني بالخروج علي الناموس أو حتى من دائرة الإيمان، أتعذب وأشعر بوحدتي فأحاول مرة أخري أن أفسر لها فكرتي فلا تستمع لي ولا تتيح لعيالي إمكانيات الاستماع لي مخافة أن تفسد عقولهم مثلما فسد عقلي، أو مروقهم مثلما مرقت وتشككت في الحديث الصحيح، أتحير أولا ثم أستسلم وأسمح لعيالي بالشراء منه بأعلى الأسعار لكنها لا تسامحني وإن سامحتني لا تغفر لي سوء النوايا أو الحقد علي الشطار من تجار المدينة وهو عيب يصعب إصلاحه وقد فات الأوان.

لكن الشخص الثالث والذي هو عميل لأكثر من جهاز من أجهزة الرصد

والمتابعة والمراقبة فقد كان هو سر مأساتي ونكبتي وجوهر اعتراضي علي الاحتمال، ذلك أنه كان يأتي ويكتفي بالجلوس في قلب المسكن ساكناً وصامتاً، يتأمل بلا ملل محتويات المكان ويفحص بإمعان كل ما يرتديه العيال أو ترتديه زوجتي، يحسب حساباته ويقدّر ثمن الوجبة الواحدة ثم يضربه في عدد الأيام، ولا بد أن وجوده كضيف كان يفرض علينا تزويد كمية ما نشتريه من بعض السلع أو حتى تفضيل نوع أغلي علي نوع أرخص من باب إكرام الضيف المشارك في الوجبات، لكنه لم يكن يهتم بمثل هذه الفروق، وبآلية كان يكتب التقارير عن دخلي المحتمل وربما يضيف إليه ما قد يكون قد وصلنا من بعض المعارف أو الجيران علي سبيل الهدية أو المجاملة، بل إنه كان يحسب أيضاً أشياء صغيرة لا يلتفت إليها المرء من أمثال كوب شاي دعاك زميل عمل إلي شربه علي حسابه أو توصيلة تطوّع بها صديق وأنت في طريقه ليحميك من زحمة المواصلات العامة كان يحسبها ويضيفها إلي الدخل الشهري أو السنوي. يكتب تقارير مطّولة ثم يرسلها بالفاكس من مكتب الكمبيوتر الجديد الذي انفتح أخيراً عند ناصية حارتنا، يفسّر لها الأمر علي أنه عمل مشروع يقوم به فتطالبني بأن أكون أميناً معه وألا أحاول أن أخفي عنه أية معلومة ولو كانت بحساباتي تافهة لأنني بذلك قد أعوقه عن تأدية الواجب الذي هو مكلف به، ولأنه لو لم ينجزه علي خير وجه وبدقة فسوف يتعرض للمساءلة أو يتأثر مستقبله كرقيب وراصد وكاتب تقارير معتمد، وعندما أعترض علي فهمها لوظيفة أخيها تثور وتغضب وتذكرني بأن كل شيء في حياتي مكشوف وواضح وضوح الشمس، وأن ما يجري في بيتنا وخارجه ظاهر ومفهوم وسهل التفسير، ولأن كل خطوة أخطوها محسوبة وكل فعل أو رد فعل في حياتي معروف فإنه يتساوي عندها أن يكون أخوها هو المكلف بمتابعتي أو أن يكون غيره،

لكنه بالقطع لو كان لها حق الاختيار فإنها سوف تختار شقيقها لأنه بحسابات العقل والدم أولي من الغرباء طالما أن النتيجة في كل الحالات واحدة ولن تتبدّل، وعليه فيلزم الاستسلام له وتسهيل مهمته حرصاً علي مستقبله الذي يهمها ومن الواجب أن يهمني بنفس الدرجة. أقاومها فترة فينكبس صدري ثم أنهار وأستسلم لأن أكون هدفاً مكشوفا لشقيقها إلي حد العراء الفاضح.

أما أخي الوحيد فكان أمره يختلف في الكابوس، ربما لأنني كلما أوشكت علي الإفاقة أوشكت علي تذكر وحدتي المطلقة في هذا العالم لأنه لم يكن في حياتي أي أخ أو أيّة أخت، وعليه كنت في الكابوس أفرح علي نحو ما لأنه تحقّق لي وهو كابوس كابس علي أنفاس حلم ظل يراودني في طفولتي دون أن يتحقق أبداً، فمن هذه الناحية كان الكابوس مفرحاً بمعني من المعاني.

كان أخي عندما ينقسم في الكابوس يتحوّل إلي قاتل مأجور وآخر سبّاك بارع في ابتزاز العملاء، أما الشخص الثالث فكان لسوء الحظ شبيها بثالث أشقاء زوجتي علي نحو ما لأنه كان محاسباً وراصداً لحركة ثم مفسراً للمشاعر الإنسانية الكامنة مترجماً للحركات العفوية وزلاّت اللسان، كان حالة متفردة في ادعاءاتها للمعرفة استناداً إلي بعض قشور الأسس المنهجية الشائعة، كان يرددها بزهو أنصاف المتعلمين ويضيف إليها سوء الظن المسبق لتصرفات البشر وأقوالهم ومحاولاتهم لتبرير بعض أفعالهم حتى يثبت لهم الدليل القاطع معكوس فروضه المسبقة.

كنت من ناحيتي لا أهتم بالقاتل المأجور لأنه من المستحيل أن يقتلني ما لم يحصل علي أجر لائق بقاتل محترف، إضافة إلي كونه من داخل الداخل يخشاني لأسباب لا أعرفها رغم أنه لا يخشي علي وجه البسيطة أحداً،

لربما كان ذلك بسبب ما كان يدّعيه من أنني أشبه أبي الذي هو أبوه في نفس الوقت، ولربما بسبب أنه في إحدى المرات تصارع معي فصرعته وإن تظاهر وقتها بأن الأمر كان مجرّد مداعبة بين شقيقين، لكن الأمر كان بيننا واضحاً وجليا ويصعب إنكاره برغم مرور السنوات وبرغم ما تبدّل في حالي وحاله خلالها وبرغم كونه الأخ الأكبر لي.

لكن السباك البارع في الابتزاز كان لا يعفيني من الدفع في أوقات لا تناسبني، أطلب منه تغيير جلدة صنبور فيفسده ويفسد الوصلات والكيعان والمحابس ويقوم بتدمير كل التركيبات التي تصل إليها أدواته ثم يحاسبني بحسب ما يقدر هو دون أن يسمح لي بأي تخفيضات أو تأجيلات في السداد، ويهددني في كل حالة بترك المحابس مفتوحة والمواسير محلولة مما يعني أن مسكني سوف يغرق بمياه البلدية وعوادم الصرف الصحي ، وكنت أدفع وأدفع وأمني نفسي بالخلاص من تزويد مطالبه إذا ماطلت أو أجلت.

أما الشخص الثالث فكان مشكلة لأنه بحسب دراساته وممارساته قادر علي كشف كل ما يعتمل بداخلي وما لا يعتمل، ولابد أنه استفاد من علاقة الدم بيننا إلي أبعد حد حيث قدّم لي مسودة دراسة عن الأحاسيس المشتركة المحتملة بين الأخوة غير التوائم ومن فرط كثرة هذه الأحاسيس كنت أنظر إليه باعتباره مرآة تنعكس علي سطحها كل هواجسي وظنوني وأمنياتي ومواجعي وهمومي وأحلامي في المستقبل، وشيئا فشيئا كان شقيقي يتحول إلي عين راصدة تراني بعينيّ وتحس بمشاعري وحواسي الخاصة، وباختصار كنت أشعرُ في وجوده بأنه لا خلاص لي ولا إمكانية فرار، وعليه لم أكن أرحب بوجوده بيننا لفترات طويلة، لكنه اتفق علي نحو غامض مع شقيق زوجتي رغم الخلاف الدائم بينهما وعدم الاستلطاف المتبادل الذي يصل إلي حد الكراهية المعلنة في كل مناسبة، اتفق معه علي

أن يتواجد أي واحد منهما في الأوقات التي لا يتواجد فيها الآخر وأيضاً في الأوقات الحرجة التي يلزم فيها خلو المسكن من الضيوف أقارب أو غرباء، وعندما كنت أشتكي لزوجتي من ثقل عبء الضيافة كانت تدافع بحرارة:

" هكذا أنت لا تحتمل أخي أبداً، كأنه غريب وليس من نفس العائلة ".

أو تخبط كفاً بكف وتبدي اندهاشها من شكاياتي:

" حتى أخوك الأكبر الذي هو في مقام والدك لا تطيق وجوده؟ يا رجل سلم أمرك للخالق وخلص نفسك من هذا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدرك ".

أكف عن الشكاية وأتحامل لاحتمال أي واحد من هؤلاء الأشخاص الذين ينقسم شقيق زوجتي إلي ثلاثتهم أو الذين ينقسم شقيقي إلي ثلاثتهم، لكن المأساة الحقيقية لم تكن في الانقسام أو الانشطار وإنما كانت في التوحّد، توحد الثلاثة أخوال العيال في واحد لا يطاق ولا يحتمل أو توحد الثلاثة أعمام العيال في واحد مستحيل لكنه موجود ومتحقق وكابس علي أنفاسي. كان الواحد منهما يأتي بجلبابه الريفي وقد اصطحب طفلين من أطفاله، يحتل الصالون الكائن في نهاية الصالة الطويلة من جهة الشرفة، يجلس معزولاً بقصد ولا يشاركنا في أي شيء،لا يحادثني أو يحادثها أو يسمح للطفلين بمحادثة أي واحد منا أو من عيالنا ولو كان المتوحد هو خال العيال حاولت هي عدّة محاولات أن تحادثه في أي موضوع فينظر إليها ولا يرد أو يرد إذا ألحّت وكرّرت سؤالها عدّة مرات بشكل مقتضب يوشي برغبته في إراحة دماغه من الكلام، أما إذا سمعنا صوته يتهامس فذلك لأنه يوصي طفليه بعمل شيء أو الحصول علي شيء أو مناولته أي شيء، وكثيرا ما كان المتوحّد ينشطر ويتحول إلي ثلاثة رجال يبرعون في الجدل بصوت

مرتفع في موضوعات تليق بسمسار مواشي يتجادل مع تاجر سوق سوداء ومسئول عن رصد الحركات وكتابة التقارير، أما إذا كان المتوحد هو عم العيال فقد كان الحوار الصاخب يدور بين القاتل المحترف المزهو بقوته وقدرته علي إزهاق الأرواح بأعلى سعر في سوق القتلة بينما الآخر الذي هو سباك بارع في إفساد دورات المياه ومواسير الصرف الصحي يتباهي بقدرته علي الابتزاز لآخر قرش فيبيت الزبون، لكن الشخص الثالث والذي هو دارس لكل ما يعتمل داخل النفس البشرية كان يتأملني وربما يحصي ضربات قلبي في الدقيقة أو عدد الأنفاس التي أتنفسها، وأراني مرئيا من الداخل بعينيه القادرتين علي النفاذ لفحص الأحشاء وتلافيف المخ قبل أن يسجل كل شيء ويرسله بالفاكس المحمول الذي يملكه ويداريه في فتحة " السيالة "، أما إذا توحّد فإنني أراه وقد أحاط نفسه بزوجته وعياله والجميع يمارسون حياتهم منفصلين عنا تماما، ولا يبادلوننا إلا تلك العبارات الإجبارية ساعة تناول الوجبات أو صراعات عياله علي الكراسي التي تجاوره أو تقترب منه حول ترابيزة السفرة.

وفي الكابوس الكابس علي العقل والقلب كنت أتباكى وحدي علي حالي بينما تتهرب هي من مواجهتي وتتشاغل بإعداد الطعام أو الشاي أو غسيل الأطباق ومواعين الطبخ، وإذا شكوت لها قاطعتني وطالبتني بالصبر وبأن أفتح قلبي للأهل لأنهم أكثر إخلاصاً من الغرباء، أجاريها وأتظاهر بالاقتناع بينما إرادة الصحو عندي تسر إلي بأنه مجرد كابوس وسوف ينزاح.

●●●

في أيامه الأخيرة كان يدعي أنه يستطيع أن يميز الحلم عن الواقع، بل يؤكد لمن يلتقي بهم أنه يستطيع أحيانا أن يصنفها ما بين حلم وكابوس ومنام وغفوة طارئه أو رؤيا خاضعة لسرحات خياله الجامح، الذي لا يكف عن التجول بين الأماكن الكائنة وراء المساحات المفتوحة التي يستحيل الإلمام المؤكد بما يمكن أن يكون وراءها في البعيد خلف المجرة أو المجرات المكتشفة أو المحتملة أو المجهولة، وكانت جولاته في الزمان أيضا بلا حدود، لم يكن يكتفي بالتاريخ المكتوب المزحوم بالأحداث والأبطال والزعماء والملوك والقادة والشهداء والمتآمرين والخونة ولا حتي التاريخ المتخيل لبدايات الوجود الإنساني علي الأرض بحسب ما قرأ في كتابات من اجتهدوا وأطلقوا لخيالاتهم العنان مسنودين علي ما تأكد لهم من معلومات علمية عن نشأة الحياة فوق سطح الأرض واحتمالاتها في الكواكب السيارة داخل المجموعة الشمسية أو المجرات ودرب التبانة.

كانت المسألة برغم كونها مضنية ومربكة ويصعب الخلاص منها مبهجة علي نحو ما، تماما مثل الأحلام والكوابيس والمنامات التي كانت تقتحمه ناعمة في البدايات دائما وقاسية في النهايات، لعله كان يستطيع بحساباته عن نفسه أن يفر من الرغبة في استرجاعها حتي لا يصاب بالكدر أو الاكتئاب بحسب ما يقول علماء النفس، كان يواصل فراره من نفسه وخيالاته وأحلامه وكوابيسه المتكررة ليبقي ويعيش، وربما كانت قدرته علي الفصل بين ما هو حلم أو منام أو كابوس تساعده علي الاستمرار في الحياة وحيدا كل هذا العمر ، ولولا هذه القدرة لاختلف الأمر فأراح واستراح وقد تخطي العقد التاسع من عمره ولم تختلط في ذاكرته الحقائق

مع الأوهام لأنه كان بشهادة كل من عرفوه يميز كل ما كان يحدث له ويضعه في الخانة التي تناسبه.

كان محاصرا بهم في المنام من كل جانب، يصرخون ويرفعون أصواتهم، يدرك أنه مكبوس في منام ويتذكر هويته الحقيقية ويتعجب من عبارات السباب والاتهامات الموجهة له، لكنه لا يفكر في الدفاع عن نفسه خوفا من سماع سخرياتهم من ثأثأته ونأنأته، أو يحملونه المسئولية عن كل ما وصلت إليه أحوالهم من مواجع ومكابدات، ومكرها يدافع عن نفسه فتطاوعه الحروف ويتخلص في المنام من " سينه " التي تتحول في الصحو " ثاء " و " لامه وراءه " اللتين تتحولان إلي " نون " فجة وفاضحة، يفرح بقدرته علي الكلام الذي لا يجلب السخريات المعلنة أو المخفية ويبرع في الدفاع عن نفسه وقد اتهموه بأنه أخذ حقوقهم في الحوافز وبدلات السهر والانتقالات مع المكافآت والعلاوات من الصراف ليقوم بتوصيلها إليهم لكنه لم يفعل، يشرحون له مصاعب الحياة وكيف أنهم بالكاد يعيشون لأن مرتباتهم الأصلية لا تكفي أنصاف الشهور، يغضب لأن الأمر وصل إلي حد اتهامه بالاختلاس لأول مرة في أحلامه وكوابيسه، أخرجوا من جيوبهم كشوفا للصرف موقعة بإمضائه الخاص ومختومة ومعتمدة مع تعهد مكتوب بخط لا يعرف صاحبه بأن يتولي السيد فلان الفلاني توصيل تلك المبالغ لأصحابها، كانت عشرات الكشوف المختومة والمعتمدة كصور طبق الأصل تتشابه مع سيوف صدئة مشهرة في وجهه، كان يشعر بصدمات مباغتة بعدد الكشوف التي يري عليها توقيعه والتي تجعله مدينا بآلاف الآلاف التي يصعب حصرها، يسقط من طوله لكنهم لا يرحمونه أو ينصرفون من حوله.

تظل أصواتهم تطن في أذنيه كخلايا نحل هائج، يشعر باللسعات في

خلايا مخه ويتزحزح عن مكانه بعسر العسر، يعاود التطلع إلي الكشوف واحدا في إثر الآخر قبل أن تطرأ علي خياله فكرة أن تكون هذه التوقيعات مدسوسة عليه لأنها صور مطبوعة من أصل توقيع واحد يخصه بالفعل لكنها محض صور، يتماسك ويقف ليقول لهم عن اكتشافه الكفيل بتبرئته فيتبادلون نظرات الشك في كشوف الحقوق المنهوبة والتي يحملونها واهمين أنه تسلمها بالفعل بموجب تلك الاعتمادات المدموغة والمختومة باعتبارها صورا طبق الأصل يمكن اعتبارها مستندات رسمية عند اللزوم، يخلص للحظات من إحساسه بأنه لا يزال متهما بتحصيل أموال لم تكن تخصه لكنه ادعي أنه سوف يقوم بتوصيلها إلي أصحابها ثم طمع فيها، كانت ثقة الناس فيه مؤكدة فتبادلوا النظرات التي تؤيد اكتشافه.

لكن واحدا ممن كان يعتبرهم من أخلص أصدقائه أفسح لنفسه مكانا وسط الجموع وأوضح لهم أنه لن يعترض علي كلام صديقه وأنه يسلم بأن توقيعه علي الكشوف هو مجرد صور متكررة من توقيع واحد أصلي بخط يده لا التباس فيه، وساد صمت يوحي باكتمال براءته في عيونهم، لكن الآخر التفت ناحيته وسأله إن كان استنتاجه صحيحا فأجاب بالإيجاب، موهوما بأنه خلص من مشكلة التدليس وصرف مستحقات الغير دون وجه حق، لكن نفس الشخص قال بصوت مجلجل إن ما قاله المتهم اعتراف لا يحتمل الشك في أنه بالفعل صرف وأخذ وتعهد بتوزيع الحقوق علي الناس لكنه لم يفعل، وسأل هو صاحبه كيف استنتج من صورة توقيع غير أصلي أنه بالفعل أخذ أموالا لا تخصه؟ تجاهله الصديق وأضاف للمجاميع أن الكشوف معتمدة كأصول أو مستندات صرف، وما دام المتهم اعترف بأن

صور التوقيعات تم اعتمادها فقد اكتسبت صفة المستندات الرسمية، وانقلبت الموازين في عقول الناس وتحول مرة أخري إلي متهم بالتبديد وادعاء المرض أو تمثيل الإغماء بشكل مكشوف ومفتعل، نصحهم صاحبه بأنه لو سقط أمامهم سقطة موت بلا حراك ليستدر الشفقة عليه كخدعة أخيرة فعليهم ألا يصدقوه، تلقي هو التوبيخات والملامات والدعوات بأسوأ النهايات قبل أن يمزقوه، كان يشعر بالفعل أنه تمزق إلي أجزاء وصار يشعر بالوجع لكنه استند علي احتمال أن يتقلب في فراشه أو يفيق من نومه ويتخلص من الكابوس لكنه لم يتمكن.

●●●

تبدل المكان فصار حيزا ضيقا ومخنوقا ومدفوسا في ركن بناية رطبة ومسكوكة لا تدخلها شمس، وكانت هناك نافذة تطل علي براح مزحوم بمجموعات من الشبان والشابات الذين كانوا يتهامسون وينظرون إلي النافذة ناحيته، يجد نفسه محصورا وسط جماعات منهم في المكان الضيق، يهمسون في أذنيه بكلام عن الوظيفة الخالية المعلن عنها في صحيفة كان قد نشر فيها قصيدة بالعامية في نفس الأسبوع، يطلبون منه أن يتعطف ويتكرم ويوصي من بيده الأمر لتشغيلهم، فيتفاصح ويذكر لهم أن وظيفة واحدة لن تحل مشاكل هذه الجموع الغفيرة فيتصايحون ويكررون مطلبهم بشكل جماعي وبإيقاعات تكاد تكون متشابهة، يذكرهم بأنه لا يملك الحق في تعيين نفسه في أية وظيفة، فيسخرون منه لأنه بلغ من الكبر عتيا ونال حظه من الدنيا ومن المستحيل أن يفكر في وظيفة وهو علي عتبات الموت، لا يبدو عليه أي غضب ويبدأ من جديد في تذكيرهم بأنه لا يحق له حتي أن يعدهم بعمل أي شئ لواحد منهم، يتذكر رغم إدراكه أنه محبوس في

كابوس كل الحكايات التي كان قد سمعها في الصحو عن أمثالهم ممن يبحثون عن أي عمل وبأي أجر رغم حصول أكثرهم علي مؤهلات عليا ومتوسطة منذ سنوات، يوشك أن يتباكي علي أحوالهم ويتذكر كيف أنه التحق بالعمل بعد شهرين من إتمام دراسته وحصوله علي " البكالوريا " بتفوق. سأل نفسه بينه وبين نفسه عمن دعاهم لمحاصرته في سكنه المحروم من شمس الله لأنه مدفوس في زقاق ضيق، وأدرك أن نافذة الحلم هي نافذته في الصحو أيضا، وقد حاول في السنوات الأخيرة دون أن يفلح في تبديل السكن ليكون أكثر اتساعا وتهوية يليق بضيوفه ليجرؤ علي دعوة من يريد أن يستقبله في أي وقت يشاء لكنه لم يحدث، فأخفي عنوانه عن كل من كان يتعامل معهم في الصحو مخافة اكتشاف مستواه الذي كان يراه شبيها بعورة عريانة.

لكنه في الكابوس لم يتمكن من الإنكار وبقي في مواجهتهم عاجزا عن إقناعهم بأنه ليس مسئولا عن تعيين كل من يطلب العمل لأنه ترك الوظيفة في وزارة القوي العاملة منذ ثلث قرن تقريبا، وانقطعت صلته نهائيا بمسائل التعيين وتحرير المحاضر لمن يتجرأ ويفصل عاملا بلا مبرر أو يمتنع عن تنفيذ قوانين العمالة لأمثالهم، وخلاصا من المأزق الذي وجد نفسه فيه طلب منهم أن يتقدم كل واحد منهم بطلب توظف ليبحثه أي واحد من المسئولين الذين لا يعرفهم وإن كان يتمني أن يتعرف عليه.

كان الطابور طويلا جدا والنافذة ضيقة تتشابه مع تلك الفتحة المخصصة لبيع تذاكر " الترسو " في سينما مصر الكائنة ولا تزال في مدينة طنطا، الفارق الوحيد هو أن أكداس الطلبات كانت تتراكم وتزحم المكان إلي حد خوفه من احتمالات اختناقه في مسكنه، تمني لو تقلب في

مرقده ليصحو ويتخلص من ذلك الكابوس الخانق الذي كثف شعوره بالعار من نفسه ومن حالته، لكنه لم يتقلب رغم محاولاته ليتلقي مزيدا من الطلبات ويتوقع موته مخنوقا بأكداس الورق في كابوس ممدود ومخجل.

وجد نفسه في ميدان فسيح غير مسقوف وهو في البؤرة بغير اختياره، يحيط به المئات ممن يبحثون عن مساكن للإيواء وستر عورات الحريم والبنات في طابور ممدود وفي يد كل منهم طلب مدموغ، لكنهم كانوا صما وبكما لا يتكلمون أو يسمعون، يكتفون بالتلويح بطلباتهم فيتعجب من قدرته علي قراءة الأسماء والعبارات والحالات القاسية بكل تفاصيلها، يتمني في المنام لو كانت لعينيه في الصحو مثل هذه القدرة.

يلتفت إلي الطابور الآخر والذي يقف بنظام من حيث الشكل لكنه صاخب بأصوات الشبان والشابات، والكل يهتف مطالبا بمسكن في المشاريع الخاصة بتسكين الشباب التي تكتب عنها الصحف، يصرخون بأن مصائر علاقاتهم العاطفية ورغباتهم المشروعة متوقفة بسبب عدم حصولهم علي أية مساحة مسقوفة كبداية لحياة أسرية جديدة، يتوه في تفاصيل الشكايات المتباينة التي تصل إلي مسامعه ويسرح بخياله في عشرات الحكايات التي يتذكرها في المنام عارفا أنها حدثت بالفعل وسمع عنها في الصحو.

كانت هناك جماعة أخري من ذوي الياقات البيضاء المنشاة والبيبونات وأربطة العنق تحت الملابس الرسمية يقفون في الأركان بغير نظام ويطالبونه أيضا بتوفير الشقق السكنية الفاخرة بعيدا عن تلك التي تتشابه فيها البنايات والتي لا تليق بمستوياتهم الراقية، ينطلق لسانه الفصيح في المنام

بلا ثأثأت ولا نأنأت ليفهم الجميع أنه ليس مسئولا عن إسكانهم ويذكرهم بأن هناك وزارة مختصة بالإسكان والسكان مهمتها صعبة بكل الحسابات رغم أن الكل فيها يحاول بقدر المستطاع.

يتهمونه بأنه يتهرب من المشكلة التي هي واحدة من مسئولياته رغم عدم تفويضه بشكل رسمي من أية حكومة سابقة، يستوضح منهم مندهشا ومستنكرا في ذات الوقت كيف يكون هو المسئول علي أي نحو عن حل هذه المشاكل العويصة علي امتداد العمر، لكن واحدا من الأصدقاء القدامي يتقدم صفوف ذوي البيبونات والملابس الرسمية الأنيقة ويقدم إليه هاتفا محمولا ويطالبه بكل أدب أن يرد علي مكالمة تخصه، يضع السماعة علي أذنه ويسمع صوتا مألوفا لزميل قديم كان مسئولا في زمن قديم لكنه علي العكس منه تولي مناصب خطيرة في وزارات الإسكان في الزمن القديم، رحب به مزهوا بنفسه لأنه لا يزال يذكره، أحاطوا به من كل جانب ليتعرفوا علي هوية ذلك الرجل الذي طالت مكالمته فيبعد السماعة عن فمه تأدبا ويهمس في أذن أقرب الناس إليه بأنه فلان الفلاني والذي كان مسئولا في السابق لكنه ترك الخدمة، يتولي الرجل إسكات الكل بإشارات من كلتا الذراعين والكفين، يسود صمت إلا من صوته الذي يرد علي استفسارات زميله المسئول السابق شارحا له الحالة التي يواجهها في الميدان فيتلقي وعودا مبشرة بحل كل المشاكل، يتبادل الناس نظرات ارتياح وفرح لأنهم سمعوا كل حرف من كلمات الطالب والمطلوب، تنتهي المكالمة فيهللون ويقدمون له عبارات الشكر والعرفان لأنه استطاع بمكالمة واحدة أن يحل كل مشاكلهم وبكل بساطة يتعجب ويتمني ويفكر كيف أن هؤلاء الناس رغم

تباين المستويات، يتصورون أن مسئولا سابقا يمكنه أن يحل مشكلاتهم المتنوعة في مسائل الإسكان، يسمع منهم عبارات مستبشرة فيوشك أن يحذرهم من الاعتماد علي مجرد وعد من مسئول سابق في هاتف محمول ليحل مشاكل علي هذا النحو من التعقيد، لكن واحدا من الحاضرين يعارضه ويؤكد له أن المسئول القديم يعرف أكثر من غيره كيفية حل الألغاز الوظيفية برغم انتهاء خدمته وأن هذه المكالمة لم تأت من فراغ أو بالمصادفة، يهللون للرجل الذي يؤكد لهم بأن اجتماعهم مرصود ومعلن عنه أيضا، يقول واحد من الشباب أن أصواتهم بالفعل كانت مسموعة ويضيف أن كاتبا مرموقا مثله يستطيع حل مشاكلهم بمكالمة واحدة فيصفقون، يشعر هو بالنشوة ويتفاعل مثلهم ثم ينطلق لسانه بفصاحة دون مخاوف ليحدثهم عن كل الأزمات التي انحلت في السابق علي أهون الأسباب يتلقي هتافات الاستحسان لفصاحته وبراعته في معرفة تواريخ الأجداد القدامي الذين انتصروا علي الزمن، لكنه علي غير إرادة منه يتقلب في مرقده ويصحو من منامه الجميل الذي تشابه مع مناماتي في بعض الأحيان وسوف أشهدكم وأقبل قبولكم أو رفضكم لفكرة المنامات التي تتشابه وتختلف بحسب كل حالة، لكنها منامات.

●●●

سوف أحكي لكم مرة أخري شيئا عن الثور المطلوق الذي يطاردني في كل منام، وعفوا لأنني أعاود الشكاية بسبب عجزي عن الكتمان، هو مجرد ثور من سلالة محلية على أية حال، لكنه يرمح ورائي كل ليلة وكأنني عدوه الوحيد، يتبدى لي في المنام مثل أي وحش كاسر وعاجز عن التمييز، قرونه المسنونة مشرعة في أعقابي وأظلافه الخشنة المبرية توشك أن تسقط فوق

دماغي لولا أنني أهرب وأهرب وأهرب، أتفنن في الفرار والتخفي لكنني لا أخلص من مطارداته أبدا، كأنه في المنام قدري الذي يلزم أن أتحاشاه بكل الأساليب والحيل، وكأنني قدره الذي لا يناله أو يطوله أبداً ولا يملك الحق في الكف عن السعي تجاهه كي يهدأ أو يرتاح، وبراح الغيطان والبلدان ووسع الميادين وضيق الأزقة والحارات واتساع المدى يشهدون المطاردات التي لا تنتهي أبدا بين ثور مطلوق بلا صاحب وعجوز عاجز بلا حيلة.

أتذكر الآن ملامح تلك القرية التي ولدت وعشت فيها طفولتي وصباي وسنوات الشباب الأولي، أتذكر وبشكل مؤكد أن الثيران كانت معروفة لكل ناس القرية، ثور العمدة الشلبي وثور شيخ البلد وثور الباشا الكبير ساكن السراية العالية وثور الست هانم بنت عم الباشا الكبير، العانس المتكبرة التي تغطرست على كل رجال الدنيا الذين كانوا يتوافدون على سراية الباشا الكبير ابن عمها الشقيق وولي أمرها شكلاً في عرف الناس، يأتون إلى قريتنا من كل الجهات والأقاليم ويطلبونها الواحد تلو الآخر زوجاً لكنها ترفض، أعيان وضباط كبار وتجار في البورصة وباشوات رسمي وأعضاء في البرلمان وأساتذة في الجامعة الأهلية ومشايخ " منسر" وأشراف من نسل المصطفي لكنها كانت ترفض بكبرياء وتدعي أنها قادرة على مزيد من الانتظار، والباشا لا يستطيع أبدا أن يرفع صوته في حضرتها، يتسمع ردها في حياء وأدب ويخرج من باب سرايتها الكائن في مواجهة باب سرايته مطرق الرأس مهزوماً يوشك طربوشه المائل أن يسقط أمامه لولا ستر الكريم الذي يستر هيبة الأكابر أمام خلق الله بكل أصنافهم وفيهم بالطبع من الأوباش ومعدومي الأصل والتربية في بلاد الدنيا مثل قريتنا وأكثر.

كان ثور الست هانم بنت عم الباشا هو أشهر ثيران الناحية، ثور ذكر ابن ثور ذكر لا يدانيه في الضخامة أو القوة أو القدرة على تخصيب البقر إلا ثور الباشا الكبير نفسه ومن باب المجاملة وتطييب الخاطر، وقد كنا نراها وهي على درجات السلم الرخامية اللامعة بثوبها الأبيض الناصع وبشرتها التي تتوهج في ضوء الشمس بينما يمارس" الكلافون" تغذية الثور والسماح له بأن يسير مختالا في الممر العريض بين سراية الباشا وسراية الست هانم بنت عمه، كنا نراه ونراها خلسة في مثل هذه الحالات، وعلنا في ليلات الإخصاب ومدخل السراية يتلألأ بالأضواء وكأنها ليلة عرس بشري يحييها العوالم ورقص الخيل على أنغام الطبل والمزمار.

●●●

قال الرجال الكبار للرجال الكبار في قريتنا أن حكاية الست هانم بنت عم الباشا وثورها النادر وصلت إلى مسامع جلالة الملك، وأنه حدث أن اشتكي أحد الأكابر من أعضاء مجلس النواب إلى أخيه الحكيم الذي يكشف على طعام جلالة الملك قبل تقديمه إلى جلالة الملك، اشتكي الكبير عضو مجلس النواب لأخيه الحكيم من الست هانم التي رفضته عندما تقدم لخطبتها مثل العشرات الذين رفضتهم، وأنه لهذا السبب أو لغيره من الأسباب دبر حكيم مطبخ جلالة الملك حيلة خسيسة ضد ثور الست هانم، قالوا: إنه همس في أذن جلالة الملك بأن ثوراً نادراً وقادراً وقوياً مثل هذا الثور يزود العافية والقدرة بشرط أن يطبخ بطريقة فريدة في ماعون واسع وعلى نار هادئة بحيث تذوب كل الدهون واللحم الأحمر والنخاع والقلب والكبد والخصيتين وكافة الأجزاء، تطيب وتذوب ويتبخر ما لا يفيد ولا يتبقى

غير مقدار كوب ماء هو خلاصة الثور المشهور الذي كان سببا في نمو وتكاثر قطيع الأبقار في كل الناحية والنواحي المجاورة، قالوا إن الملك صدق حكيم المطبخ أو أنه كان يريد أن يصدق فأرسل من جاء بالأمر الملكي ليأخذ ثور الست هانم وثور الباشا ابن عمها في نفس الليلة، ليلتها نزل الحزن في قلوب الرجال ولابد أنه أصاب الباشا وبنت عمه الست هانم وفاض، انطفأت في تلك الليلة أنوار السرايتين معا وسكتت كل الأصوات وما عاد هناك في تلك الناحية غير نقيق الضفادع وصفير صراصير الغيطان.

●●●

في المنام كنت أري الثور المطلوق الذي لا أعرف اسم صاحبه وهو يرمح ورائي وأفر منه، أسمع أصوات الناس تحذرني من الكسل ولو للحظة واحدة، والثور المطلوق يطأ كل ما يصادفه من زراعات الفلاحين والأعيان، بل إنه كان يفسد أشجار المزرعتين الكبيرتين، مزرعة الباشا وبنت عمه الست هانم وفيهما من خيرات الله ما تعجز الذاكرة عن وصفها، موالح ومانجو وتين من أجود الأصناف، عنب وبطيخ ورمان وشمام وبلح من كل الأشكال والأحجام، والثور لا يرحم ولا يميز فلا فارق عنده بين شجرة سنط وطفل رضيع سقط في طريقه. كان الثور يبدو واعياً على نحو ما، وعيه وعي حيوان مكلف بالقضاء على رجل ليرهب بقية الرجال، لكنني كنت له بالمرصاد، أراوغه وأجعله يغرس قرنيه المسنونين في جذع نخلة أو جدار من الطوب الخشن، ولحظتها أتنفس بارتياح حتى تنتظم دقات قلبي من جديد، لكنه كان يفسد الزرع والنباتات ويفزع النساء والأطفال بينما يخور خواره الشديد المفزع، وكان يتضخم ويتضخم حتى يوشك أن يداري نور الشمس

وشعاع القمر، وأنا أعاند وأتصالب وأتماسك قائلا لنفسي أنه في نهاية الأمر ثور مثل كل ثيران الدنيا قابل للذبح، وكم كان يشقيني أنني كنت أرمح وأرمح وأفر منه لأنني لا أملك حبلاً لأربط عنقه أو أقيد حركته من أي مكان في لحظات غفلته، وكنت في الصحو أسأل نفسي باستنكار، كيف أنني حتى في المنام مجرد من السلاح، من أي سلاح؟

طبعا الست هانم حزنت على ثورها الذي ابتلعه جلالة الملك في وجبة واحدة، ولابد أن الباشا نفسه أحس بالإهانة لأنه رغم رتبة الباشوية لم يستطع أن يحمي ثور الست هانم أو ثوره، وطبعا فقد الرجل هيبته أمام الفلاحين والمزارعين "والكلافين "، أصبح بالفعل لبانة يتشدقون بها إلى حد الاستهانة، ربما كان ذلك بسبب حبهم للست هانم وحزنهم على حزنها، لكن الأخطر من الحزن الحريمى كان حزن الرجال على أحوالهم بعد ذلك، ذلك أن موسم تخصيب الأبقار جاء وليس في القرية أي ثور مطلوق يؤدي نفس المهمة التي كان يؤديها ثور الست هانم أو ثور الباشا المهضومين في بطن جلالة الملك، هل أقول إن مواسم الخصوبة فاتت وأن البقرات كفت عن " النعير" والطلب؟، وأنه حدث أن واجهت كل بيوت القرية نكبة "التفويت " لأول مرة. هل تحسرت كل النساء كما تحسرت أمي وهي تحلب بقرتها فلا تجود إلا بالقليل من اللبن على غير العادة؟. لابد أن الناس كلها في قريتنا وكل القري المجاورة واجهت نفس المصير، قل الإدام والجبن واللبن واللحم والشحم وأصاب العيال هزال مفاجئ، وقال الرجال للرجال على مسمع من الصغار أن بطن جلالة الملك زادت اتساعا وأن سيرته زادت فسادا بسبب ثور الست هانم وثور الباشا، ولابد أن جلالة الملك قد استشعر في عروقه

قوة الثيران وقدراتها فطلب من حكيم مطبخه أن يبحث له عن تلك الثيران المشهورة يعتصرها حتى تتحول إلى جرعة واحدة لا تزيد عن ملء كوب ماء هي خلاصة الخلاصة التي تجعله يتحول إلى رجل مطلوق يقضي معظم أوقاته في أحضان النساء، لابد أنه حدثت كل هذه الأشياء بنفس هذا الترتيب، ولابد أن صفرة وجوه الناس في القرى المجاورة والبنادر كانت بسبب ما جرى في تلك النواحي من ذبح وسلخ وطبخ كل الثيران المطلوقة على نار هادئة أجادها حكيم المطبخ الملكي على امتداد السنوات.

لم يكن ما حدث من ذلك الولد وليد مصادفات عارضة على كل حال، كان الأمر يبدو لي في أوله مجرد أخطاء بسيطة في التربية أو سوء خلق مكتسب من أولاد الشوارع الذين يختلط بهم في مشاوير الذهاب والإياب من المدرسة، كنت أنا في واقع الأمر أقوم بدوري على أكمل وجه وكانت هي تفعل نفس الشيء ، تبذل كل ما في وسعها من أجل راحته، كنا قد أعطيناه خلاصة سنوات العمر وتسامحنا عن هفواته ونزواته الصغيرة، وكنا نشعر بالفرح وهو يكبر أمامنا، يغلظ صوته ويظهر الزغب الأصفر فوق شفته العليا معلنا أنه صار لديه الآن مشروع شارب، وكان ساعده يشتد وتطول فترات مكوثه في الحمام فنتهامس بأنه لابد يكتشف علامات مراهقته الأولي، وكنا نشعر بالفرح ونكتم الفرحة خلف نكات عابرة وكأننا نخشى عليه من الحسد، نبدّل الموضوع قبل أن يخرج هو فتداعبه أو أداعبه بأي كلام يخطر على البال، يتبدى لنا في بعض الأوقات طفلاً لا يزال وفي بعضها الآخر رجلاً حقيقياً يداري عنا علامات رجولته خجلاً مهذباً أو عجزاً عن البوح لي أو لها على انفراد رغم كل التلميحات التي كنا نلقيها على مسامعه على أمل

أن يستجيب، كان وحيدنا الذي لم يكن هناك قبله أو بعده، وريثنا الوحيد وذخيرتنا الحية لمستقبل الأيام.

عندما رأيت عقب السيجارة يطفو فوق ماء القاعدة رغم اندفاعة المياه المعتادة بعد قضاء الحاجة، لم أفكر في الولد رغم أنه كان هناك قبل دخولي، تبادر إلى ذهني أنها هي التي دخنت سيجارة من سجائري لتداوي بها صداعاً كان قد أصابها وحدثتني عنه في صباح نفس اليوم، لم أكلف نفسي عناء سؤالها في الأمر، ربما لأحميها من لحظة خجل سوف تصيبها وتربكها بينما تعترف بالتدخين وهي لا تكف عن الإلحاح على لأبطل التدخين لأنه يفسد الصحة ويورث الفقر، لكن الأيام توالت وكدت أنسي الأمر كله لولا أنني انتبهت إلى تناقص اللفافات التي أحتفظ بها، كل يوم تتناقص بشكل طردي وملفت للنظر، قلت أراقب الحمام لأتأكد فتبين لي أنه يدخن خلسة وأنه رغم الاحتياطات التي يتدبرها فإنه لا يتمكن من إخفاء كل معالم جريمته، كانت تتبقى في الحمام بعد خروجه رائحة التبغ وعلى الأرضية ذرات الرماد الذي يتخلف ويتساقط من طرف اللفافة المشتعل، ولابد أن الآباء في مثل هذه الحالات يجمعون كل الدلائل قبل أن يعلنوا اكتشافهم لأولادهم أو لزوجاتهم، وقد حدث أن حدثتها عن الأمر قبل أن أواجهه فنصحتني بأن أتريث أولا قبل أن أحاسبه وأنا مفلوت الأعصاب، بل إنها نصحتني بأن أترك لها مهمة تنبيهه إلى مساوئ التدخين بأسلوبها الهادئ وأعصابها الباردة، قلت لروحي لا بأس، هي مهمة صعبة على كل حال ولابد أنها أقدر مني على معالجتها.

كان الولد يضربها بقسوة وتصرخ، وعندما انفتح الباب بمفتاحي كف

عن الضرب لكنه ظل واقفاً في مكانه يتأملني بلا وجل، كانت هي تنزف الدم من فمها الجريح وتستر عري فخذيها من أثر تمزيق ثوبها، كنت في واقع الأمر أوشك على السقوط في مكاني من هول الدهشة، هل كان ما أراه بالفعل هو نفس الولد الذي أعطته بلا حساب؟ وهل هو عقوق فاجر أطل برأسه فجأة من خلال الولد الذي تجاسر وأهانها إلى هذا الحد، لم أتمالك نفسي عندما كنت أصفعه بكل عزمي ويتحاشي صفعاتي، يتقافز برشاقة إلى الناحية الأخرى فأعاود المحاولة وتطيش ضرباتي في كل مرة، هل أنهكني أنني كنت أحاول ضربه ولا أستطيع؟ وهل هذا الذي اشتد عوده وانفلت عياره إلى حد أنه كان ينظر ناحيتي مبتسما باستهزاء واستهانة هو نفس الابن؟

أصابتني حمي وارتميت في نفس مكاني، ألهث معترفاً بعجزي عن ملاحقته والآخر واقف قبالتى يذكرني بأنني عجوز وعاجز وأنه من الأفضل لي أن أعيش بقية أيامي مؤدبا بدلا من أن يعلمني هو الأدب، كان يدخن وينفث دخان سيجارته تجاهي فتظهر من خلال سحب الدخان شياطين ومردة وكلاب مسعورة وأغلال وأسوار سجون وقضاة وعسكر وأنات أمهات فقدن أولادهن، وكنت أرغب في الصراخ لكنني انخرست، أصابني خرس قبل أن أعترف لنفسي بأنني بالفعل قد عجزت عن حماية امرأتي من شراسة مجرم محترف يعيش في بيتى ويرقد على سريري ويرتدي ملابسي وقتما يشاء، يدخن سجائري ويأكل خبزي ويسلب نقودي بحسب ما يريد، كنت أعاني مع الخرس إحساساً بالوهن الكامل والعجز حتى عن الزحف على بطني مثلما تفعل أية حشرة جريحة، وكان الولد رابضاً هناك في نفس

مكانه يتأملني ويتأملها بشماتة ووقاحة تؤكد لي ولها أنه ابن حرام.

●●●

كان الثور المطلوق الذي للست هانم يرمح أمامي في المنام أسعى وراءه كي أستعيده للبقرات التي كفت عن الولادة وإدرار اللبن، أوشك أن أمسكه من قرنيه بلا رهبة أو تردد، يبدو لي رغم قوته وضخامته قابلا للاستئناس طيعاً، أبحث عن حبل قيادة فلا أجد والثور قريب مني وفي متناول يدي، يتباطأ في خطواته وكأنه عقد معي اتفاقا لأعيده منقادا لأهل القرية والست هانم بنت عم الباشا الكبير، وأراها في البعيد تناديني وتناديه، لكن الثور الآخر يأتي رمحا من البعيد في اتجاهي وقد شرع قرنيه المسنونين وأظلافه المبرية فأفر منه، أراني بين ثورين أطلب أحدهما ويطلبني الآخر، نعبر المزارع والحدائق والشوارع والمناطق الساكتة، وأتداخل في ساعة الخطر في بدن الثور الطيب، أمتزج فيه والآخر يطاردني بعناد وشراسة، أطلب من نفسي ومنه أن نستدير ونواجهه بدلا من ذلك الفرار المخجل، أذكره بأنه يملك هو الآخر قرنين وأظلافاً قوية، يتباكى ويطلب مني أن أسن له قرنيه وأن أبري أظلافه وأتعجب لأنني لا أملك أية أدوات للسن أو البري، لا مدية ولا شفرة حلاقة ولا مبرد، تطول المطاردة وأري وجه الست هانم بنت عم الباشا الكبير وأسمع شكايتها من حكيم مطبخ جلالة الملك الذي أخذ ثورها الطيب وحوله إلى مجرد طبخة معبأة في كوب ماء ابتلعها جلالته ضمن وجبة غداء، تحذرني من إمكانية تكرار الطبخ بنفس الطريقة السابقة، وأنه في هذه الحالة سأكون أنا نفسي في داخل الثور المطبوخ وسوف أذوب أو أتضاءل قبل أن يبتلعني جلالة الملك.

أفكر في تخليص نفسي من الثور الطيب فأري الثور الغشيم ورائي، أعاود الرمح والاختفاء فتناديني أم الولد هذه المرة وأخجل من الظهور أمامها. أبقي في مكاني ضمن مكونات الثور القديم الذي يجري ليحميني من احتمالات الذوبان في وجبة أو الذبح بأمر ملكي مثلما حدث له، نتبادل أنا والثور الطيب بعض الحكايات القديمة عن الست هانم التي ظلت على عنادها دون زواج والتي ظلت عفية وصبية وقوية رغم مرور السنوات، والتي لم تفقد جمالها أو سحرها رغم موت الباشا وكل أولاده في أحداث عارضة. أشعر بارتياح وأنا ألمح الثور الآخر وقد انحرف بعيدا عنا وكف عن المطاردة، أفكر في الذهاب إلى مأوى يأوينا وقد اطمأن قلبي أنني على كل حال جزء من ثور مهذب من أفضل السلالات، وأنني أستطيع لو أردت أن آخذه إلى بيتي وأن أستضيفه، وفي المنام أيضا رأيت الثور الآخر يطلع لي من تحت غطاء فراشي شاهراً قرنيه المسنونين، أتعجب لأنه طلع لنا مثل الجني من تحت الأرض واحتل سريري وسريره.

●●●

عند شاطئ النهر جلست أشاور نفسي في الأمر، كان النهر حنوناً فأوحي لذاكرتي بكل المقدمات، تذكرت كيف كنت أداعب الولد فيقاومني دون أن يبدو عليه أنه قادر على المقاومة، وأنه في إحدى المرات ثني إبهامي فكدت أتوجع لولا أنني تماسكت أمامها وأمامه، وأنه لوي ذراعي مرة فثبت على حالي ونظرت إليه باندهاش قبل أن يترك ذراعي الملوي، وأنه كان يطالبني بأن أشتري له بعض الأدوات الرياضية التي يطلبها أمثاله لتقوية عضلاتهم التي تنمو، ولأنني في صدر شبابي كنت رياضيا معدوداً فقد أسعدني أن

يرث عني تلك الصفة، كنت أشجعه بالقول والفعل ليزود قوته، دفعت له اشتراك النادي الرياضي وأوصيت عليه المدرب العجوز بعد أن زودته بالملابس الرياضية اللازمة والحقائب وزودت مصروفه، ولابد أنه خلال تلك الفترة وضعني في عدة اختبارات ليتأكد من قوته التي تنمو ويتأكد أيضا من وهني، وكانت هي تزهو به عندما تتحدث عنه إلى حد أنها كانت في بعض الأحيان تبالغ وتجعلني أشعر بشيء من الغيرة الممزوجة بالفرح، لكنني كنت أوصيها بأن تهتم بتغذيته حتى ينشأ قوياً وقادراً على مواجهة المستقبل الآتي في علم الغيب والذي لا يبدو مطمئناً بكل الحسابات، هكذا إذن أوحي لي النهر بكل ما كان وما تاه من ذاكرتي بسبب الوهن والشيخوخة المبكرة وهول المفاجأة فقلت للنهر إن الوهن أصابنا وصرنا نخاف أن نسمي الأشياء بأسمائها:

" كنا نسمي البحر والنهر واللهو والعبث، كنا نسمي الكفاف والجوع والثراء والبذخ، وكنا نسمي السفه والجهل المتحكم، ونسمي الدم المسفوح الذي يلطخ جدران البنايات وينسكب علي الأرض، وكنا نسمي عمي القلوب وخداع الأبصار وخرس الألسنة، كنا نسمي الفجر الآتي ونور الشمس وصحوة الندي، وكنا نسمي الطلوع والخروج والأحلام والرؤى، كان الخيال أيامها يرمح في المدى ويتخطى كل الحواجز المعتمة، وكنا في ذلك الزمان نفهم كل لغات الدنيا، حتى الألسنة الملوية التي كانت ترطن باللاوندى أو بالعبري كنا نفهم مقاصدها، حتى أحلامنا أيها النهر القديم أصابها وهن، صارت أحلاما مبتورة، وأنا أستخدم عكازي كي أتصالب وأقوم فلا أقوم، أظل في نفس مكاني، فهل ترضي لي أن أتجمد على طرف مجراك بزمهرير

البـرد اللافح من "طوبة "، أو أنك تغـريني بـأن أخلع كل ثيـابي وأنزل إلى مياهك مثلما كنت أفعل في مثل هذه الأيام وأتطهر ويطاوعني عزمي؟ ربما تريدني أسلم روحي لروحك لتريحني من كل هذا السخف ".

لكنه بدا لي أن النهر أصابه خرس مباغت أو أنه في الحقيقة أصيب مثلي بالوهن وتصامم عن سماع الشكايات من أفواه البشر، ومن البعيد البعيد كنت أري شبحا يسعى ناحيتي لا هو بالتأكيد يخصها ولا هو بالتأكيد لا يخصها، كانت تلوح لي بكلتا يديها، وربما كانت تناديني ولا أسمع، تتكشف لي رغم العينين الكليلتين الدامعتين ملامحها فتعينني على القيام، أنهض وأقوم وأمشى ناحيتها، يشهدني نهر الله وشمس الله التي طلعت فنورت وجهها وهي تبتسم وتحتويني في حضنها، تستعيدني من الضياع وأستعيدها وسطح النهر يلمع.

●●●

اختلط علي الأمر فلم أكن عارفا علي نحو واضح إن كانت صلاة الجمعة اليتيمة في صحن الجامع الأزهر أو مسجد الحسين بن علي كرم الله وجهه أو السيد البدوي وقد تباعدت عنه غصبا أو فرط هو في بقائي مجاورا له، أو ربما كنت في جامع محمد علي الكائن في قمة القلعة، كنت واقفا في خشوع في أحد الصفوف الوسطي، وكان صوت الإمام يصلني بعسر عند كل تكبيرة، لكن الصفوف التي كانت أمامي وهؤلاء الذين كانوا عن يميني وشمالي كانوا يسهلون علي الانتظام معهم في السجود والركوع والقيام والقعود، وكان أخشي ما أخشاه هو أن أتخلف عن الجماعة أو أسبقهم، وكان الحذر من الالتفات يمينا أو شمالا حتى لا تبطل صلاتي يجعلني أركز

عيني في مكان سجودي إلي الأمام، وبدا لي أن قدرتي علي التحكم في حالة السجود أقل من مقدرتي في حالات القيام أو الركوع أو القعود أو الوقوف، وفي المرة الثانية من حالات الركوع شعرت بأن الوقت قد طال بي إلي الحد الذي جعلني أحس بالتنميل يغزو نصفي الأسفل والرعب من العجز عن القيام أو القدرة بعد التكبيرة علي السجود يرعبني، لكن الأمر انتهي علي خير لأنني تمكنت من السجود برغم ما كان قد أصابني من شبه فقدان للقدرة علي إحساسي بالقدمين والساقين والفخذين طلوعا إلي منطقة العجزين والوسط.

كان الوقت بحسابات العقل نصف المدرك يطول ويطول ويطول إلي درجة الشك في أنني كنت وحيدا في سجودي وأن هناك احتمالا قائما بأن الصلاة انتهت بالفعل وأن المصلين انصرفوا بسبب أنني لم أسمع التكبيرة، لكن أنفاسا كانت تصل إلي مسامعي علي فترات متقاربة وتخلصني من شكوكي التي كانت تصل إلي حد اليقين الزائف الذي يتسلل إلي عقلي بواسطة شيطان كافر لا يستحي من دخول المسجد في صلاة الجمعة اليتيمة، يدخل دماغي ويسكن رأسي الساجدة ويوسوس لي أن حالتي البدنية لا تحتمل، يهمس بأن الدين يسر وأنه ليس علي المريض حرج، أتأكد من سماعي لأنفاس المصلين وإحساسي بالونس وكأنها أنفاس ملائكة أتقياء تأتي وتساعدني علي طرد شيطاني الرجيم بلمس جسدي الساجد بخفة لمساعدته علي احتمال الوجع، أزفر فرحانا وقد انطرد الشيطان مغلوبا علي أمره وإن لم يكف عن الدوران حولي بحثا عن ثغرة يدخل منها إلي دماغي في لحظة غفلة عابرة، أقاومه وأقرأ " عدية يس " فيفر ويتباعد ثم يعود ليدور

حول دماغي بينما أنا ساجد ما أزال، يقتحمني الشيطان الفاجر مستغلا الصمت المطلق الذي يخلو من كل الأنفاس، أنفاسي وأنفاسهم، يؤكد لي أن الصلاة انتهت وبأنني الساجد الوحيد في المكان وقد تحولت إلي فرجة مجانية بعد أن صرت مساحة مدورة ملمومة علي نفسها وقابلة لتفسيرات متباينة، فمن قائل أنني بدن ميت يلزم دفنه أو شهيد للعشق الإلهي مأواه الجنة ونعيمها، وقائل أنني عبد متبتل يسعى للحصول علي غفران الرب الغفار للآثام التي ارتكبتها في شبابي ورجولتي وشيخوختي المبكرة التي أعيش أيامها وأستغل كرم المولي في أواخر سنوات عمري لأدخل الجنة وأتساوى مع الأتقياء القدامى والصالحين.

تخرج أنفاسي وأنفاس من يحيطون بي فيزيد إيماني وأفلح مرة أخري في طرد شيطاني الكافر من دماغي، أقرأ الصمدية عشر مرات والفاتحة سبع مرات وما تيسر من سورة التوبة، يفر الشيطان الكافر من المكان تماما وأسمع التكبيرة فأتساند علي الكفين محاولا رفع رأسي فأعجز أو يبدو لي ذلك، أقرأ سورة النصر وسورة الإخلاص فيشتد عزمي وأتمكن من القعود، أقرأ التحيات بسرعة وأسلم – وقد سمعت صوت الإمام – علي ملاكي الأيمن وملاكي الأيسر وأتنهد في ارتياح، أعتدل في نفس مكاني بكل العسر فأطلب من المولي جل في علاه أن يبعث الحياة في نصفي السفلي لأتمكن من القيام، هل كنت ثابتا في مكاني أو كنت أدور حول نفسي؟ اختلط علي الأمر، لكن فزعا انتابني فجأة وأنا أتلفت حولي فأكتشف أن القبلة كانت ورائي ووراء الإمام وكل من كانوا في صحن الجامع يؤدون الصلاة، ألطم الخدين بينما ينصرف الناس، أرغب في الصراخ فيهم

فينحبس صوتي، أشعر بمسئوليتي عن إعادتهم للصلاة ووجوههم في اتجاه القبلة، لكنني بيني وبين نفسي أتخوف أن يكون الأمر دسيسة لتوريطي من شيطان يبرع في ادعاء الإيمان ويمارس الرذيلة، أتهم روحي بأنني غيرت اتجاهي وأنا في غفلة من أمر نفسي بعد الصلاة، أكف عن تلك الإشارات المحمومة التي كنت ألوح بها لاستعادتهم مستخدما ذراعي التي لم يستجب لها أحد رغم عشرات العيون التي كانت تلقي علي نظرات خاطفة تلتفت إلي طريقها المرسوم.

يطول بي الوقت وأنا قاعد في نفس مكاني أسأل نفسي إن كان ما صليناه قبل ذلك جمعة يتيمة كما كنت أظن أو أنه فجر تأخر عن موعده بحساباتي فحسبته ظهيرة جمعة يتيمة بينما النتيجة المعلقة أمامي تعلن أننا في غرة شوال، أقول لنفسي إن الأمر اختلط علي منذ البداية فلم أعرف المسجد أو الجامع الذي كنت فيه أصلي، وأن الوقت نفسه لم يكن محددا سواء كان فجرا متأخرا أو ظهيرة مبكرة، لكن صوت المؤذن كان يصل إلي واضحا وجليا ونفس الإمام يتخذ نفس مكانه السابق ومن نفس الاتجاه ينادي الجموع ليستقيموا ويساووا الصفوف قبل أن يقيم الصلاة، وكنت أرغب في الصراخ هذه المرة أيضا لكن صوتي كان لا يزال محبوسا.

كنت أشعر بالاختناق وأحاول أن أتنفس فلا أستطيع، هل استسلمت لفكرة الموت وأنا في نفس مكاني في مسجد أو جامع لا أعرف مكانه أو أنني قاومت فكرة قبول الموت وأنا شبه أخرس؟ لابد أنني اخترت المقاومة وانتفضت في مكاني لأصحو من منامي المعكوس وأجدني فوق الفراش وقد انعكس اتجاهي المألوف وانحطت القدمان فوق الوسادة بينما تدلي رأسي

إلي أسفل عند طرف السرير، كنت أشعر بنفس الحالة من عدم القدرة علي تحريك بدني وقد سري خدر يصل إلي حد انعدام إحساسي بالقدمين والفخذين والعجزين والعامود الفقري حتى منطقة الوسط، وكنت أبكي من فرط الوجع وعدم القدرة علي تفسير المنام.

●●●

دعني أطالبك الآن وقد بحت لك بمواجعي أن تنصفني وتتوافق معي، تبرر لي ذلك الطموح الذي تجدد لدي، فصاروا يحدثونني لا أقول من مربع الحسد بل أقول إنها تولدت من منطقة المباركة، وربما تسللت لمشاعري بعد زمن التخاذل، ومثل تلك المخاوف التي تعايشت معها مرافقا لبعض الكسل متقبلا بعض التبلد المعجون بالخزي وأنا الحالم بالطلوع، وحالات الصحو من الغفلة التي تنبهنا لوجودها في الخلايا الساكنة في أبداننا بعد أن سعينا ناحيتها لسنوات طالت وطالت، وتمددت وكتمت علي أجهزتنا العصبية التي بدت لنا شاكية لأبداننا وغير متشكية لمن يتابعون حركتنا عن بعد ويتدبرون أمورهم، وتبادلنا الأسئلة عن مصائرنا لو تجاسرنا وسألناهم أو تشكينا لهم دونما حذر، وبأياديهم الأسلحة وكيماويات التدمير الشامل، وربما دار الحوار المنطوق بيننا أو اتفقنا بعد أن سألنا بعضنا البعض، ماذا لو سايرناهم وواصلنا خطواتنا بنفس الإيقاعات الكسلانة، وتلك التي ترضيهم وتطمئنهم بأن غفلتنا طالت خلافا لكل توقعاتهم، ولقد بدا لهم أنني غسلت نفسي وغسلت ثيابي من تراب الأرض الطينية، وتباعدت عنها مثلما قالوا عنك وهم يتندرون علي مخاوفهم التي لم يكن لها أي مبررات، لكن الأرض الطينية في دروب الكفر كانت تسكنني ، وصحيح أنني تباعدت عنها

غصبا عني ولم أرجع لها متعجلا علي أي نحو ، قلت لنفسي أيامها " في التأني السلامة " ورغم أنني تبينت البدايات التي قادتني لتلك الدهاليز المفتوحة علي الفراغ المفتوح وتحملت صهدها، وكانت الشمس المألوفة في الكفر تدعونا لنتخفف من ثيابنا لو سنحت لنا أية فرصة.

وفي بلادنا التي كنا في طفولتنا وصدر شبابنا نتخفف من تلك الثياب، ولا يتبقي لنا إلا ساتر العورات المكشوفة بلا خجل، ومثلما كان أي هبوط وأي صعود مرصودا بعيون الأحبة والخصوم بدرجات متفاوتة في حياة البشرية، وقد يسفر عنه محصلة نهائية ترجح كفة من الكفتين الساكنتين ويكون الناتج خطوات إلي الأمام أو خطوات إلي الخلف، والثمرة المستحقة مقابل الهمة التي بذلناها، وهي الشوكة الجارحة مقابل التخاذل، مسائل متشابكة لا يحسمها الكائن الحي وحده، يصعد أو يهبط بها متوافقا مع نفسه، راضيا في بعض الأحيان عما صار إليه حاله، ومعترضا أو ساخطا فتأتي الرياح أحيانا بما لا تشتهي السفن، بمثل ما قالوا لنا في بواكير الحياة فأتحول إلي كائن ساكت متأمل يختزن اختياراته لتتواصل الحياة ويبقي مستمسكا ببقائه، ودون أن يحسبوا حسابا لمعايير الإرادة البشرية لأي كائن حي، ليتعرفوا علي دوره الفاعل أو دوره السلبي في الكثير من الحالات وكيف يقاوم رغبة الخلاص من الحياة هروبا أو انتحارا، وبخلاف حالات تدافع الكيان الحي لسكة الخلاص والانسحاب عجزا يتعادل مع فرار من مواجهة أعداء الوطن بميادين القتال وهو فرار بكل الحسابات، ولا يهم بعد ذلك ما يقال لحفظ ماء الوجه بعده، وعلي استحياء أحيانا أو بتبجح يصل لحد ادعاء المهزوم أنه انتصر، فيحق لنا أن نستشهد بما كتبوه في

بعض صفحات التاريخ المحسوب، ومن وجهات النظر التي تخصهم، ولا يهمهم مثلا أن نقبلها أو ننتقدها بإعتبارنا ممن قرأوا التاريخ المكتوب من وجهات نظر متباينة تتفاوت فيها اجتهادات من تولوا الكتابة بين صدق وتزييف مكشوف وهو يصور القائد المهزوم بطلا، فاز علي نحو غير مسبوق ليدخل به تاريخ البشرية المكتوب والحافل بمثل هذه الأكاذيب.

وربما لأن المنتصر لا يعنيه ما يشاع عنه وقد تحققت أغراضه الكبري، فماذا يضير لو بعبع مهزوم أمامه بإدعاءات يفتعلها، وهو يروي تاريخه لقبيلته بتواضع مفتعل، فيتظاهر البعض بتصديقه ليرتاحوا من دخول ساحة الجدل تصديقا أو تكذيبا.

وقد أتجاسر قبل أن أبوح لنفسي بالحقائق كما عاينتها وعايشتها، وأنا نفر في جيش قبيلته التي عبرت الحدود ثم تراجع مسنودا علي خطوات تأكدت فيها جسارته بشهادة المشايخ، وصراخ الخصوم الراغبين في تأكيد نصرهم، وكإضافة يتمسك بها علي النحو الذي يؤكد له أن نصره كان نصرا خالصا، ولأنه أخرج نفسه من مربع الأقاويل وشهادات مكتوبة ومدموغة ومبصومة، تشهد بأنه حاز نصف نصر ونصف هزيمة، وهي في النهاية حكايات متداخلة تتوّه العقول التي ترغب في الفهم، ولكي تستعيد الجسارة الساكنة في الجينات الوراثية المؤكدة، وكم أكدوا له أنه الوريث الشرعي لسلالة قال خصومها أنها انقرضت وتلاشت، وما تبقي منها غير بضعة نقوش قديمة وبنايات وعواميد وتماثيل حجرية لأنصاف آلهة، وكل ما هو مسطور وباق شبه كتابات غير محلولة الرموز، ونقوش بارزة تكسرت زواياها وصارت غير قابلة لفك أي لغز يدعيه من يدعيه، وكم أشاعوا أن من

قال إنه فهم دلالات تلك اللغة وفسرها عابر سبيل، ولم يكن وريثا شرعيا لمن دفنتهم الأزمنة تحت رماد الأرض، لكنه كان بارعا في تفسير الدلالات التي رآها ، ولعله لم يهتم أو يتراجع بعد أن تيقن من مصداقية تفسيراته، ولأن من كانوا خصوما للحياة كذبوه علي عادتهم، ثم انزاحوا متباعدين عنه ليرتبوا أقاويلهم التي سربوها عن ذلك التداخل والتشابه الواضح ما بين تلك الكشوف وطلاسم عتيقة، سطروها في السابق وادعوا أنها تتشابه أو تتطابق مع الطلاسم التي سجلوها خطوطا ملوية ومقلوبة، وعرفوا بها الغرباء وبرعوا في تفسير الحالة بأقنعة حياد زائف، وكما غضبوا ممن اعترضوا وقالوا إن هناك أدلة معكوسة تنفي تلك الدعاوي، بل تطاولوا عليهم وأكدوا أن الطوفان أزاح أجدادهم ودفنهم تحت مياه البحار والمحيطات وأنكروا عودة الأموات بعد آلاف السنين ثم تحولوا إلي فزاعة لتخويف الأحياء من تلك السلالة التي حافظت علي ميراثها وحنطت أبدان من ماتوا منهم وأسكنوهم في البراح المحفور في سراديب تلك الجبال ليتواروا عن الخصوم الذين تطوعوا لتأكيد فنائهم، فلم يصدقهم العقلاء، وتلونوا وأشاعوا أن لهم نصيباً في تلك الأبدان لأنها تخص أولاد عمومتهم العقلاء.

●●●

في المنام الناعم البدايات استشعرت غبطة طارئة وأنا أتحدث لزوجتي وعيالي عن مدينتي الصغيرة التي سكنت كل أحيائها وطفت في كل شوارعها وحواريها وأزقتها، وكيف كنت ألعب في كل ساحاتها وميادينها وأجرانها الخالية، كانت المدينة القديمة تتجسد بكل تفاصيلها، تنادينى

وتدعونى لزيارتها وتعريف أسرتى الصغيرة عليها وتعريفها بهم، ولا أدرى كيف اقترحت عليهم تغيير ملابسهم استعداداً للسفر ووفاءً لوعد قديم لم يتيسر لى تنفيذه على امتداد السنوات الأخيرة، كانت فى القلوب فرحة تنعكس على كل التقاطيع بما فيها تقاطيعى المنعكسة على سطح المرآة.

وفى المنام الناعم البدايات لم نكابد زحام المواصلات ولا سخونة الجو، ومثل أهل الخطوة انتقلنا إلى وسط المدينة دون أن نشعر بأى ملل ناتج عن انتظار الوصول بسبب طول المسافة، وفى ميدان المحطة أشرت لهم متباهياً نحو البناية الجديدة المسلحة التى احتلت مكان مدرستى القديمة التى حصلت منها على الشهادة الابتدائية، وذكرت لهم كيف كنت أرسم محطة السكة الحديد الكائنة فى مواجهة المدرسة، كنت أرسمها بدقة دون أى خطأ فى ترتيب النوافذ والشرفات أو أعداد الأعمدة والقراميد وأنصاف الدوائر فوق النجوم الخماسية والمثمنات البارزة والغائرة، وكيف كان الأستاذ حلمى مدرس الرسم يتباهى ببراعتى فى الرسم أمام تلاميذ فصلنا وكل الفصول الأخرى، كان يأخذ رسومى ويضعها فى إطارات ويعلقها فى كل الفصول وحجرات المدرسين، وكان مكتب الناظر نفسه مزوداً بلوحة من لوحاتى فى إطار من خشب الأرابيسك الدقيق، كان الأساتذة والتلامذة قد أطلقوا على اسماً أتنادى به مثل اسمى الأصلى أو مضافاً إليه:

- رسام المحطة.

أسمعه فأرد وأنا فى حيرة لا أعرف إن كان الاسم المضاف قد رفع من شأنى أو قلل قيمتي.

وفى المنام الناعم البدايات أيضاً انتقلنا بيسر إلى شارع البحر القديم

وقد خلا من البحر المنقول إلى شمال المدينة ثم ردموا مكانه واستزرعوا شجراً ونخلاً وزهوراً وخضرةً فى نهر الشارع وعلى الجانبين رصفوا طريقين عريضين لهما اتجاهان متعارضان ترمح فيهما عربات الحنطور ذوات الأجراس المعلقة فى أعناق الخيل الملجمة التى كانت تدق بسنابكها الأرض فى إيقاعات منتظمة سواء كانت متسارعة أو متباطئة بينما طرقعات الكرابيج المتباعدة عن أبدان الخيول تدعم الإيقاع، ولعلنا ركبنا فى المنام حنطوراً ونعمنا بالنسيم الهادئ الذى أنعش الصدور، لكننا فى منتزه المدينة الكبير سرنا سيرا هيناً على الأقدام، كان المنتزه مثلما كان فى السابق فسيحاً ومتنوع الزهور والأشجار، وكانت فى الأركان نافورات الماء وتنشر الرذاذ الدقيق الرطب لينعش الوجوه والأبدان، رمحنا بشكل متواصل بين الممرات وحول الأشجار وتوارينا خلف الجذوع وضحكنا مثلما كنا نضحك في الزمن القديم دون أن نشعر بأي تعب أو رغبة في الكف عن اللعب.

وفى المنام الناعم البدايات زرنا مقام السيد البدوى وقرأنا على روحه الفاتحة، وبآلية وضعنا ما جادت به النفوس فى صندوق النذور، نفس الصندوق الذى كنت فى سنوات الصبا الباكر أضع فيه نصف النذر عقب كل نجاح وأستأذن صاحب المقام أن يسامحنى ويقبل تأجيل النصف الآخر، أحدثه عن رغبتى فى تأجير دراجة أو دخول سينما مصر أو مسرح البلدية، يبدو لى فى كل الحالات موافقاً وراضياً، كانت بينى وبينه علاقة طيبة، أصلى فى مسجده كل جمعة وكل عيد وأستذكر دروسى الصعبة فى ساحته البراح فتبدو سهلة وهيّنة، ربما أكون قد قلت لزوجتى وعيالى شيئاً من حكاياتى مع السيد البدوى، وربما لم أفعل، لكننى فى المنام كنت أتذكر كل

ما كان من تفاصيل تاهت في الصحو مني وما عادت تتبدّى على الإطلاق.

لكن المنام الناعم البدايات راوغني وكشر عن أنيابه وأفزعني بلا مقدمات، كأنه صديق قديم بحساباتي كشفت لي الأحداث غدره فاستحال إلى خصم يختزن في ذاكرته أهم أسراري ويبوح بها بمثل ما يعرف أحلامي البسيطة ويتآمر لتعويقي بأساليب غير مشروعة وانحطاطات لم تخطر على خيالي أبداً.

لقد كنت في المنام الغادر أعرض على زوجتي وعيالي فكرة دخول السينما الكائنة في ميدان الساعة وقد تعطلت وعلا عقاربها وأرقامها رماد ناعم متراكم وعناكب مطمئنة تنسج الدوائر بلا كلل، كنت أسمع منهم جميعاً عبارات الموافقة بحماس، لكنه حدث أن جاء ولد متجهم الملامح يرتدي قميصاً ممزقاً وملوثاً بالشحم والوساخات مع بنطلون أكثر قذارة من القميص، جاء هذا الولد والتحم في عراك مفاجئ مع طفلي الصغير، وسّخ ثيابه ولوث وجهه على نحو لا يليق، وقبل أن أتدخل تحوّل إلى ابنتي وزوجتي في نفس الوقت قاصداً انتزاع السكينة والإحساس بالأمان من قلبيهما، سمعت الصرخات وحاولت إبعاده عنهما لكنه أزاحني بعنف وتطاول علينا جميعا بكلام لا يليق.

كنت في مأزق بين الرغبة في إبعاده عنا باللين أو الدخول معه في صراع، لكنه قرأ أفكاري وأعلن دون مواربة أنه مكلف باستفزازي لأدخل معه في عراك، وأضاف أنه يعرف كل شئ عن مواجع قلبي وضيق صماماته وشرايينه واستحالة قدرته على تأدية وظائفه إذا ما تجاهلت تنبيهات

الأطباء، ولابد أنني غامرت في المنام الصعب إلي الحد الذي جعل رغبتي في تأديبه أقوي من رغبتي في استمرار الحياة.

كان الولد المتجهم في مواجهتي يستدرجني لبذل المزيد من طاقتي ضده، وكانت ابتسامته الساخرة المستهترة تستفزني أكثر، وبدا لي أن كل ما كنت أوجهه له من لكمات أو ركلات لا تؤثر فيه علي أي نحو، كان يبدو لي مثل الكيس الجلدي المكبوس بالرمل الذي كنا نستخدمه أيام الصبا والشباب في تدريبات الملاكمة المتكررة، مجرد كيس من جلد سميك مكبوس برمل ناعم نكيل له الضربات دون أن يحس أو يشعر، بل علي العكس كنا نحن نتوجع إذا زودنا قوة اللكمات، ولابد أن الولد أنهكني إلي الحد الذي جعل الناس تتعاطف معي وقد أدركوا أنه عراك مفتعل يهدف إلي قتل رجل من رجال المدينة القدامى وقد تهالك تماما وإن بدا أنه يواصل الضربات لخصم لا يحس أو يتأثر أو يخجل أو يصيبه أي قدر من الألم.

وفي منام القتل المدبر أشار بعض الناس إلي قسم الشرطة الكائن فى نفس الميدان، عرضوا على وأنا بين الصحو والغياب مساعدتهم باقتياده بالقوة إلى باب القسم، كان البعض منهم يتطوع بذكر ما جرى منذ البداية وكيف أنه لم يراع طفولة الطفل ولا أنوثة البنت أو الزوجة ولا حتى المواجع البادية على وجهى وحركتى، وفى فورة الحماس وهم يقتادونه فى اتجاه القسم وعدوا أن يشهدوا جميعا لصالحى أمام الشرطة والمحكمة إذا لزم الأمر.

فى منام الغدر المدبّر أدخلونى مع الولد أمام الضابط المسئول ومنعوا كل الناس مثل ما منعوا زوجتى وعيالى خارج البناية، كنت مصاباً بكدمات

وجروح موجعة ومتفرقة بالإضافة إلى شروخ فى القفص الصدرى، وعندما حاولت أن أذكر ما جرى أسكتنى ضابط الشرطة بإشارة مهذبة ظننتها لصالحى حتى ألتقط أنفاسى وأتمكن من حسن الصياغة، كان الولد يتكلم بأكاذيب وادعاءات واتهامات ملفقة يكشف زيفها الضابط بذكاء فأفرح بعض الفرح وسط كل الوجع، لكنه عندما وصفنى نفس الولد بأننى شخص معترض وغاضب ولا أجيد غير الشكاية بدا عليه الاهتمام ودعاه لأن يبوح بكل الأسرار التى يعرفها دون تردد أو حذر، واندفع الولد ليذكر سيرتى الفعلية وكأنه يقرأ فى كتاب، حقائق أذكرها وأخرى نسيتها من فرط تفاهتها لكنه بين السطور الحقيقية كان يدس بعض الأكاذيب حول انتمائى السياسى المعارض ومقاصدى من التباعد عن المؤسسات والهيئات التى لا أتعامل معها مثل مصلحة المجارى والهاتف الآلى وسك العملة والتأمين الصحى والشهر العقارى والمطابع الأميرية ومكتبة الأسرة والنقابات المهنية والعمالية وهيئة المسرح والغرفة التجارية، وبدا أن ضابط الشرطة كان يتحول ببطء إلى كبير قضاة فى محكمة كبيرة ومن حوله جماعة من المستشارين ووكلاء النيابة بالملابس الكاملة والأوشحة الحمراء المزينة بسبائك النحاس المطلى بماء الذهب على شكل النسر أو صقر قريش أو حتى النجوم، وكنت فى منام الغدر وحدى أدفع عن نفسى تهماً غامضة وتخوننى العبارات، وينبهنى إلى ضرورة طلب الإذن بالكلام قبل الكلام، أتلفت حولى فلا أرى زوجتى أو عيالى، أستشعر قلقا إضافيا وأتخوف أن يكون أصابهم ضرر خارج البناية بواسطة الولد متجهم الملامح الذي اختفي تماما عن مجال رؤيتي.

أصرخ مطالبا بحقي في محاكمة عادلة فيسكتني كبير المستشارين بنظرة ازدراء، أتحدث عن المنظمات الدولية لحقوق الانسان فلا يبدو عليهم أن صوتي قد وصل إلي آذانهم، أتكلم عن حق المتهم في أن تنتدب المحكمة من تراه ليدافع عنه طالما يعجز عن اختيار أو استئجار من يترافع عنه، يتبادل كل من تزين صدورهم الوشاحات نظرات ارتياب واندهاش، أتلفت بحثا عن أي صديق قديم من أبناء مدينتي فلا أجد، أصرخ وأصرخ ثم يضيق صدري ويصعب علي التنفس، أبكي علي حالي وأستسلم للموت ثم أقوم مفزوعا من منامي الشرس فأجدني غارقاً في بحر من العرق وأصابع يدي اليمني ترتعش وتحاول عبثا أن تقبض علي الهواء.

●●●

كانت تأتيني بوجهها المتسامح وتحوطني بكل الحنان لتعوضني عن سنوات الحرمان منها وقد تركتني وماتت وأنا صبي عاجز عن إدراك الفارق بين الموتي والأحياء، كانت مشاوير المدافن طقسا مألوفا ومشاوير معتادة كل خميس، وكان الكبار يقولون لنا إن أمنا سكنت جنة عرضها عرض السموات والأرض فيها كل ما تشتهي الأنفس، وهناك يكفي أن تنظر إلي ثمرات التفاح لتجدها فوق طبق من ذهب خالص وقد غسلتها حور العين وقدمتها إليك علي مائدة من بللور مفضض، وقالوا أيضا أنك لو فكرت يا ولد هناك في الطعام فسوف تراه أمامك جاهزا فيه كل ما تشتهي نفسك مما لذ وطاب، وكل ما يفكر فيه البني آدم موجود، يربتون علي ظهري لأطمئن علي مصير أمي النقية الطاهرة التي لم تفكر في الظلم أبدا، حتى أعداؤها كانت تسامحهم وتطلب لهم بعد الصلاة كل رحمة وغفران، أفرح

لها وقد تأكد لي أنها تسكن الجنة وتنتظرني هناك لو تسامحت مثلما كانت تتسامح ولجأت للسلام الرحيم في مستقبل الأيام، وكنت أطاوع وأسامح برغم ظلم الظالمين الذي لا يحده حد، أسامحهم ويواصلون الظلم واهمين أنني عاجز عن الدفاع عن نفسي، أقرأ وأفهم أن المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف فأتعلم المصارعة وأتدرب علي رفع الأثقال وأتمرن علي الرمح بسرعة، أتمني لو صرت بطلا مشهورا لكن قدراتي تخونني في وسط المشوار.

●●●

في المنام رأيتني أسعي مع زميل قديم أصابه العمى والوهن في سراديب توصل إلي طرق غير معبدة للوصول إلي باب الوزارة لنسأل عن طلبات العيال، ورغم المشقة والمكابدة وصلنا وقابلنا رجلا مهذبا نطق باسمي الثلاثي واسم ابني فأشعرني بسعادة لم أصادفها منذ أحالوني إلي المعاش، قلت في المنام إن حفل التكريم جعلنا أنصاف مشهورين علي أقل تقدير، وغمزني زميلي الضرير وكأنه يهنئني بما نلته بعد التكريم، لكن الرجل المهذب أعادنا بكل أدب إلي أسباب مجيئنا وتكليف أنفسنا كل هذا العناء بينما كان من الواجب أن ننتظر في بيوتنا ونرتاح حتى تصدر الوزارة قرارات التعيين وتخطرنا بها، بعدها هز كتفيه وطالبنا بنفس نغمة المودة أن نذهب إلي المسئول عن طباعة القرارات وشرح لنا كيفية الوصول إليه واسمه بالكامل حتى لا نتوه في الطرقات التي بدت في المنام معتمة، لكننا وصلنا ووجدنا الرجل الذي رحب بوصولنا إلي مكتبه وأجلسنا ثم داس علي مفتاح جرس رن وظهر الساعي وديعا وطيعا يسألنا عن المشروب

الذي لابد أن نتناوله علي حساب المسئولين الكبار فطلبنا شايا بالحليب، خرج الساعي وتركنا مع الرجل وجها لوجه، سألنا عن أسماء الولدين فذكرناهما له، نظر ناحيتي وسألني بغتة:

– هل كانت لك في السابق أي أنشطة سياسية معارضة؟

– لا.

قلتها مرعوبا ونظرت ناحية زميلي الضرير ربما لأشهده فلم أجده إلي جواري كأنما انشقت الأرض وابتلعته أو ذاب في الهواء فتحيرت في أمر نفسي لكن الرجل أضاف لسؤاله سؤالا آخر:

– كتبت مرة تهاجم أحد الأديان السماوية فسببت للحكومة أيامها حرجا شديدا في علاقاتها الخارجية أليس كذلك؟

– أبدا.. أبدا أنا رجل مؤمن جدا بكل الأديان وعاشق للسلام.

– وكلامك المنطوق عن راية تتوسطها نجمة سداسية؟

– كنت أتشكي أيامها من الصهيونية العالمية باعتبارها تيارا سياسيا قتل أخي الوحيد، فهل هي دين سماوي؟

– حاول أن تنسي سوء فهمي،اعتبره دعابة غبية، نرجع لموضوع الولد، التأشيرة صريحة وسوف تنفذ بالقطع، لكن هناك إجراء أبسط من البساطة، سننتظر موافقة المالية.

حاولت أن أوضح له أن هذه الموافقة لم تكن في حسباني أبدا، رفعت صوتي نصف المحتج قليلا في المنام لكن الضرير عاد ليهمس في أذني أن أكون هادئا حتى لا ألقي مصيرا تعسا بتهم الاعتداء علي موظف أثناء تأدية عمله وقد يطالبون بفتح ملفي القديم، وأحاسب باعتباري من المعارضة

الشرسة، كان هناك أمام المسئول كشف مكتوبا فيه أسماء كل أولاد الزملاء القدامى ووسط الورقة مساحة منزوعة بشكل عشوائي وبدائي تتسع لاسم واحد، ولأنني كنت أصرخ في منامي غضبانا أنقذني الولد ونبهني ليخبرني أنهم طلبوه في الوزارة ربما ليتسلم عمله.

●●●

بدا لي في الكابوس المرئي والمعاش أن الأجزاء الممزقة من الأبدان تتناثر متباعدة علي نحو غير محسوب حسابه للمتطوعين باختيارهم للملمة الرفات ووضعها في أكياس البلاستيك مغموسة بالدم، وكانت كفوفهم الملوثة بالدم المخلوط غير المعروف هوية لصاحبها تتحسس الأرض وزوايا السيارات الممزقة والمحروقة بينما تتطلع عيون أخري بأسي عاجز عن تأدية دورها كما ينبغي، ربما بمرارة الفقد ممزوجة بالعجز عن الفعل أو رد الفعل المكبوت في داخل الداخل، وربما يصرخ البعض أو يتباكى علي ما صار إليه الحال وقد تأكد الجميع من فقدان الأمل في الحصول علي أية درع لحماية أطفال تمزقت أبدانهم مجانا لمجرد أنهم كانوا يعبرون في المكان أو يتوارون داخل بنايات تهدمت فوق الرؤوس وأجبرت الأمهات علي الفرار بهم من جحيم محتمل إلي جحيم أشد ضراوة وبلا مقابل، أو أخطاء أكثر من التواجد في تلك المساحات التي أحكموا حصارها بالدبابات المدعومة بمروحيات وطائرات تسبق الصوت وتطلق نيرانها في اتجاه أهداف مقصودة فتصل إليها ببراعة مشهود بها، وتتخطي تلك الأهداف لتصيب كائنات بشرية باحثة عن أي مهرب أو مخرج دون جدوى.

يتجمع البشر حول الضحايا من الرجال والنساء والأطفال الذين تحولوا

إلي أشلاء ممزقة ومخلوطة ويستحيل تمييز هويتها أو التعرف علي من كانوا في السابق أصحابها، يصعب لملمة أجزاء الأبدان المفرومة في الأكياس البلاستيكية الممسوكة في قبضات من تطوعوا لوجه الله بتجميع كل ما يمكن تجميعه تمهيدا لتشكيل أشباه أبدان بشرية لتوضع في نعوش ملفوفة برايات يتسرب إليها الدم المخلوط غير المعروف هوية من كان يجري في عروقه.

●●●

سوف أخرج من السياق السابق وأحدثكم بضمير المتكلم بعد أن قطعت شوطا لا بأس به داخل إطار الراوية العليم بكل شئ وهو أعجز من أن يعلم دخائل النفوس في كل الحالات، لكن تقاليد القص تتبدل مثل الزمن الدوار بمثل ما تتبدل الكائنات الحية بأسرع مما كنا نتصور بسبب أشياء عشناها وشغلت عقولنا معا بدرجات متفاوتة لكنها لم تترك علي الأرض المسكونة من لم يتأثر بها بالسلب أو بالإيجاب، وكلنا نقرأ عن العولمة ووسائل الاتصال السريع وزيادة الحروب العرقية والمنازعات علي الحدود التي كانت في السابق مرعية، وترسانات لتلك الأسلحة النووية المسموح بوجودها بلا حياء، وعلي العكس من حقوق التفتيش الدولي عن أية أسلحة حتي ولو كانت بنادق تطلق أعيرة نارية تهدد الترسانة النووية المشروعة والمسموح بها، هناك " خيار " و" فقوس " في عالم السياسة الدولية والتي يتحكم فيها الكبار وتصل أحيانا إلي تحويل الأحجار الصغيرة التي يتسلح بها أطفال وصبية يدافعون بها عن أرواحهم ضد الدبابات المقتحمة للبيوت والمخيمات، تصنف نكاية في أمثالنا بأنها أسلحة للدمار الشامل وقد تستوجب ضغوطا من

الأكابر لعدم استصدار بيانات أو قرارات مضادة لحق الدفاع الشرعي عن الأرض والعرض والحياة باعتبارها إرهابا، ثم مخالفات لقرارات مجلس الأمن الدولي المتكررة التي لا تنفذ أبدا بسبب النسيان الذي هو صفة من صفات البشر علي العكس من صفة التذكر المصاحبة لنفس البشر لتطبيق قرارات أخري أغبي من الغباء وبتعسف مضاد لشعوب تعسة ربما بنفس درجة تعاسة الشعوب التي صدرت لصالحها قرارات لم تنفذ أو فكر أحد في تنفيذها.

سوف أعتبر نفسي شعبا مهضوم الحقوق منهوبا ومعتدي عليه يسيل دمه هدرا لصالح الجناة الذين يواصلون مشوار إزاحته عن أرضه لكي أستريح، أقول لنفسي ولكم في البداية المتأخرة بعاميتنا المصرية " اللي يشوف بلوة غيره تهون عليه بلوته " وبالتفصيح المتعمد " من رأي بلوة غيره هانت عليه بلوته " المسألة بسيطة جدا وأخف من شكة الدبوس أو الإبرة، أخف بكثير لأن اللغة طيعة والمخزون في الذاكرة من مواجع حقيقية أكبر بكثير من أن تقف اللغة حائلا يعطل فرصة التواصل معكم، ربما لأنها مواجعي باعتباري شاعرا معاصرا ومستقلا بإختياره، لكن الشعراء مدارس أعبطها تلك التي تتحسس ما يدور حولنا من مساخر وتعبر عنها دون حسابات مسبقة، ربما لو كنت حتي عضوا في واحد من أحزاب المعارضة التي هي مقار مجانية ترفع اللافتات وتملك صحيفة يمكن أن تلقي الأضواء علي من ينتسبون لها، صحيح أن بعض هذه الصحف قليلة الانتشار لكنها في نهاية الأمر صحف تنشر الصور وتروج للشعراء وأنصاف الشعراء ممن يتألقون في سماء الحركة المعاصرة.

أقول إنني اخترت دون ضغوط أن أكون وحدي موهوما بأن الشعر الحقيقي وحده قادر علي الوصول إلي عقول الناس والتأثير في مشاعرهم وأنه يوصل للخلود، نوع من العبط الموروث أو المكتسب الذي يوهم الإنسان بأنه حر بحسب ما يتصور عن نفسه وقادر في نفس الوقت علي أن يقول للأعور أنت أعور عيني عينك، ربما يرجع الأمر لسوء التربية الأساسية أو حسن النوايا في زماننا الباكر، لكن المحصلة كانت عسرا متواصلا ومعاشا حتي بلغنا من الكبر عتيا ووقفنا علي عتبات الستين، لكن المشوار أضنانا وأصابنا بمواجع لم نحسب حسابها في القلب كانت تتطلب علاجا سريعا قبل أن يستفحل الخطر، ونظرت حولي في فزع، كان من المألوف أن تتولي الجهة التي تشرف علي من يعملون بها اتخاذ الإجراءات التي تتطلبها الحالة بعرضها علي الوزير المختص، ولأن الأستاذ جعفر عبد رب النبي كان مسئولا عن الأمرين معا، عن الشاعر والموظف القديم فقد طالبني بأن أقدم إليه التقارير والتحاليل الطبية ليتولي عرضها علي الوزير بنفسه، وأفهمني أيضا أنه من حقي الحصول علي كل رصيد أجازاتي دون قلق بينما يتولي هو عمل كل شئ لازم بمثل ما قام به متطوعا مع غيري من الشعراء الذين أصابتهم مواجع القلب قبلي.

قلت لنفسي أن الرجال معادن تظهر في الأوقات العصيبة وأن الرجل لم يكن يستحق تباعدي عنه بعد لقاءين أو ثلاثة لم تتوافق فيها الأمزجة، وقلت لنفسي ايضا أن بعض الظن إثم، هل غفرت له في تلك اللحظات كل ما كان يبدو لي سلوكا غير مستحب بحساباتي المتشددة في الحياة وقد انقلبت الدنيا رأسا علي عقب فصار من اللازم أن يبحث البني آدم عمن يحوطه

ويحميه من المخاطر في الأوقات العصيبة؟

وظللت أنتظر مطمئن البال بأنه سوف يفعل ما وعد به لأنه وعد بدون ضغوط أو حتي طلب، لكن الأسابيع كانت تمر تباعا وحالتي بحسب تأكيدات الأطباء تتطلب جراحة عاجلة تكاليفها باهظة فوق كل تصوراتي، كنت أسر لكل من يفاتحني في هذا الأمر أن الأستاذ جعفر سوف يستصدر قرارا بعلاجي علي حساب الدولة أسوة بزملائي في الشعر والعمل، يتأملني الواحد منهم ويعاود تحذيري من خطر المضاعفات إذا تأجل الأمر أكثر، قلت لنفسي أستعجله واثقا من أن تأخيره ناتج بالقطع عن كثرة انشغالاته وسفرياته، سألت عليه بالهاتف فلم أتمكن من سماع صوته، في الشغل عنده اجتماع يتلوه اجتماع أو سفر في الداخل أو الخارج يتلوه سفر، وفي البيت نائم أو غير موجود أو حتي في الحمام وسوف يكلمني بنفسه فور خروجه، لكنه لم يفعل أبدا، كان أستاذه في السابق قد سمع بما جري لي فهاتفني علي غير توقع وسألني عن الأحوال فشرحت له كل ما كان وكيف أنني ما زلت أنتظر، أبدي دهشته وأفهمني أنه سوف يستعجل الأستاذ جعفر ويوصيه بعمل ما يلزم لإنقاذي ثم أملاني كل أرقام الهواتف التي تخصه وطلب مني أن أكلمه في اليوم التالي لأعرف نتيجة مسعاه.

وفي الموعد الذي حدده حدثته فأفهمني أنه كان يفكر في مهاتفتي منذ لحظات، ضاحكني فأنساني بعض مواجعي، كان رجلا مهذبا ومسنودا علي إضافات في مجال الفكر مشهود بها ويتحلي بدماثة خلق وحس إنساني جعله يسألني إن كان من الممكن أن يلتقي بي أو يزورني لأخذ كل التقارير الطبية الجديدة والتحاليل ليعرضها بنفسه علي سيادة الوزير فشكرته بشدة

لاهتمامه بحالتي وتواعدت معه علي لقاء في مكان وموعد حدده بنفسه وأوفي بوعده لأنه جاء في نفس الموعد بالدقيقة والثانية كما يقولون، أخذ مني كل ما كنت قد جهزته وطمأنني بعمل المطلوب فورا دون أن يذكر شيئا عن الأستاذ جعفر عبد رب النبي، لكنه في نفس المساء حادثني وقال إنه التقي به مصادفة وعاتبه علي تكاسله في عرض حالتي علي الوزير المختص وكيف أنه اعتذر له ولي وأنه كان بالفعل ذاهباً لتأدية الواجب في التو واللحظة، قال لي إنه أسلمه كل ما كان قد أخذه مني ليعرضه ما دام قد أبدي له هذه النوايا الحسنة، طمأنني وأراحني فشكرته، لكن الأيام كانت تمر متثاقلة، أهاتف أستاذه فيؤكد لي علي لسانه أن قرار العلاج في الطريق فأطمئن، أطلب السيد جعفر لأشكره علي مساعيه فلا أتمكن من محادثته لنفس الأسباب السابقة في عمله أو منزله، يسألني أستاذه عن الأحوال فأشرح له كل المستجدات فيبدي تعاطفه واندهاشه، وذات مساء صارحني الرجل بأنه سأل تلميذه عن القرار فتأسف له لأن كل المستندات ضاعت في غفلة منه وهو في طريقه إلي مكتب الوزير، أشعر بغصة وأعجز عن مواصلة الكلام، لكن الأستاذ الكبير يواسيني ويعدني بأن يحل المشكلة بنفسه بعد أن خيب تلميذه كل عشمه ووضعه في مكان الرجل المضحوك عليه بعد كل هذا العمر، كيف أوفي الأستاذ بوعده خلال يومين واستصدر قرار العلاج؟ لا أدري، لكنه أسعفني وزرع في قلبي الموجوع أملا في إمكانية مواصلة الحياة.

اللهم فاشهد أنني لا أتجني عليه أو أسعي للتشنيع عليه بهدف أن يهتز من فوق مقعده بسبب قصيدة كتبتها بعد أن تجاوزت الأزمة، توهم صادقا

مع نفسه أنها تستهدفه مثلما حدث في السابق وحاول إسكاتي بحسب ما اعتاد مع كل من كشف أو استكشف ثم بعبع بأية وسيلة من وسائل البعبعة أو جعجع مثله بلا خطة مدروسة للجعجعة ليفسح لنفسه مكانا في لجنة من لجان مجلسه الموقر أو يحظي برحلة مجانية فيها بدل سفر بالعملات الصعبة التي نكابد من قلتها ونتشكي من تسريبها إلي خارج الحدود قروضا بمئات الملايين، من غير ضمانات حقيقية من بنوك وطنية بالتواطؤ مع رؤساء مجالس إدارات بنوك يتهمون بعد أن ينفذ السهم، أو يفر خطاف القرض بالرشوة بفعل تسهيلات مدفوعة الثمن تباعا.

مالي أنا بالبنوك ونواب القروض وأمثال تلك القضايا التي نطالعها في الصحف القومية بديلا عن صحف المعارضة لكثرتها وضيق ذات يدنا الذي لا يتيح لنا شراءها رغم النهم الذي أصبنا به منذ مطالع ستينيات القرن الفائت بهدف معرفة كل ما يمكن أن يتاح لنا ولو علي حساب متطلباتنا الأساسية، ربما هو نوع من العته أو عجز عن الفرار مما هو مقدر ومكتوب لنا بوضعنا في خانة الشعراء شاعرا جاهزا للنسيان، ينسي الأسماء الحميمة وينسي كل من أساء إليه أو سد طريقا في وجهه، ينسي الإساءة ويعاود التعامل مع من تعامل معه بصفته خصما ما دام قد بادره بالسلام أو التحية أو حتي الابتسام فينسي تواريخ الأحداث المرتعة التي تخصه ويتذكر تواريخ ناس الوطن ويتعامل بحسن نية خالصة مع من يسميهم أحفادا لأقدم حضارة في التاريخ البشري. ينسي مواجع السعي العسير للوصول إلي الستر بعد مشوار طال وامتد بينما تبدلت مصائر الكثرة ممن بدأوا معه المشوار أو جاءوا بعده، يفرغ في قصائده كل ما هو مخبوء من

خيبة أمل في العصر وبعض ناسه الذين نساهم أو تناساهم واكتفي بكونهم عناصر ملهمة لقلمه تسمح له بأن يواصل الكتابة رغم كل المساخر التي يتعرض لها شاعر مثله له مطامح قليلة ومتواضعة لا تتحقق أبدا لأسباب خفية، فهل كان يستبدل حياته بهذه القصائد؟ وهل عاد إلي الراوية العليم بكل شئ وهجر ضمير المتكلم دون وعي؟.

ربما حدث هذا في غفلة مني لأنني لا أكتب قصيدة ولا حتي قص قصيدة بل أكتب لكم حكاية وسط الزحام الممدود من بدايات العمر بمكابداته وحتي أيامنا التي تلفلفنا علي أعقابنا، وحكايتي مع المواطن جعفر عبد رب النبي الذي هو أساس لقصة شائكة وسوس لنا شيطان قليل الأدب بأن نحكيها للناس في البناية التي يترأسها، بإكمالها بعيدا عن تلك التداعيات الهامشية التي انكتبت بصيغة الراوية بديلا عن ضمير المتكلم الذي يضعني الآن وحيدا وجها لوجه معه ومع أنصاره، لا تحوطني حتي حماية من كشفوه قبلي وتباعدوا تأففا أو تعففا عن مغانمه التي لا يزال يسعي إليها البعض بالتودد إليه فيسكنهم مقاعد وثيرة أو يدسهم وسط جلسات مجلسه أو سفريات علماء وخبراء محترمين، منهم أقارب وبلديات وخصوم قدامي وزملاء مهنة يعرفون بداياته الأولي أكثر مما أعرف قطعا، ولأنني موجوع من ممارساته التي جعلتني منهوبا لا يحصل علي حقوقه المؤكدة فسوف أتسلح ببعض " سوء الظن أحيانا من بعض الفطن ".

أقول لنفسي ولكم أنه يحاول أن يمسك بين قبضتيه كل خيوط اللعبة في المكان الذي يشغله ويديره بحسب ما يري وقد فعل بعد أن تشكلت اللجان لتصبح الأغلبية فيها من أتباعه الذين يتميزون بالطاعة ويتطوعون بالتملق

لكل من يتصورون أن بأياديهم مفاتيح الطلوع وطالما هناك سفريات في وفود لها مردود، تمهد لزياراته لبلاد خارج حدودنا، المسألة أخطر من ذلك بكثير لأننا عرفناه قبل أن يتحسس مقعده الدوار ويجلس عليه معلنا أن أبوابه سوف تظل مفتوحة علي مصاريعها لخدمة الجميع دون تحفظات أو استثناءات أو أغراض.

أزاحهم الرجل الكبير والضرير عن سكته، وعدل طوق جلبابه بأطراف أنامل يده اليسري، مسح علي صدره في تأنق ثم لملم طرف عباءته ورماه علي كتفه اليمنى متلفحا بها، خطا بضع خطوات متثاقلة يسبقه شمروخه القديم الممدود في خط عمودي مع الأرض يتوازي مع عوده الذي بدا لهم أنه انفرد وأوشك أن يتساوي مع شمروخه في الطول، كان أولاد عوف قد تحيروا في أمر الرجل الكبير الذي حسبوه أكبر سنا وأضعف من أن يقوم ويمشي علي قدمين بعد سنوات من القعود والرقاد انتظارا لملاك الموت بحسب ما كان يقول هو نفسه في المرات القليلة التي كان ينطق فيها بضع كلمات، كان المحروس الثاني وهو الابن الكبير للرجل يعترض علي خروج الرجل من داره وحيدا، ويعترض أكثر علي ما قال به من أنه ذاهب إلي درب أولاد شلبي لإخراج سلمان المنسي من داره التي يرابط علي بابها العشرات منهم، كان المحروس يستنكر ما سمع به من أن سلمان قد استجار بأبيه:

- يستجير برجل ضرير رجله والقبر؟

لكن الرجل أقسم علي الخروج وحده من باب داره ومن مدخل الدرب أيضا، ودقات طرف شمروخه الغليظ تنزل علي الأرض فترجها رجا هينا لكنه محسوس ومسموع الوقع أيضا، وكان يبتعد والعيون ترقبه في دهشة

ورهبة منكرة أنه هو نفسه الرجل الذي انتظروا موته واستسلموا لعجزه ورقاده لزمن طال بحساباتهم، بدا لهم أنه مارد آت من عالم آخر يرتدي نفس ثيابه ويمثل دوره القديم الجسور أيام كان قادرا علي الفعل مهما كانت العقبات التي تصادفه.

دخل الجد عبد القادر درب أولاد شلبي علي غير توقع، تقدم وحده أمام الجمع المتساند علي الحيطان أو القاعد علي أطراف المصاطب مستعدا للقيام لحظة مروره، فارضا علي من عرفوه صمتا ودهشة، كانوا يرقبون في حذر من كل احتمال تائم في أن يكون اقتحامه للدرب بداية معركة لم يستعدوا لها بقدر كاف، أما أولئك الذين سمعوا عنه ولم يعيشوا زمنه القديم من جيل الشباب فكانوا يتابعون خطواته بقدر من الاستهانة تداريها لحظة الدهشة التي اصفرت بفعلها وجوه وانحبست بسببها أنفاس واتسعت أحداق.

- أنا في عرض خالي عبد القادر عوف.

وصلت إلي مسامع الرجل الكبير نبرات الصوت المبحوح الواهن. كان قد وصل إلي أرض الجرن القديم الذي ارتفعت علي أطرافه البنايات الجديدة لأولاد شلبي سكنا ودكاكين للبقالة والجزارة والأدوات المنزلية والمقهي المزحوم الذي يطل علي شبه الميدان الصغير المنصوب في أحد أركانه دوار عمدة الكفر الجديد من أولاد شلبي مبنيا بالطوب الأبيض، بحيث يتميز عن كل البنايات في الكفر كله. وقف الرجل ليتأكد من صوت سلمان المنسي، لعل البعض منهم كان يرتجف هلعا ويستعيد ما كان من أمره في سنوات العراك المتواصل التي أذاقهم فيها مرارات الفقد وآلام

الجراح قبل أن تنقلب موازين الأشياء لصالحهم بحساباتهم علي الأقل، تنحنح الجد عبد القادر واستدار ليدخل زقاق اولاد المنسي، حسب بذاكرته التي لم تفقد مقدرتها علي تقدير المسافات عدد الخطوات اللازمة للوقوف أمام باب سلمان المنسي المسكوك الذي انطلق صوته المستجير الواهن من كثرة الصراخ:

- أنا ف عرضك يا خال عبد القادر.

ظن البعض منهم أنه ربما رآه من خلال فتحة في جدار أو نافذة فواصل استجارته بينما يدق الجد عبد القادر بطرف شمروخه الأرض بعزم وقدرة فانغرس أو كاد أن ينغرس فيها محدثا صوتا وموشكا أن يهزهز الأرض من تحته، كان المنصور ابن شلبي وأولاده وأحفاده يحاصرون الدار من كل جانب، كانت بنادقهم وشماريخهم تستند علي الحيطان لتعلن لكل عابر استعدادهم للعراك، همهموا وزاموا، فز منصور شلبي من جلسته وواجه الجد عبد القادر عوف ثم قال بلين من يملك تقرير المصير:

- أنا حلفت إن خرج من داره يبقي آخر يوم ف عمره.

- وأنا قلت يطلع يا منصور.

- ما ترجع دارك يا عبد القادر.. العيال شرهم قريب.

- افتح بابك يا سلمان واخرج ، وانا واقف لك.

- يا عبد القادر عيب، لا هو من دمك ولا من لحمك، واحنا لنا عنده حق ولازم ناخده.

- اخرج يا سلمان.

قالها الجد عبد القادر بحسم لا يقبل المزيد من النقاش، سمع الواقفون

صوت ضبة الباب الكبير وهي تنشال إلي أعلي وأزيز محور الباب الذي ينفتح بعد خمسة أيام من الحصار، وأطل وجه سلمان مخطوفا ومرعوباً ومكذبا نفسه في ذات الوقت، ارتمي علي الأرض أمام الجد عبد القادر وجعل يستغيث:

– ارحمني يا خال، طلعني من دربهم.

– قم.

قالها وهو يمد يده الخالية ليساعد الرجل المرعوب علي الوقوف، كان أولاد عوف هناك في أرض الجرن القديم يدمدمون ويغمغمون ويتابعون بعيون متحفزة قلقة تماما وأسلحتهم فوق أكتافهم وعصيهم وشماريخهم في أياديهم ونحنحاتهم تزهو وتحذر وتتيه في ذات الوقت بكبيرهم الذي انتزع من الزمان العويل ظهيرة يوم من " برمهات " يحق لهم أن يباهوا به وأن يفاخروا مع كل أولاد الأصول في كل الناحية، هز المنصور بن شلبي رأسه يائسا من جدوي الدخول فى معركة كبيرة لا يضمن فيها نصرا مؤكدا، لعله خاف علي أولاده وأحفاده فأشار بيده لهم ولأتباعه أن يوسعوا للرجل الكبير ومن استجار به الطريق فوسعوا، وفي ثقة الفارس تحرك الجد عبد القادر متوجها إلي أرض الجرن القديم، واجه الرجل بوجهه الصلب بناية الدوار الجديد فانعكس في عينيه الضريرتين بريق شموخ قديم، كان يتسمع إلي أصوات أولاد عوف وجلبتهم وهم يوسعون له الطريق عبر درب أولاد شلبي، وكان سلمان المنسي يتبعه بنصف خطوة والرجال من أولاد عوف يتحركون بثقة وفي اعتزاز مسنود إلي هيبة الرجل الكبير التي تسبق خطواته وتفرض الصمت علي الخصوم القدامي الذين خسروا تلك المعركة التي

اقتحمهم فيها ضرير قادر علي إجارة المستجير.

●●●

وكان الرجل العجوز راكباً التاكسي ينظر لساعته علي فترات متقاربة، ربما نظرة كل خمس أو عشر ثوان بينما هو جالس عن يمين السائق الشاب ساكتا، لم يستجب لاستفسارات السائق أو يسايره في الكلام أو يرد عليه منذ البداية علي عكس غالبية الركاب فاعتبره حالة خاصة ترفض الحوار، مشغولا بنفسه أو بموعد يتعجل الوصول خلاله إلي هدفه المنشود. كف السائق إذن عن معاودة الكلام فساد الصمت حتى توقفا بشكل إجباري لأن طابورا ممدودا من العربات كان قد توقف أمامهم ومن ورائهم أيضا علي نحو مباغت لم يكن في حسبان أحد ، قال الناس للناس من خلال النوافذ إن هذا التكدس الرهيب وسط المدينة في ذلك النهار الساخن من يوليو حدث بسبب زيارة مسئول وافد من بلد مجاور لوطنهم المسالم المتسامح الذي يحسن استقبال ضيوفه بغض النظر عن كل ما قد يكون قد شاع عن أي واحد منهم من افتراءات غير مؤكدة حتى ولو كانت لها ظلال من الحقيقة، وأضاف الناس أنه شخص مكروه في وطنه حط بطائرته الخاصة في المطار وطلب حق اللجوء السياسي برغم علمه المسبق بأن البلد سوف يعتذر بسبب ظروف سياسية واقتصادية ودولية لا تشجع علي مثل هذا اللجوء بكل ما قد يترتب عليه من أعباء مالية واستهداف من خصومه الذين أطاحوا به علي العكس من كل التوقعات المحسوبة لأنهم ينتمون للجنس الزنجي الخامل بحسابات العالم المتقدم الذي يصفهم بأنهم عالم ثالث أو رابع، وقالوا إن الحراسة حوله جاءت متشددة خوفا علي حياته

في زيارة مفاجئة وغير مرغوب فيها يلزم أن تنتهي بسلام.

لكن التكدس بوسط المدينة كان يتزايد والناس داخل السيارات تتبادل حوارات ساخرة بخفة ظل علي كل ظالم أو باستخفاف عابث في البدايات لتهون علي نفسها الدقائق العابرة بكل العسر لتتناسى سخونة الجو والصهد اللافح، السعيد منهم هو من كانت سيارته مزودة بجهاز تكييف وقد أحكم إغلاق كل الفتحات واسترخي أو تمدد دون أن ينشغل بتبادل الثرثرة مع مثل هؤلاء الذين يتصببون عرقا وينظرون تجاهه وتجاه رفاقه أو عياله بحسد وكراهية، لكن هؤلاء أيضا كانوا يشعرون بالغيظ لأن الجميع يتبادلون الكلام غير المسموع ويتضاحكون وكأنهم يتفرجون علي عرض لشارلي شابلن أو أحد خلفائه في الخارج أو الداخل ممن يبرعون في إضحاك الناس من كل جنس ولون، ولولا التعالي لانفتحت نوافذهم بهدف المشاركة، لكن الوقت كان ممطوطا وحركة السيارات الساكنة في نفس أماكنها تبعث علي الضجر، حتى الشوارع الجانبية التي بدت للبعض في البداية مهربا كانت قد تكدست وانسكت ولم يكن هناك علي امتداد الشوف أية بادرة تبشر بحركة للأمام، كانت أصوات الكلاكسات قد تحولت إلي سيمفونية قاسية يتردد صداها في الآذان عبئا مضافا لكنه مطلوب علي نحو غامض لتأكيد الوجود الحي للبشر. البارع هو من كان قادرا علي إطلاق صوت مميز بغض النظر عن كونه ساخرا أو مزعجا أو حتى منفرا لكنه قادر علي الوصول إلي أكبر عدد من الآذان.

وكان المشاة أسعد حظا لأنهم كانوا يستطيعون الحركة بين السيارات أو علي الأرصفة المزحومة، يتخبطون لكنهم يتحركون ويعايرون بتحركاتهم

ملاك السيارات الخاصة وسائقي النقل ونصف النقل والتاكسيات وركابها في نفس الوقت، لكنهم كانوا بالقطع يكابدون ويزفرون ويجففون عرقهم في مناديل ورقية أو مناديل من القماش أو حتى في أكمام جلابيبهم وقمصانهم من أجل ضيف غير مرغوب في وجوده، حتى من المسئولين الكبار الذين كانوا في وضع لا يحسدون عليه لأنه وضعهم في مأزق دبلوماسي عندما هبط بطائرته الخاصة أرض المطار، مدعيا أنه هبوط اضطراري بهدف التزود بالوقود فسمحوا له بالهبوط بحسب ما ذكرت كافة أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية لمواطنيها بعد ذلك، لكنه طلب في استراحة المطار مقابلة سفير وطنه الكائن في وسط المدينة فلم يكن هناك مهرب من حراسته حتى مقر السفارة، لكن السفير رفض مقابلته لأن أخبار الحركة كانت قد وصلته مع تحذيرات متشددة أن يتجنب تقديم أي تسهيلات لرجل مخلوع من منصبة بالقوة الجبرية، بسبب كثرة المفاسد التي اقترفها علي امتداد نصف قرن من الزمان المحسوب كبس خلاله علي صدور ناسه ولم يتزحزح أبدا رغم اجتهادات السحرة والمشعوذين الشائعة هناك والمؤثرة بحساباتهم وأدعية ضحاياه المصاحبة للبخور المحروق للتخلص منه علي أي نحو دون جدوي.

لكن الناس كانت تسأل الناس عن أي ذنب ارتكبته مدينتهم الهادئة ليتحمل ناسها كل هذا التعطيل علي نحو غير مألوف ولا متوقع منهم، وكيف أنه منذ دخل المجال الجوي وتحرك في اتجاه سفارة وطنه في محاولة أخيرة للحصول علي مساعدة للحصول علي حق اللجوء السياسي ثم عودته في اتجاه المطار محروسا بالأمن بحسب نصيحة سفير وطنه الذي رفض حتى

مقابلته في مكتبه فتسبب مشوار رجوعه للمطار في هذا التكدس والتعويق والتعطيل في أول حادث من نوعه، ملعونا من ناس غير ناسه علي مدي ساعتين ممطوطتين زودت ضغط الدم عند شباب البلد والغيبوبة عند شيوخها وكهولها، والغل في قلوب الصبايا والأطفال، واليأس في قلوب الأمهات والجدات من عودة من خرجوا وغابوا أو كانوا علي موعد لاستقبالهم. لكنها كانت أزمة طارئة انفكت بعد طول انتظار، وأسوأ ما تخلف عنها حالة الشلل التي أصابت الرجل العجوز المتعجل الساخط بشهادة سائق التاكسي وكيف أنه ظل يزفر ويسب ويلعن علي نحو متواصل دون أن يبدو عليه أنه صدق أي شيء مما كان يسمعه عن أسباب كل هذا التكدس. كان الرجل العجوز مكفهر الملامح وعاجزاً عن التصرف، ولا بد أن ميعادا مهماً بكل الحسابات راح منه أو أن عبء الرجوع تبدي له هما ثقيلا بسبب أغبي مشوار فاشل من بين مئات المشاوير الفاشلة التي لا بد أنها صادفته في حياته الممدودة، لكن الهم الثقيل كان هم السائق وقد رآه منفعلا من داخل الداخل يبرطم بكلام غضبان سرعان ما تحول إلي سباب قبيح لكل ما كان يحدث قبل أن يصاب بالشلل المباغت لنصف وجهه الأيمن، جعله عاجزا عن التحكم في شفتيه أو لعابه بالإضافة لخرس منعه من إخراج أي ألفاظ واضحة أو مفهومة من بين شفتيه، والسائق يحاول مساعدته دون جدوى فراح يسب ويلعن المجهول الذي تسبب له في هذا المأزق غير المحسوب في وسط المدينة، والشلل المباغت الذي أصاب راكبه العجوز بمثل ما أصابه الخرس وربما يتحول إلي متهم بأنه تسبب في شلله أو خرسه في ذات الوقت. فهل كان من الممكن أن ينجو السائق من أية تهمة أو مخالفة لم

يحسب لها حسابا؟ أو هل كان من الممكن أن يستعيد العجوز المصاب بالشلل شيئا من وعيه أو نبرات صوته بعد رحيل الوافد غير المرغوب في وجوده، وقد أركبوه طائرته الخاصة وطارت بعيدا بعد أن أحاطوه بإحتياطات أمن غير مسبوقة أصابت المدينة بالشلل بعد إغلاق الكباري والشوارع التي عبرها في مشوار رحيله وعودته إلي حيث لا يعرفون؟

●●●

سبحان الذى أعطى لعبده وابن عبده الغلبان رزقاً وفتح له الأبواب المسكوكة، سبحانه واهب المواهب وأنصاف المواهب وأرباعها "وفرافيتها " لخاصة الخاصة وبعض الخاصة وأشباه الخاصة من بني الإنسان دون أن يميز بين الأجناس والألوان والعقائد، وله في ذلك حكمة تعلو عن الإدراك، وأنتم في نهاية المطاف مجرد حلقة في سلسال الخلق منذ آدم عليه السلام، ذلك الذي طرده الرب من جَنتـه لأنه طاوع حواء، تلك التي طاوعت الحية فحق عليها وعليه وعلينا القول، وما زلنا بسبب عصيانهما نسعي في أركان تلك الأرض القاسية نادمين، وفي الأرض جنة الإنسان وفيها الجحيم، باختياره وحده يكون لولا جحيم الآخرين، بذلك تكلم الرجل من بلاد الفرنجة وأوصانا فأخذنا منه الحكمة عسلا صافيا وتركنا له سم الأفعى في قاع نفس الإناء، وتأكدت الدنيا من براعتنا، وبفضله سوف نرقي.

من أحشاء الكفر طلع، لكنه تخطي زمن الخشونة وتنعم، أصبح يصحو باختياره، فرق كبير يا سادة بين الصحو الجبري والصحو بالاختيار، صاحبنا عفت الطنبور يصحو علي مهل، يفيق علي مهل، يتمتع مرتاحا بعد شبع الرقاد، اللهم لا حسد، وعلام يكون الحسد؟ وابن الطنبور بالفعل طلع،

لكنه بقدر ما طار وارتفع وبقدر ما علا واندفع بقدر ما هوي وكابد الوجع، وما بين الطلوع والوقوع حكايات وروايات، مساخر ومهازل وتصاريف أقدار، اللهم لا شماتة، إنه حتى لا يستحق أن نقول عنه كما يقولون "عزيز قوم ذل" واسمحوا لي وأنا رفيق عمره الأمين علي سره أن أحدثكم عنه، بالحق وحده سوف أتكلم، وبالحق وحده سوف أترك لكم الحكم له أو عليه، وهل هو الآن طالع مثل الشهاب أو أنه نازل، حيرني أمره يا سادة، ولولا حيرتي ما بحت بعشر معشار تلك الحكايات.

كنا في الزمن الفائت نتلازم في مشوار المدرسة مشيا في كفرنا إلى البندر ذهابا وعودة، نتقاسم في الفسحة لقيمات "البتاو" وأرغفة "السلاو" نغمسها بالجبن القريش في الأيام التي تحلب فيها نسوة الكفر لبن البقر والجاموس، لكننا في أيام الجفاف كنا نسف بقايا الخبز المخزون ونلوك أصداغ اللفت أو نمضغ أعواد "السريس"، كان يشاركني نفس الدكة ويحصل علي المجانية الكاملة مثلي بفعل شهادات الفقر التي نقدمها للإدارة التعليمية أيام وزارة طه حسين وبعدها طبعا، وليس في ذلك أية رغبة في النيل منه أو محاولة لوضع اسمي بجانب اسمه دون مناسبة، ربما يكون ابن الطنبور أكثر مني مالا أو شهرة، لكنه لم يكن ولن يكون أبدا أكثر علما، وفي دنياه التي اختارها يعلو المرء مثل الشهاب وسرعان ما يخبو أو حتى ينطفئ علي العكس مني، فأنا أخطو بحذر، ببطء ولكن بهدف، ما علينا، يلزم أولا أن أنفي من عقولكم تلك الأكاذيب والتشنيعات التي راجت عن ابن الطنبور وسرت بينكم مسرى الحقائق، سوف أعود إلى الأصول المؤكدة في موضوع ابن الطنبور.

حط رجل غريب عند مدخل الكفر، أنزل خرجا كان يحمله علي ظهره وأسنده إلى جذع شجرة جميز عتيقة، غفا بفعل النسيم العليل أو من أثر التعب، وعندما صحا نظر أمامه فوجد جرفا مجاورا لبناية الكوبري علي جانب الترعة، وفكر في السكن، ولم يطل به الوقت حتى أنشأ لنفسه خصا ورقد، قالوا في الكفر سائل غريب أتعبه الطواف سعيا في لب الصدقات، وقالوا إنه طيع مثل كلب أرمنت وقوي مثل بغل استرالي ورعديد مثل أرنب بري، وقالوا إن بنت بحر استخدمته في نقل حمل حطب قطن إلى سطح دارها في عز ظهيرة ذلك اليوم من "بؤونة الحجر " وأنها استخدمته في شئ آخر فأظهر قدرة وبراعة ونال رغيفا وفحل بصل وطاجن لبن منزوع القشدة. وقالوا إن نسوة الأعراب من الغجر شغلنه في كل شئ وبأي شئ حتى اكتشفه الرجال واستخدموه في مساعدة المواشي في تدوير الساقية أو نشل المياه الضحلة بالشادوف، لكنه أظهر براعة أكثر في تدوير "الطنبور "، قالوا إنه فرح بالتسمية الجديدة وأنه كان يعرض نفسه علي كل فلاح يفكر في سقاية أرضه ويدور الطنبور، وأنه استجاب لبنت بحر وشارك الغجرية خصها وأنها اتخذته بشرع الله بعلا، ومهما قيل عن علاقته ببنت بحر الفاجرة بحساب المتشددين من ناس الكفر فلابد أن ننظر إلى الولد الذي ولدته تلك الغجرية وماتت في نفس الليلة علي أنه ابن الغجرية ولا علاقة لبنت بحر به أكثر من كونها أرضعته لا ندري كيف ورعته وأسكنته دارها وأسمته مصطفي علي اسم الشقي مصطفي بحر الذي مات في "قره ميدان " وأورثها كراهية الناس وسوء السمعة.

هذا ما كان من أمر فرج الطنبور الذي رحل عن دنيانا وأورث ابنه

مصطفى مهنته وخصه وعطف بنت بحر، تلك التي ساعدته ليقيم مكان " الخص" القديم دارا، وزوجته من " الغالية " بنت الغجر الرحل، تلك التي خلفت بحسب كل الروايات عشر بطون أكثرهم صبياناً مما دفع الغالية عندما ولدت صاحبنا أن تشيع أنه بنت واسمها عفت، وصدق أهل الكفر ذلك وقد ثقبت له كلتا أذنيه وأدخلت في كل ثقب خيطا عقدته مخافة الضياع، ويوم سعي مصطفي الطنبور بين المدرسة والبندر ومكتب الصحة ودوار العمدة اندهش الناس، لكن دهشتهم زادت عندما استخرج أوراقا لعفت الطنبور تثبت أنه ولد يطالب بدخوله المدرسة، وهكذا تتساوى رأس الطنبور بأعيان الكفر ومساتير الناس وأصحاب الحيازات، ذلك الطنبور الذي لا يحسن غير لف الطنبور وخلفة العيال وإطلاقهم في غيطان الخلق مثل الديدان، تلقاهم في كل الشقوق والأركان يفتشون عن أي شئ قابل للابتلاع، لكن عفت أفلت من هذا المصير المحتوم وانكتب له السعد من غير مناسبة، لكن ناس الكفر لا تنسي، لعلها تتناسي زمنا قبل أن تتذكر ما جري مرة أخري مثلما حدث مع ابن الطنبور، ذلك الذي كانوا يتخذونه مثلا يعايرون به الأبناء ويوبخون الكسالى بكلام يسم البدن علي امتداد السنوات الدراسية.

- ابن عديم الأصل العريان أشطر منك.
- الحافي ابن الحافي ناجح وأنت خائب.
- ابن الطنبور أخذ المجانية وجائزة من الناظر.
- ابن الطنبور مؤدب.
- ابن الطنبور شاطر، يرسم الناس الخالق الناطق.

وكثير كثير من مثل هذا الكلام قالوه وسمعناه، كنا علي امتداد سنوات الدراسة نشعر نحوه بالعداء أو الغيرة ، نحاول أن نتفوق عليه في شئ ولا نستطيع، الولد كان نابغة، كل يوم يتقدم خطوة إلى الأمام، يحفظ الدرس بمجرد سماعه في الحصة، يرسم الخرائط كما أنزلت، يرسم الدورة الدموية والهيكل العظمي وتجارب العلوم ببراعة، يكتب الخط الديواني والنسخ والفارسي والكوفي والرقعة، كان معجزة جاهدنا أن نلحق به فلم نقدر، تآمرنا عليه وعاركناه فلم نفلح في النيل منه، كان الولد مثل الثعبان الشراقي الأزرق، يفلت من الحصار ويلبد في حضن أولاد الكفور المجاورة فيجبرنا علي مصالحته. وكنا دون أن ندري نفتح له أبواب دورنا، يتعشى مقابل شرح مسألة أو رسم خريطة أو توضيح تجربة.

لا أبالغ إن قلت لكم أنني كنت أقرب الأولاد لابن الطنبور، حتى عندما دخل بسبب براعته في الرسم كلية الفنون ودخلت الحقوق، ساكنته لعام كامل استغل خلاله في أعمال كثيرة، كتابة اللافتات بالزيت والخشب والنيون، رسم صور للطلبة والجيران وأصحاب الدكاكين، عمل تماثيل من الجبس ودهنها وبيعها، تحبير الخرائط لطلبة الهندسة، وأشياء أخري لا أذكرها كانت تدر عليه المال الذي يساعده علي الحياة ومواصلة سنوات الدراسة، لا أكتمكم القول وأعترف أنه عيشني علي حسابه في الكثير من الأوقات.

حصلت لي ظروف وعدت إلى الكفر، بقي هو هناك في المدينة الكبيرة لكن الخيط ظل موصولا بيني وبينه، كلما جاء إلى الكفر نلتقي، وكلما التقينا استعدنا كل ما كان بيننا، هو الوحيد الذي كنت أستعيد – عندما أكون معه

– طفولتي وصباي وصدر شبابي، شئ واحد هو الذي ضايقني في الكفر، كلام الناس عن ابن الطنبور وكيف قبلت علي نفسي مشاركته في السكن ناسيا أصله وفصله، كانوا يتحدثون عن صاحبي وأقول لهم تلك الحكمة القديمة " أصلك فعلك " لكنهم كانوا يسخرون مني، حتى جاء الوقت الذي تبدلت فيه أفكارهم عنه إلى المعكوس، الناس تتغير يا سادة، أو فلنقل أن ابن الطنبور غير نفسه خلال تلك السنوات التي عاشها في تلك المدينة، تداخل مع الأكابر، ومعرفة الأكابر كنوز وسوف أوضح لكم ذلك.

كان لواحد من أهالي الكفر مشكلة قديمة مع الشهر العقاري ذكرها عرضا في وجود ابن الطنبور، هز رأسه وطلب من الرجل أوراقه التي تحتاج إلى توثيق، وعندما ذكر لنا تفاصيل المصاعب التي قابلها والتي لم يفلح حضرة جناب العمدة نفسه في تذليلها، هون ابن الطنبور عليه الأمر ووعده بالحل في صباح اليوم التالي، أقول لكم الحق، ناس الكفر أصابها الخرس قبل أن يصدقوا أن ابن الطنبور حل المشكلة وهو جالس في مكتب المدير يشرب القهوة وصاحب الموضوع الصعب يشرب الشاي، ولم تكن تلك الحكاية غير بداية لعشرات الموضوعات التي أنجزها ابن الطنبور، ما من مشكلة في البندر أو المحافظة إلا وأفلح في حلها بنفسه أو بموجب " كارت " يحمل اسمه وبضع كلمات للمسئول يوصيه ، وصل الأمر إلى أن بعض أكابر الكفر كانوا يأتون ليسألوني عن موعد مجيئه إلى الكفر إذا بدا لهم أنه تأخر أو غاب، كان في كل المصالح لابن الطنبور معرفة قادرة علي تطويل رقبته أمام الناس، وأصبح من المألوف أن نسمع الكلام الجديد عنه، أصله طيب ومنبته حلال، غيره ما كان يشغل نفسه بأمثالنا، وفي سوق

البندر كان ناس كفرنا يتباهون علي أهالي الكفور المجاورة لأن ابن الطنبور مولود في زمام بلدنا.

كنت أقلب صفحات الجريدة اليومية عندما استوقفتني صورة مرسومة لأحد الأكابر الكبار، كانت صورة الكبير مألوفة ولكن غير المألوف هو ذلك التوقيع علي صدر سترته " الطنبور "، ومع معرفتي لإمكانيات صاحبي في رسم الصور لم أتيقن إن كان هو من رسم صورة الكبير أو أنه غيره، وإذا كان قد وصل بمعارفه إلى هذه الدرجة فلا بد أن الولد أخطر من كل حساباتي عنه، ولقد تأكد لي ولهم ذلك بالفعل، كانت عشرات من صور الأكابر ترسم وتنشر في صفحات الصحف والمجلات وتحتها توقيع ابن الطنبور، ريشة ابن الطنبور إضافة إلى عشرات الرسوم الكاريكاتورية التي رأيناها لابن الطنبور وفطسنا علي أرواحنا من كثرة الضحك وخفة الدم الذي يتميز به ناس كفرنا عن كافة كفور وقري الناحية، وسمعناه يتكلم مرارا في جهاز الاستقبال، ثم رأينا طلعته علي شاشة التلفاز الملون وهو يشرح رسومه بنفس لهجة ناس كفرنا المميزة بتعطيش الجيم ومط نهايات الكلمات. أقول لكم الحق، فرحنا به بقدر ما خفنا عليه ومنه، ومن جديد ناقشنا أصله وفصله، وعندما نزل الكفر قوبل بترحاب من الكبير قبل الصغير، وهمس مصطفي في أذنه يدعوه للعشاء في دوار حضرة العمدة.

قال العمدة وكان في انتظار ابن الطنبور للرجال في دواره:

– البيه عفت رفع رأسنا يا أهالي الكفر، فكروا في عروس تليق به، بدلا من بنات البنادر.

تبادل الرجال النظرات، ربما لأنهم فهموا أن العمدة يعرض ابنته

الوحيدة بشكل غير مباشر، يريد منهم أن يفاتحوا ابن الطنبور من بعيد ويستكشفوا نواياه، والبنت كانت للحق مال و... وأصل.

عقب الحاج لطفي كبير أعيان الكفر:

- بالحق يا عمدة، دخوله أي دار يشرفها.

وأومأ الرجال كأنما يعلنون موافقتهم مدركين أن كبير الأعيان هو الآخر جاهز لعرض واحدة من بناته علي ابن الطنبور قبل أن يتقدم، خلافا لما كان يشيعه عنه في السابق من أنه "واطي وابن واطي "، ومهما علا قدره فهو خسيس، يعيش عمره خسيسا ويموت خسيسا، علي هذا النحو كان يتكلم عنه في السابق، لكنه في الجلسة التي جمعته مع العمدة وكبير الأعيان خيب ابن الطنبور كل رجاء وقالها للكل بغلظة ودون مواربة:

- كلام فارغ، أي زواج؟ ومثلي إذا فكر في الزواج، هل يتزوج من مثل هذا الكفر؟، هل أنتم في غفلة؟

بهت الجميع وأولهم كان العمدة وكبير الأعيان وبقية الأكابر، وشاعت في الكفر الحكاية وتكاثرت الأقاويل ووصل الظن بالبعض إلى تفسيرات:

- ربما كان يقصد بنت الشيخ لطفي.

- ولماذا لا يكون علي اتفاق مع واحدة من بنات الأكابر الكبار هناك.

- كل شئ مع ابن الطنبور جائز.

- يا ناس، اتركوا الملك للمالك، هل أنتم أولياء أمره؟

- مصطفي الطنبور نفسه لم يجرؤ علي مفاتحته.

- لكنه أوشك علي إكمال الأربعين من عمره.

وكلام كثير مثل هذا قلناه، لكن المرارة ظلت في الحلوق تتخفى وتحاذر

من الانطلاق، والناس في كفرنا تخاف ممن لهم علاقة مع كبار الأكابر الذين تطلع تصاويرهم ورسومهم علي صفحات الصحف والمجلات ويظهرون علي شاشة التلفاز، ومن يدري، ابن الطنبور رسام الأكابر، يلتقي بهم ويتحدث إليهم، وقد بانت أمارات عديدة لسلطانه علي الرؤساء في البندر والمحافظة، فمن من أهل الكفر مجنون ليرمي نفسه في النار مقابل كلام فارغ في حق ابن الطنبور؟ والكل عارف أن مثل هذا الكلام يشيع ويسري في دروب الكفر أسرع من سريان النار في الحطب الجاف والمرصوص علي سطوح الدور في مواسم الرياح.

في البندر ابتني الباشا الكبير من قبل أن يولد آباؤنا قصرا، فتحنا عيوننا فوجدناه هكذا، عالي البناية والأسوار وله بوابات حديد "وبواكي" وشرفات عالية تطل علي الأربع جهات، ونادرا ما كنا نلمح أحفاد الباشا الذين ورثوا قصره، لكنه كان يحدث في أمسيات الخميس مرور أي واحد منا من أمام القصر فيراه وقد أضاءته أنوار النجف اللماع واللمبات والكشافات، ومن العمق نسمع أصوات آلات الموسيقي التي لا نعرفها وهي تعزف عزفا يبعث في النفس الارتياح والسكينة، كنا في بعض الأحيان نتوقف أو نتباطأ في خطواتنا ونتهامس عن أولاد العز القديم من أصحاب الرتب والمعالي والأملاك، وكان الآباء يرددون نفس الحكايات عن الباشا القديم الذي كان وزيرا في وزارة سعد زغلول " دخل علي السلطان فؤاد فوجد الملك جورج الخامس علي صدر المائدة فقال الباشا الكبير لملك الإنجليز بلسان الإنجليز:

– اسحب جيشك يا ملك الإنجليز من أرض بلادي.

ولم يكمل الباشا عبارته لأن السلطان فؤاد أمره بالسكوت. خرج الباشا من القصر الملكي غاضبا وقدم لسعد زغلول استقالته فغضب سعد وذهب إلى القصر وقدم استقالته، ويومها هاجت البلاد وانقطعت السكك وأضرب العمال والطلبة وأهالي البلاد من كل المهن، وهتفوا ضد الملك جورج والسلطان فؤاد " وحكايات كثيرة قالها لنا الآباء منها ما هو حقيقي ومنها ما هو من نسج الخيال، لكنه كان يبعث في نفوسنا الجسارة ويشعل الحماس.

يقول من عاشوا زمن الباشا الكبير إن الرجل كان شهما وكريما وأنه أعطي من ماله لشباب الناحية وأنه ساهم في بناء الجامعة وعاش بعيدا عن الأضواء، لكنه أوحي للنحاس بإلغاء المعاهدة، وقالوا إنه مات بعدها بأيام، وأن الطباخ العجوز أكد أن الإنجليز احتالوا ووضعوا له السم في مقبض العصا التي كان يتوكأ عليها، كما أنهم عرفوا من جواسيسهم من أولاد العرب أن الرجل كان وراء تلك الهجمات التي كان أولاد البلد يقومون بها علي معسكراتهم، وأن الرجل كان يعطي للشباب السلاح والمال لقتال الإنجليز، وأكد الطباخ العجوز أيضا أن الباشا الكبير أوصي أولاده قبل أن يموت بمواصلة ما كان يقوم به من تمويل الشباب الذي يحارب الإنجليز وأن ثلاثة من أبنائه قتلوا تباعا بالفعل في مدن القناة وهم يحملون " السلاح ".

هذا ما كان من أمر القصر القديم وسيرة بعض أصحابه، أما ما كان من أمر ابن الطنبور فقد كان يختلف، وفي كل الحالات لا علاقة بين الباشا وابن الطنبور إلا في شئ واحد وهو الرغبة في سكني القصور، ذلك أن ابن الطنبور بني بناية لها العجب بعد أن اشتري أرض الخواجة اليوناني

المزروعة بالموالح وكافة الفواكه، قالوا إنه اشتراها بتراب الفلوس، وأن وراء ذلك علاقة بين ابن الطنبور وأحد أكابر الناحية البعيدة، ذلك الذي كانت له معارف بناس من موظفي الحكومة، كبير الناحية البعيدة عرف سر الأرض الواقعة في الدين وسر الخواجة اليوناني المطلوب تسفيره من البلد، وقالوا إنه كان في الأمر تلفيقة الهدف منها هو التخلص من اليوناني وتمليك ابن الطنبور ، بل إنهم قالوا إن كبير الناحية البعيدة سهل له الحصول علي قرض بثمن الأرض من بنك "الكريدي ليونيه "، مائة فدان شرخة واحدة يا ناس امتلكها ابن الطنبور دون أن يدفع من جيبه شيئا يذكر، فسبحانه موزع الأرزاق ومن جعل لكل شئ سببا، لا شريك له في الملك وهو الوهاب.

كانت حديقة اليوناني مزروعة بالموالح ومحاطة بأشجار الكازورين والأسلاك الشائكة التي تمنع اللصوص، والخفراء حملة البنادق ذوي القلوب الجسورة، وكل هذا صار من أملاك ابن الطنبور، لكنه نظر إلى بعيد، صمم رسما رائعا واستدعي مقاولا كبيرا ليفتح وسط الحديقة طريقا ويبني في منتصفها بناية عجيبة علي مساحة تقترب من الفدان ولها شكل عجيب، فيها ارتفاعات وانخفاضات ومساحات خالية وأخري مزحومة، شئ يفهمه من يعرفون الهندسة والمعمار ويقدرونه بما يليق به، أما نحن أهل الكفر فقد كنا نحسبها كما اعتدنا بالقاعة والمندرة والمقعد، المهم أنه عمل شيئا جديدا غطي علي قصر الباشا، تراه وأنت عابر علي السكة الزراعية من خلال الطريق المرصوف في قلب الأرض، بناية عالية ومنخفضة ومدهونة بألوان خلابة ومباشرة، قال من حضروا حفر الأساسات أن فيها ثمانين مندرة وقاعة وباحة ومن تحتها حجرات مسروقة من بطن الأرض وفوقها ما يزيد

على المائة حيز مسكوك بأبواب ومن فوق المقاعد أبراج علي أشكال القباب والمآذن. بنايات في وسع يا سادة، والأرضيات بالرخام الأبيض وخشب الأرو ومن فوقه السجاد العجمي والمفروشات من أعرق وأحدث الموديلات وكل ناحية لها نظام مختلف عن الناحية المقابلة. دنيا تنورها السقوف بالنجف والكشافات ولمبات النيون المدفوسة وسط الحيطان والسقوف، وكل الأركان مشغولة بقدرة، تماثيل وتحف وأزرار تدوس عليها فتنفتح لك الحيطان أو أن تهبط عليك من السقوف سلالم، وفي كل المطابخ والحمامات ثلاجات وغسالات وسخانات غاز وكهرباء وشمس وأفران من كل صنف ونوع. شئ كأنه السحر يا سادة، ولابد أن مصطفي الطنبور كان يخاف دخول تلك البناية التي يحمل مفاتيح كل أبوابها، اكتفي الرجل بذلك المربع القديم الذي كان يخص أحد خفراء الخواجه اليوناني الراحل في ظروف يعلمها الله، بوصة بلدي في بوصة بلدي لا تزيد وليس فيها بيت أدب ولا فرش، مجرد حصير متآكل الأطراف وبطانية متهالكة وكالحة من مخلفات الجيش، وليس له من جليس أو ونيس معه غير تلك المرأة التي هدتها الخلفة والحرمان فكف بصرها وثقل سمعها ولسانها فصارت تتحرك باللمس أو تزحف بالغريزة وحدها في اتجاه اللقمة ، وربما يكون بقاؤها علي قيد الحياة لحكمة من القوي القهار، فقد دفنت وهي في وعيها سبعة رجال من أولادها، ودفن مصطفي الطنبور في حضورها واحدة من البنات حية في الخص القديم ، وتاه ولد وبنت منذ سنوات طالت إلى حد النسيان أو حتى التفكير في طلب الرحمة لهما إذا انفتحت السيرة في وجود مصطفي الطنبور الذي لم يتبدل من طباعه شئ ولم يغير لبدته القديمة أو مداسه

الغليظ، بل إنه لم يفكر في تفصيل مقطع قماش من تلك التي كان يأتي بها ابنه من أفخر أنواع الصوف الإنجليزي، حتى العباءات من كل لون وشكل كان يخجل من وضعها علي كتفيه ويكتفي برصها في دولاب الحائط وبين طياتها حبات "النفتالين" تنفيذا لوصايا الواعين من أصحاب الملابس الصوفية والأعيان، وعندما كان ابنه يأتي بسيارته الزرقاء كان يجري خلفها بكل عزمه، ثم يفتح له الباب وهو ينهج مفتوح الفم ولا يتحكم أحيانا في لعابه إذا سال.

في المضحكة كنا نلتقي بليل، هي ركن براح فيها الأكل والشرب والتدخين وكل ما يريده أو يحتاجه أي واحد، لوازم السهر في كفرنا السعيد بقدوم ابن الطنبور، وكل أصحاب الزمن الفائت يأتون بلا دعوة، عندهم دعوة مفتوحة ودون استئذان، حتى لو سحب الواحد منهم عشرة ضيوف، فبمجرد أن يعرف الواحد منهم أن عفت بك وصل يتطوع بإبلاغ الآخرين، وفي المضحكة تبدأ السهرات، نكات جديدة يلقيها ابن الغباشي ببراعة الساحر فيأسرنا ويتوه أدمغتنا مع الشرب والدخان، خيالات ومبالغات وقفشات متتابعة ، نكتشف أن ابن الطنبور يرسم منها ما يخدش الحياء أو يخرج كثيرا عن العرف والأخلاق الحميدة، ينشره في تلك المجلات والصحف السيارة التي يأتي بها وهو راجع لنراها، نري أنفسنا، ويقول هو دون مواربة ونحن نقلب الصفحات:

– كل هذا من طرح المضحكة، لولاها ما رسمنا.

لكن الأمر لم يكن كذلك، الولد باح لي مرة بأن المضحكة التي يملكها هي مجرد نموذج مصغر لعشرات مثلها يملكها أكابر البلاد البعيدة، وأنه في

حقيقة الأمر يأخذ النكات والقفشات من المضحكة ويلقيها علي مسامع هؤلاء الكبراء بديلا عن ابن الغباشي وبسببها دخل الهيئة من أوسع الأبواب .

حدثني عنها وهو في حالة سكر بين:

" للأكابر حيل وألاعيب، البنت كبرت وفاتها قطار الزواج، والكبير دعاني لأن أرسم له صورة، رسمتها وأعجبته، لكنها أعجبت البنت أكثر، وفهمت الرسالة، كان علي أن أرسمها بحذر، فلاح حويط شاف المرار وجاءته الفرصة، أخفيت تجاعيد الوجه ونورت العينين المطفأتين، زودت الأحمر فوق الخدين ونثرت علي الوجه نضارة، حامت حولي وتجاهلت الصورة، وعشق العوانس غواية فيها حساب الربح والخسارة، قلها لي فأنت وحدك الذي يستطيع، نهاز فرص ابن نهاز فرص أسلم قياده لنهازة بنت نهاز فرص من كبار الأكابر، والحياة يا صاحبي بمنطق كل النهازين فرصة، إن لم تنتهزها انتهزها من هم أقل منك موهبة، راقب الأمر جيدا، أغلبيتهم أنصاف، صدقني، أنت لا تفهم أي شيء في الرسم أو أصحاب المواهب الحقيقية، خذها مني حكمة، تتسلط في زماننا الأضواء علي الأنصاف أكثر، ها هو فنان حقيقي وبشهادة الخصوم يأتي وتتاح له فرصة العمر فهل كنت أتركها؟ سبع سنوات من زواج عقيم امتلكت خلالها كل شئ، كل البريق الذي كنت أحلم ببعضه، والبناية المدهشة والأرض، ثم استجداء الأنصاف نكتة أو قفشة، أحفظها قبل أن أرسمها سد خانة، هل انطفأت أنا مثلما انطفأت عيناها في الزمن القديم ؟ قلها لي، أنت الذي يعرفني أكثر من الكل، هل أخطأت خطأ فادحا لا علاج له عندما أسلمتها قيادي والعصمة

في يدها وقد صرت لها علي هذا النحو ظلا؟ كنت أسأل نفسي، أن تكون مجرد ظل يتردد اسمه بواسطتها وأعوان أهلها أو أن أنطفيء مثل كل من يملك قدرا من الموهبة بلا سند؟ كان اختيارا صعبا، البقاء أو العدم، وللأكابر حيل وألاعيب وأنا مجرد ولد طالع من كفر مرمي علي شمال السماء واسمه الطنبور، فهل أنا بالفعل اسم علي مسمي؟ وهل تري وجه الشبه بيني وبين الطنبور؟ وإن كنت لا تراه فأين مخرجي بعدما انغرست وغطست في وحل التبعية لبنت الأكابر "؟

●●●

عرفتها أول ما دخلت بسيارتها الطريق المؤدية للبناية، وكأنما كان مصطفي الطنبور في انتظارها، جري مثلما يجري كلب مطيع ووقف يلهث، يقلب المفاتيح فلا تسعفه العتمة، كنا في المضحكة نضحك، تبادلت مع ابن الطنبور نظرة العارف لهوية القادمة، كانت نحيلة وعجفاء أكثر مما كنت أظن، ترتدي أشياء فضفاضة يصعب أن أسميها بالأسماء المألوفة، نظرت في اتجاهنا بالتفاتة استهانة، وعندما فتح لها مصطفي الطنبور البوابة لم تدخل، تحركت في اتجاه باب آخر، ومصطفي الطنبور يتبعها، يبربش بعينيه ويتحسس المفاتيح، ثم يتقرب منها وهي تتباعد، يزداد رغبة في الاقتراب وتزداد رغبة في التباعد، متعالية وجافة كأنها لم تكن من لحم ودم، وفي واحدة من تلك الالتفاتات العفوية بدا لها أنه تلامس معها بشكل عمدي فشاطت غلا وغيظا وقد سقط عليهما شعاع الكشاف الكبير. زغدت الرجل في صدره وهي تصرخ:

- ابعد يا بهيم.. ابعد بعيد.

كان من الممكن أن يتدخل صاحبي ساعتها، يبين لها أن مصطفي الطنبور ليس بوابا أو خادما أو حارسا وإنما هو أب له، قلت لنفسي إنه ما دام لم يتدخل فلا بد أنه يعرف أنها تعرف هوية الرجل، ذلك الذي كان ينظر ناحيته مستجيرا وطالبا للحماية فلما لم يجدها زام محتجا وبرطم:

– إيه يا ست هانم؟

لم تتمهل أو تستوضح، كأنها بربخ وانفتح، سبت الرجل وناسه وبلده، بصقت في اتجاهه عدة مرات فانكمش علي روحه أولا وتراجع قبل أن يخطو في اتجاهها عدة خطوات ويحاول أن يضع راحتيه علي رأسها:

– رأسك أبوسها يا ست هانم، أنا غلطان لك والغلط مردود.

وفي غمرة الغضب العارم ورغبة الطنبور في نيل السماح بتقبيل الرأس ورفضها المتباعد قرفا وتأففا، سقطت عن رأسها باروكة الشعر، ورأيناها مثل محمود الأقرع، قراعها يلمع في الضوء، ضحكنا ووقف صاحبنا مكانه، كأنه كان مدقوقا بمسامير علي الأرض، والمرأة تخلع مداسها بيد وبالأخرى تسقط لبدة مصطفي الطنبور عن رأسه، وبكل عزمها ورغبتها في التأديب بالضرب تحاول النيل منها، صحيح أن المداس لم يطل رأس الرجل غير عدة مرات، لكنها طالته، وصحيح أن أكثر الضربات نزلت علي ساعديه وكتفيه وصدغيه وقفاه، لكنها بكل الحسابات طالت الرأس علي مرأى ومشهد من كل رواد المضحكة مضافا إليها أطنان الشتائم القبيحة وغير القبيحة التي أطلقتها، وعلي غفلة منها ينقض ابن الطنبور ويحتضنها من الخلف، يرفعها عن الأرض ويطلب من مصطفي الطنبور أن يناوله الباروكة التي كان في ذلك الوقت يحتفظ بها بين يديه، كأنه كان خائفاً إن هو أسقطها فسوف

تفسد أو تتلوث بالتراب، كانت هي ترفس الهواء في اتجاه مصطفي الطنبور حتى استطاع صاحبنا أن يحصل علي الباروكة من يد أبيه بحركة بهلوانية بارعة، ولا ندري كيف أفلح في تهدئتها أو كيف قبلت هي أن تهدأ لفترة تكفي لإعادة الباروكة مكانها علي الرأس الأقرع، ولا ندري إن كان هو قد تركها باختياره أو غصبا عنه لتستأسد من جديد علي الرجل الذي سقط من إثر الضربات والرفسات والزغدات التي طالته. سقط في استسلام وفي عينيه رجاء قتيل يطلب العفو بعد فوات الأوان، ورغم سقطته لم تكف هي عن السب واللعن والبصق، حتى عندما بدا لنا أن صاحبنا أفلح في التأثير عليها وتهدئتها وإدخالها في أقرب الأبواب المفتوحة لم تبطل سيل الشتائم، تباعد الصوت لكنه ظل هناك، وعندما ساعدنا مصطفي الطنبور علي الوقوف ووجهناه ناحية سكنه زحف بقدميه مثل دودة قطن جريحة، ثم رأينا صاحبنا وقد عاد مخطوف الوجه يلهث وعيناه لا تستقران علي مكان، ويبدو أنه عندما اطمأن إلى ابتعاد الرجل عن المكان هدأ قليلا، تحير كيف يبدأ الكلام قليلا ثم قال وهو ينظر في اتجاه والده ويشير نحوه بسبابة يده اليمني متهما:

– رجل غشيم، شكله يقرف، وكلامه يقرف، وثيابه تقرف ولبدته تقرف.

شعرنا بالقرف، بل إن الأمر زاد عن ذلك، فقد كادت المضحكة تتحول إلى محزنة لولا عودة مصطفي الطنبور في تلك اللحظة الحرجة، محنيا يبحث عن لبدته والرأس عار، رآها وقد تدحرجت أسفل واحدة من كنبات المضحكة، انحني أكثر وأخذها بلهفة، حطها علي رأسه فضحكنا، أضحكنا أكثر أن الرجل اقتعد الأرض بنفس الخنوع المقيت، ولا أحد يدري ما هو

السر الذي دفع صاحبنا للقيام والاقتراب منه ليخطف اللبدة الساكنة فوق رأسه، ينظر إليها بقرف قبل أن يقذف بها في موقد الفحم المشتعل، يحول بين الرجل الذي يحاول استعادتها بكل قواه، وبدا لنا أن هناك ثأراً قديماً بين عفت الطنبور وتلك اللبدة وصاحبها، ثأر قديم ومخفي في الأعماق، موغل في داخل الداخل قد لا يشفيه رائحة اللباد المشتعل وقد يشفيه، وحتى هزيمة الرجل الذي انهزم إلى حد التدمير لم يكن ليشفيه علي ما كان يبدو لنا، ربما يكون قد شعر ببعض الارتياح أو بزيادة جرعة الألم إلى حد اليأس من كل أمل في الشفاء، لكن اللبدة انحرقت وأنوفنا انزكمت ، وما كان في بطوننا من طعام المضحكة وشرابها مستقرا بدأ في الحركة التي تسبق الانفلات من الأفواه دون انفلات، وكان صوت المرأة القرعاء يأتينا من خلف الجدران ليؤكد قدرتها علي استخدام رسام المساخر وناسه بحسب هواها وإرادتها وبضرب المداس.

الكاتب فى سطور

أحمد الشيخ

ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧آداب عين شمس - دبلوم تمهيدي ماجستير ١٩٦٨.

حاصل علي جائزة الدولة التشجيعية ووسام الدولة للفنون من الطبقة الأولي عن مجموعة " النبش في الدماغ " ١٩٨٥.

عضو اتحاد الكتاب / نادي القصة / أتيليه القاهرة / جمعية الأدباء / نقابة السينمائيين / جمعية مؤلفي الدراما.

سافر ضمن وفود الأدباء لتمثيل مصر في: الصين / السعودية / العراق / ليبيا / اليمن.

صدر للكاتب:

دائرة الانحناء	مجموعة قصصية	١٩٧٠	هيئة الكتاب
الناس في كفر عسكر	رواية	١٩٧٩	هيئة الكتاب
النبش في الدماغ	مجموعة قصصية	١٩٨١	دار المعارف
مدينة الباب	مجموعة قصصية	١٩٨٣	هيئة الكتاب
كشف المستور	مجموعة قصصية	١٩٨٤	دار المعارف
الحنان الصيفي	مجموعة قصصية	١٩٨٧	هيئة الكتاب
حكاية شوق	رواية	١٩٩١	دار الهلال

كتاب الهلال

لقطات من رحلتى الفكرية

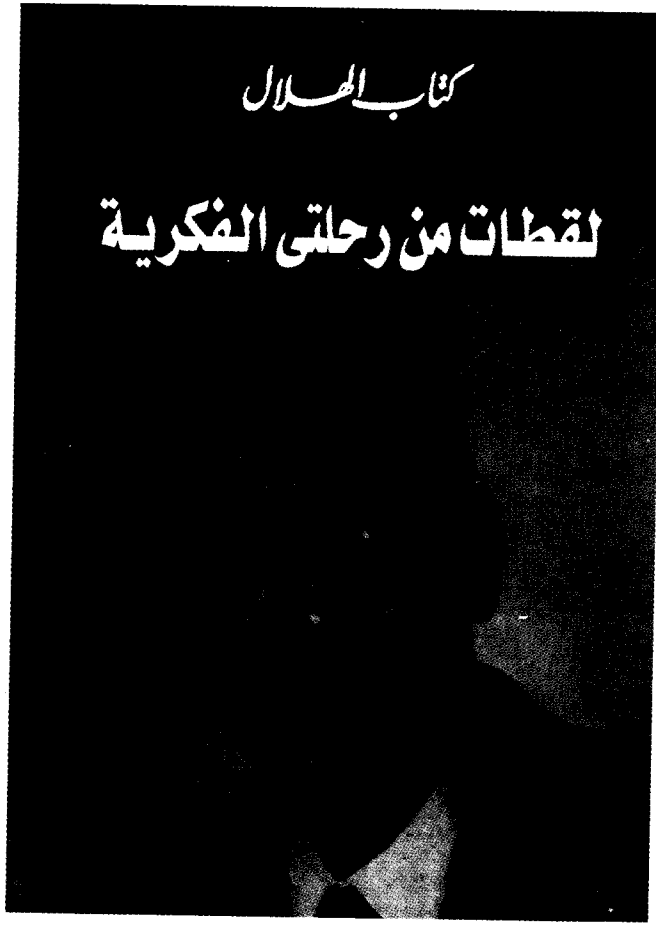

هذه الرواية

لم تكن واحدة من المصادفات التي رأيتها في ميدان التحرير أيام الضراوة الوافدة من تحت الأرض، تمتطي الجمال والخيل والبغال، وتتصدي لشعب أعزل خرج يطالب بحقوق انتزعوها منه عبر سنوات طالت وطالت، ميدان التحرير بؤرة توحي بالكثير، وقد حاولت أن أعبر عن عنفوان المدينة في ميدان التحرير الذي تأملته كثيرا قبل كتابة مجموعة قصص تحت عنوان «النبش في الدماغ» في أواخر الستينيات، كان ميدان التحرير خلال السنوات الفائتة جسرا وبؤرة وقدرة علي لملمة الكل لرفض الانكسار وإعلان الإصرار علي مواصلة المشوار، وأحيانا يتجمعون لوداع من يستحق من شعبنا دموع الوداع.

لعل ما جري بميدان التحرير، أو بميادين التحرير التي ظهرت في المدن الكبيرة والصغيرة وحتي بعض القري، ميادين تحرير لم تخطر علي الخيال لكنها كانت تتزايد بعناد وشرف، لعلها لم تكن أكثر من عبارة قالها رجل مصري في خمسينيات أو ستينيات العمر، أصابته ضربة أو ضربات عشوائية فسقط أمام المتحف المصري، وحاول الشباب مساعدته للنهوض والإنقاذ، لكنه رفض بعناد وتشبث بالأرض، وبملابسه المتواضعة يتمدد وبكفيه يتحسس ترابها ويمنحه للبدن والرأس والوجه وكل الأطراف المتاحة، وصرخته تهز الميدان وترجف القلوب العابرة، تدفع الشباب ليواصلوا مشوارهم؛ بينما الرجل ينادي تراب الأرض: «ترابك يا مصر. ترابك يا مصر» وعبارته تتردد بإصرار، ويتباعد صوته ويواصل نداءه لمصرنا ليشهد الدنيا بأنها جديرة بكل عطاء، بترابها ونيلها وشبابها وشرف ثورتها، هل كان من الممكن أن نخذله ونتنازل عن دعوته لنا بأن نحترم ونعشق تراب الأرض؟

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
حلمى النمنم

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفنى
محمود الشيخ

مدير التحرير
هالة زكى

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١ ـ تلغرافيا: المصور ـ القاهرة ج.م.ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

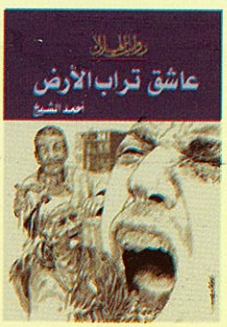

الغلاف محمد أبوطالب

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٧٢جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولاراً – أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولاراً – أمريكا وكندا والهند٤٥ دولاراً – باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

العدد ٧٥٨- مارس ٢٠١٢م - ربيع آخر ١٤٣٣هـ

البريد الإليكترونى: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة – لبنان ٦٠٠٠ ليرة – الأردن ٢٢٥٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠فلس – السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار– قطر ١٢ ريالا – الإمارات ١٢ درهما – سلطنة عمان ١,٢ ريال – اليمن ٤٠٠ ريال – المغرب ٤٠ درهما – فلسطين ٢دولار – سويسرا ٤ فرنكات – السودان ٣,٥ جنيه.